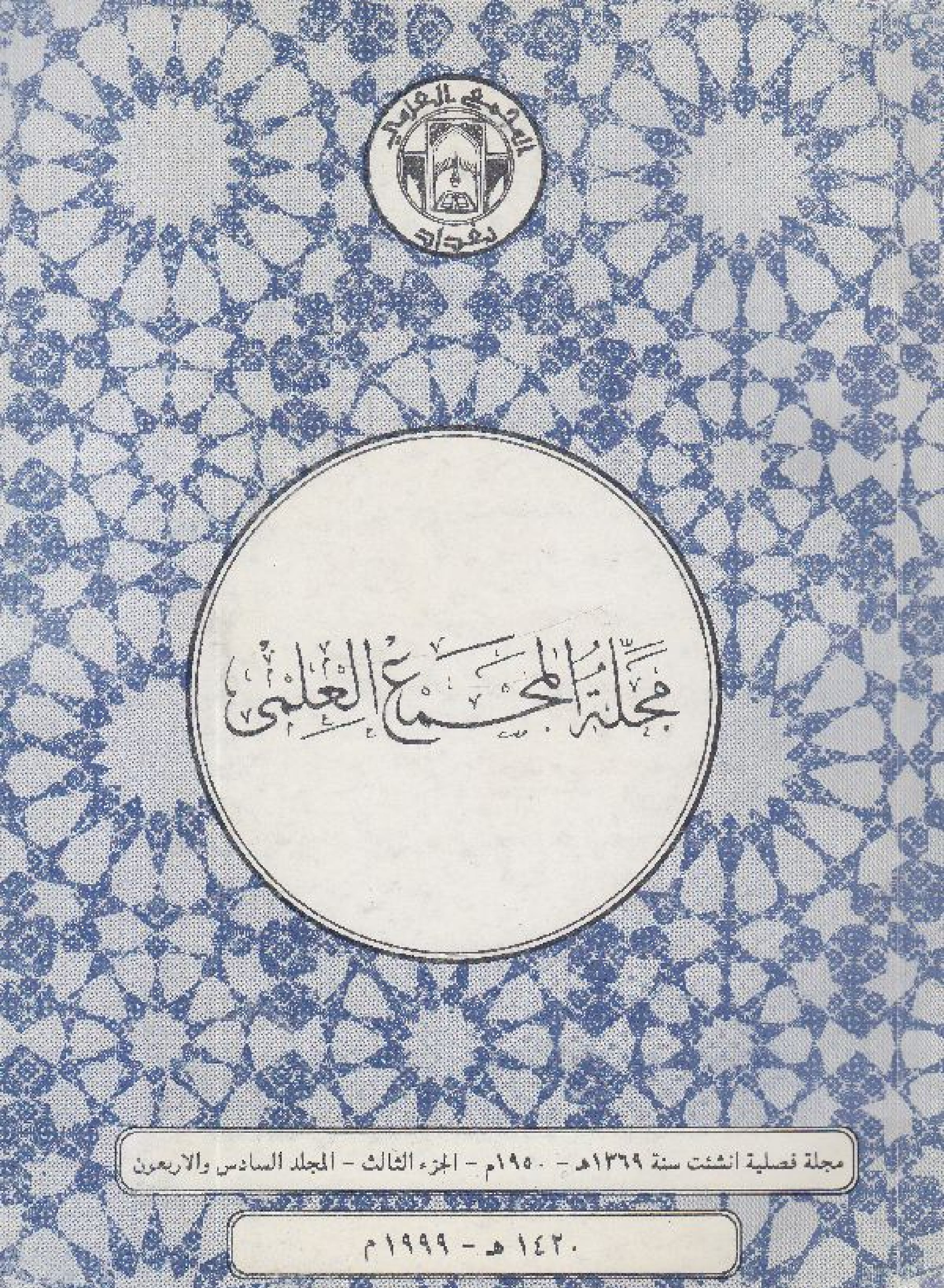

المجمع العلمي
بغداد
مجلة المجمع العلمي
مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الثالث - المجلد السادس والاربعون
١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م



مجلة المجمع العلمي

الجزء الثالث ـ المجلد السادس والاربعون

بغـــداد

١٤٢٠ هـ ـ ١٩٩٩ م

شروط النشر وضوابطه

١ ـ تنشر المجلة البحوث العلميـة ذات السمة الفكرية والشمولية وبمـا يسهم في تحقيق اهداف المجمع .

٢ ـ لغة المجلة هي اللغة العربية ويراعى الباحثون والكتاب في صياغتهم الوضوح وسلامة اللغة .

٣ ـ يشترط في البحث ان لايكون قد نشر او قدم للنشر في مجلة اخرى.

٤ ـ تعرض البحـوث المقدمـــة للنشر في المجلـة على محكمين من ذوي الاختصاص لبيـان مـدى اصالتها وجودتها وقيمة نتائجها وسلامة لغتها وصلاحيتها للنشر .

٥ ـ هيئة تحرير المجلة غير ملزمة برد البحوث الى اصحابها في حالة عدم قبولها للنشر .

٦ ـ يرسل البحث الى المجلة بالمواصفات التالية : ـ

أ ـ ان يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة او مكتوباً باليـد بخط واضح وجيد وعلى وجه واحد من الورقة .

ب ـ ترسل نسخة واحدة من البحث تحمل اسـم الكاتب وعنوانه كاملا باللغة العربية .

جـ ـ يجب ان لا تزيد عدد الصفحات عن (٣٠) ثلاثين صفحة وبما لايتجاوز (٧٥٠٠) سبعة الاف وخمسمائة كلمة .

د ـ ان يكون مستوفياً للمصادر والمراجع ، موثقة توثيقاً تاماً حسب الاصول المعتمدة في التوثيق العلمي .

هـ ـ يرفق بالبحث ما يلزمه من اشكال او صور او رسوم او خرائط او بيانـات توضيحية اخرى ، على ان يوضـح على كل ورقة مكانها من البحث ويشار الى المصدر اذا كانت مقتبسة .

و ـ ان تستخدم في البحث المصطلحات المقرة عربياً .

ز ـ يرفق بالبحث ملخص باللغتين العربية والانكليزية بحدود نصف صفحة لكل ملخص .

ح ـ تكتب الكلمات الدالة باللغة الانكليزية .

٧ ـ يعطى صاحب البحث ـ عند نشره ـ ثـلاث نسخ من المجلـة مع عشرة مستلات من بحثـه .

البحوث لاتعبر بالضرورة عن راي المجمع العلمي

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م

ـ توجه البحوث والمراسلات الى : رئيس تحرير مجلة المجمع العلمي

المجمع العلمي ـ ص . ب . (٤٠٢٣) بغداد ـ جمهورية العراق

هاتف : « ٤٢٢١٧٢٣ ـ ٤٢٢٢٠٦٦ » فاكس : ٤٢٥٤٥٢٣ / ١ ـ ٩٦٤

ـ الاشتراكات : داخل العراق (٤٠٠٠) دينار سنوياً .

خارج العراق (٥٠) دولار امريكي سنوياً وتضاف اجرة البريد .

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

التنـــوع الاحيـــائي

أ.د. باسل كامل دلالي
عضو المجمع العلمي

الملخـــص

تعتمد الحياة كلياً على البيئة التي نعيش فيها ، ان هذه البيئة على درجـة عالية من الغنى والتعقيد يصعب على الانسان استيعابها . للانسان دور حيوي في مستقبل الارض وعليه مسؤولية العناية بها ووقاية مواردها الطبيعية ، ذلك ان حياة الانسان تعتمد على ذلك .

الا ان التقدم والتطور الذي حصل خلال القرن الحالي ادى الى تدمير التنوع الاحيائي الموجود على الكرة الارضية بشكل ملفت للنظر ويدعو الى دق جرس الانذار . لقد انقرضت العديـد من الانواع بمستوى لم يعـرف سابقاً ، وتغيرت النظم البيئية ، اذ دمرت الغابات والمستنقعات والغطاء النباتـي وأدى ذلك الى حصول خلل في التوازن الدقيق للطبيعة .

المقدمة

يتكون التنوع الإحيائي العالمي من الملايين من الكائنات الحية مثل الاحياء المجهرية والنباتات والحيوانات التي توطنت في هذا الكوكب .• وهنالك العديد من الاصناف ضمن النوع الواحد التي نشأت وهي تحمل خصائص معينة عبر الاف السنين • لقد تأقلمت بعض هذه الاصناف للعيش في بيئة معينة وتمكنت من ان تزدهر وتعيش بصورة جيدة في اكثر المناطق الموحشة على الارض والتي لا تتمكن بقية الانواع ومن ضمنها الانسان من العيش فيها والهرب منها بسرعة • ومن الصعب جداً قياس الاختلافات الوراثية ضمن الانواع ، وتكون هذه الاختلافات على أقصاها في الاحياء المجهرية بسبب الاعتقاد بأنها اول الكائنات التي نشأت على سطح الكرة الارضية وتباعدت أصولها الوراثية على مر العصور والازمان • وفي الحقيقة أن بقاء العديد من أنواع الكائنات الحية على قيد الحياة يعتمد على الاحياء المجهرية التي تلعب دوراً كبيراً في الحفاظ على النظام البيئي **ecosystem** والمحيط الإحيائي **biosphere** (٣) .•

يعد التنوع الاحيائي العالمي احد المصادر الطبيعية المهمة ، الا انها لم تعط قيمتها الحقيقية ويحتوي هذا التنوع الاحيائي على جميع انواع الحياة من الاحياء المجهرية التي لا ترى بالعين المجردة الى اكبر وحش على هذا الكوكب .• ان التنوع الاحيائي هو المحصلة لجميع اصناف النباتات والحيوانات

والاحياء المجهرية والاختلافات الموجودة بينها وكذلك للمواقع البيئية التي تتوطن فيها • ان التنوع الاحيائي العالمي وانظمته البيئية والانواع species والمورثات genes عبارة عن نتاج اكثر من ٣٠٠٠ مليون سنة من التطور • وخلال هذه المرحلة تأقلمت الانواع لمواقع توطنها وكذلك حصل تعايش لكل نوع مع الاخر في نفس الموقع • ان الانواع المختلفة من الكائنات الحية تجهزنا بجميع ما نحتاج اليه من غذاء ، واغلب حاجاتنا من المواد الخام والطاقة والعديد من المواد الطبية •

تحافظ الغابات والغطاء النباتي على خصوبة التربة ونوعية مصادر المياه وتلطف المناخ • تعمل العديد من انواع الكائنات الحية على استدامة الظروف البيئية والحفاظ عليها والتي تمكن جميع الانواع وبضمنها الانسان من العيش على كوكب الارض (٣) •

لا يتمكن اي نوع من الكائنات الحية من العيش بمعزل عن بقية الانواع ، ويعتمد كل نوع على الاخر في العيش بصورة مباشرة او غير مباشرة • يطلق على تجمعات الانواع التي تعيش معتمدة الواحدة على الاخرى وبيئتهم التي يتواجدون فيها بالانظمة البيئية ecosystems التي قد تتواجد على مساحة صغيرة كأن تكون حقلاً صغيراً أو أن تكون غابة كبيرة في المناطق الاستوائية التي تصل مساحتها الى مئات الكيلومترات المربعة (١) •

تعلم الإنسان منذ آلاف السنين كيفية التعامل مع البيئة بتهيئة الارض وزراعة المحاصيل وتربية الحيوانات الاليفة • تحسنت غلة المحاصيل وإنتاجية الحيوانات عبر التهجينات التي حصلت مع السلالات المدجنة او البرية التي تحتوي على مورثات ذات قيمة عالية من ناحية مقاومتها لبعض الامراض وكذلك الحشرات (١) •

وخلال القرون القليلة الماضية كان لنشاط الانسان تأثير كبير ، واحياناً لا يمكن اصلاحه ، على البيئة وعلى بعض انواع الكائنات الحية • اذ انه

بزيادة عدد السكان ، ازدادت الحاجة لتوسيع الرقعة الزراعية والاستيطان والتصنيع وأدى ذلك الى تناقص اعداد الكائنات الحية ضمن النوع الواحد او الانواع الموجودة في البرية بسرعة متزايدة • فمثلا تم قطع الاشجار في المناطق الاستوائية لصناعة الاخشاب والفحم ولاغراض السكن والزراعة والرعي والتعدين وانتاج النفط وبنيت السدود في الغابات التي تسر خلالها الانهار وحصلت فيضانات في اراضي الغابات كجزء من مخطط لانتاج الطاقة الكهربائية من القوة المائية •

للمراعي دور مهم في حفظ الاصول الوراثية والتنوع الاحيائي الضروري لحفظ التوازن بين عناصر البيئة المختلفة ـ الامر الذي يواكب توجهات التنمية الزراعية والريفية المستدامة وتضمين البعد البيئي في السياسات الزراعية المحققة لذلك • ان اي خلل او اضطراب بسبب الافراط في استغلال عنصر او اكثر بمعدل يفوق قدرته على التعويض يؤدي الى تتابع الاضطرابات وتدهور المورد (٢) •

هنالك آلاف الانواع من الكائنات الحية مهددة بالانقراض بسبب فرط الاستعمال **overuse** وفقدان اماكن توطنها والتلوث البيئي وبسبب ان الانواع في النظام البيئي تكون معتمدة الواحدة على الاخرى فان فقدان نوع واحد يؤدي الى اختفاء عدد اخر من انواع الكائنات الحية • ان الحيوانات الاليفة وانواع المحاصيل الحقلية هي الاخرى مهددة بالانقراض فمثلا ان الاصناف المحلية **local breeds** او تسمى ايضا اصناف الارض **land races** تندثر تدريجياً بسبب احلال اصناف اخرى (نباتية او حيوانية) تتميز بالانتاجية العالية (٤) • ان الاصناف المحلية قد تأقلمت على مواقع توطنها من ظروف جوية وتوفر المياه ولذلك نجد ان المزارع يستعمل هذه الاصناف لاجيال مضت • وللاستفادة من هذه الصفات يتوجب علينا عمل تضريبات بين الاصناف المحلية والاصناف ذات الانتاجية العالية • هنالك وعي متزايد في الوقت

الحاضر بضرورة الحفاظ على التنوع الاحيائي ، وتتخذ في الوقت الحاضر العديد من الخطوات لصيانة انواع الكائنات الحية وكذلك الانظمة البيئية . ان مراقبة التنوع الاحيائي عالمياً يعطي المعلومات على عدد انواع الكائنات الحية وتوزيعها بما يمكن الحكومات المعنية الحفاظ على المساحات التي تتميز باحتوائها على نسبة عالية من التنوع الاحيائي ، وتلك التي تحتوي على تنوع احيائي نادر مهدد بالانقراض . كما اتخذت الاجراءات اللازمة بتحريم التجارة بالانواع المعرضة للخطر (٥) .

الخلفية العلمية The Scientific Background

يفسر مصطلح (التنوع الاحيائي) الى تنوع الحياة على سطح الكرة الارضية ، ويشمل هذا المصطلح جميع انواع النباتات والحيوانات والاحياء المجهرية والمواد الوراثية والانظمة البيئية التي هم جزء منها . ان هذه الانظمة البيئية قد تطورت خلال الاف السنوات . يقسم التنوع الاحيائي عادة الى ثلاث فئات وهي التنوع الوراثي **genetic diversity** ، التنوع او اختلاف الانواع **species diversity** وتنوع الانظمة البيئية **ecosystem diversity** وسنتناول كلا منها بشيء من التفصيل :

التنوع الوراثي Genetic Diversity

تحتوي المادة الوراثية الموجودة في الاحياء المجهرية والنباتات والحيوانات على معلومات تقرر خواص جميع الانواع والافراد التي تتواجد على سطح الكرة الارضية . ان عدد التوليفات المحتملة للموروثات وللجزيئات التي تتكون منها الموروثات يكون كبيراً جداً واكبر بكثير من عدد الافراد ضمن النوع الواحد .

يشير مصطلح التنوع الوراثي الى الاختلافات الموجودة في التركيب الوراثي بين نوع وآخر وتلك الموجودة ضمن النوع الواحد . ان الافراد

الواقعة ضمن النوع الواحد تشترك في بعض الصفات لكـــن الاختلافـــات الوراثية هي التي تقرر الخواص المميزة لكل فرد ضمن النوع الواحد . وبكلام مبسط ، فان المادة الوراثية سوف تقرر فيما اذا سيكون لون العيون ازرق او أسود ، ولون الشعر اشقر او اسود ، والشخص يكون طويلا او قصيرا . ان المادة الوراثية تقرر ايضا فيما اذا كان نبات ما او حيوان ما يتمكن من العيش في موطن معين او تحت ظروف بيئية معينة ، فمثلا تتمكن بعض النباتات مـــن النمو في مياه مالحة نتيجة للاختلافات الوراثية .

ان التركيب الوراثي لافراد النوع الواحد غير ثابت ، اذ انه يتغير نتيجة للظروف الخارجية والداخلية . ان هذا الاختلاف في المادة الوراثية بين الانواع ساعد بعض هذه الانواع على التطور خلال عملية الاختيار الطبيعي ، وبصورة عامة يمكن القول ان الانواع التي تتوطن في مساحات كبيرة وتتناسل فيمـــا بينها في هذه المساحات ، فأنه سيكون لمورثاتها نسبة انتشار عالية ولن تظهـــر خواص تتعلق بالموقع **localized characteristics** وسوف يظهر التباين على افرادها . وبالمقابل فان الانواع التي تعيش في مساحة صغيرة او معزولـــة سوف تكون نسبة انتشار مورثاتها قليلة وسوف تتأقلم بمرور الوقت للعيـــش في موقع محدد وان التباين بين افرادها يكون قليلا (١) .

اختـلاف الانـواع **Species Diversity**

يقاس تنوع الانواع او اختلافها نسبة الى مساحة معينة . فمثلا من حقل صغير الى كوكب بأكمله ويمكن النظر الى الموضوع من زاوية عدد الانـــواع او مدى تواجد نمط من تلك الانواع **types of species** في منطقة معينة . وحتى الان يقدر عدد الانواع التي شخصت على سطح الكرة الارضية بحوالي ١ر٧ مليون نوع ، كما يقدر بوجود ما يتراوح بين ٥ ـــ ١٠٠ مليون نـــوع (التقديرات المحافظة تشير الى وجود ١٢ر٥ مليون نوع على ســطح الكـــرة الارضية) . وبالرغم من ان اغلب الانواع الموجودة على سطح الكرة الارضية

هي حشرات واحياء مجهرية ، الا ان ذلـك لم ينعكـس على نمط الانـواع type of species التي شخصت حتى الان • لقد بدأ الانسان بتشـخيص الكائنات الحية الكبيرة التي يعتقدها جذابـة او تـروق له (مثل النباتـات المزهرة والفراشات) والكائنات التي تكون اقرب الشبه له (مثل الفقريـات وخاصة الثدييات) وتلك التي لها تأثير مباشر على نشـاط الانسـان (مثـل الحشرات) • كذلك الاحياء التي يمكن دراستها بسهولة من دون تعقيدات او حاجة الى استعمال معدات باهظة التكاليف ، واخيرا الكائنات التي يكـون من السهل العثور عليها (١) •

ان ذلك بطبيعة الحال يقلل من اهمية الاحياء المجهرية بضمنها الطحالـب والبكتريا والفطريات fungus والفطر والبروتوزوا والفايروسات التي هي مهمة للحياة على الارض • وحتى الان تم تشخيص ٣ـ٥٪ من الاحياء المجهرية الموجودة على سطح الكرة الارضية ومن المعلوم ان بقاء الكائنات الحية الكبيرة يعتمد على استمرارية تواجد الاحياء المجهـرية • فمثلا لا يمكـن لسلسـلة الصخور المرجانية من العيش بدون الطحالب • وعلى مستوى النظام البيئي ، فان اكبر كتلة حيوية توجد في التربة هي الاحياء المجهرية ولاسيما الاعفان التي تعمل على الحفاظ على بنية التربة من خلال التحلل الاحيائي لبقايا النباتات الميتـة ودمجها في التربة ومن المعلوم ان لفقدان الاحياء المجهرية تأثيراً ملموسـاً وكبيراً على الانظمة البيئية •

يعكف المختصون في مجال علوم الحياة على دراسة كل من الانواع التي تحتوي على مجاميع كبيرة (مثل الحشرات) والمساحات التي تتواجد فيهـا انواع كثيرة (مثل مناطق الغابات الاستوائية الرطبة) للحصول على صـورة اكثر واقعية يمكن الاعتماد عليها فيما يتعلق بوضع اسس وانماط لتقدير جميع الانواع من الكائنات الحية الموجودة على سطح الكرة الارضية •

هنالك طريقة اخرى لقياس التنوع الاحيائي يتضمن الوفرة النسبية للانواع المختلفة في منطقة معينة • اي ان للمنطقة التي تحتوي على العديد من انواع النباتات والحيوانات المختلفة تنوعاً احيائياً اكبر من منطقة تتغلب فيها انواع اقل • فعلى سبيل المثال ان للجزيرة التي تحتوي على نوعين من الطيور ونوع واحد من السحالي تنوعاً احيائياً اكبر من جزيرة فيها ثلاثة انواع من الطيور فقط بدون سحالي •

تنوع الانظمة البيئية Ecosystem Diversity

أدى تنوع بيئات اليابسة والمائية على سطح الكرة الارضية الى تصنيفها الى عدد من الانظمة البيئية.• ان مواقع التوطن تشمل على الغابات الاستوائية المطرة والاراضي المزروعة بالحشائش والاراضي الرطبة والشعب المرجانية والمنغروف mangrove (شجر استوائي تنبثق من اغصانه جذور جديدة) • من الصعب قياس التغيرات التي تحصل في مدى كل نظام بيئي ، لانه لا يوجد اتفاق عالمي على تصنيف الانظمة البيئية فضلا عن انه غالبا ما تكون الحدود متغيرة وغير محددة المعالم • كما ان الانواع المتواجدة في نظام بيئي معين تتغير باستمرار • تستعمل عدة معايير لاجراء الدراسات على تنوع الانظمة البيئية ، فقد تجرى الدراسة على نظام بيئي واحد او قد تجرى على منطقة باكملها تحتوي على عدد من الانظمة البيئية . ومن البديهي القول ان المناطق التي تحتوي على عدد من الانظمة البيئية تكون غنية بالتنوع الاحيائي ، لكن ايضا يمكن القول ان كل نظام احيائي من مجموع الانظمة يحتوي على انواع متوطنة يساهم بشكل معنوي الى التنوع الاحيائي العالمي •تعدّ الغابات الاستوائية التي تحتوي على نسب عالية من الرطوبة من اغنى مستوطنات التنوع الاحيائي ، بالرغم من انها لا تحتل اكثر من ٧٪ من مساحة الكرة الارضية وربما تحتوي الى حد ٩٠٪ من جميع انواع النباتات والحيوانات •

التنــوع الوراثــي Genetic Diversity

يعد التنوع الوراثي احد مفاتيح نجاح الزراعة ، ولعدة اجيال ، استعملت خواص الانواع المختلفة للنباتات والحيوانات المدجنة من قبل الانسان مــن خلال الانتخاب والتربية والتحسين وذلك لتطوير سلالات جديدة من المحاصيل والحيوانات التي تعمل على ازدهار الانظمة الزراعية وتطورها والتي غالبا مــا تكون مقاومة للامراض والحشرات •

من التطورات الحديثة هي استعمال الهندسة الوراثية (نقل الموروثــات بين الانواع) للحصول على محاصيل ذات غلة عالية ومحاصيل يسهل حصادها ومقاومة لامراض معينة •

ان لمورثات الاحياء المجهرية نفس الاهمية لتلك التي توجد في الكائنــات الحية الاكبر ، وبالامكان استعمالها ليس لزيادة الانتاج الزراعي فحســـب ، ولكن ايضا لتوفير مدى واسع من المنتجات الصناعية والصيدلانية (مثـــل الاحماض العضوية ، الفيتامينات ، المضادات الحيوية ، المــواد المستعملة في حفظ الاغذية) •

تستعمل معظم الموارد الوراثية في مكان او بلد غير مكان تواجده الطبيعي، وان استعمال الموارد الوراثية الجديدة اخذ بالازدياد • ومن المهــم جدا تبادل المواد الوراثية بين الدول النامية في ضوء الاهمية الاقتصادية لمحاصيل مثـــل المطاط ، وزيت النخيل ، والكاكاو ، والكازافا ، وقصب السكر • أن مثل هذه المحاصيل غالبا ما تكون منتجة خارج مواقع توطنها ، لكنهــا تكون عرضــة للهجوم من قبل بعض الحشرات والامراض ، بالامكان التغلب على هـــذه المشاكل بادخال مواد وراثية جديدة من اصناف تتواجد في المواقع الجديدة •

النباتــات المزروعــة Cultivated Plants

تقدر عدد انواع النباتات المزهرة في العالم بـــ ٢٦٥٠٠٠ نوع ، يستعمل منها ٣٠٠٠ للغذاء فقط • ومن هذا العدد حوالي ٢٠٠ نوع يزرع ونحــــو

١٥ ــ ٢٠ نوع اهمية اقتصادية كبيرة وتجهز ٩٠٪ من غذاء العالم ، وان ثلاثة محاصيل فقط (الحنطة والذرة الصفراء والرز) تجهز اكثر من ٥٠٪ من غذاء العالم . يعتقد بأن الزراعة بدأت قبل حوالي ٥٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ سنة في العراق ومصر . والصين ، وجنوب المكسيك . لقد ازداد تنوع المحاصيل مع بداية عمل التهجينات اما بصورة طبيعية وعفوية او بفعل الانسان بين المحاصيل المدجنة واقرانها البرية ، واخذت هذه الانواع بالانتقال الى مناطق جديدة تأقلمت الى ظروف بيئية جديدة ومختلفة .

ان التنوع الوراثي الموجود في انواع المحاصيل التقليدية والذي تطور خلال الاف السنين مهدد في الوقت الحاضر بسبب التوجهات الحديثة في الزراعة واللجوء الى المحاصيل الموحدة وراثياً **genetically uniform crops** التي تنتج معظم ما يحتاج اليه العالم من غذاء . ففي اليونان مثلا ، ادى ادخال اصناف الحنطة ذات الانتاج العالي الى فقدان ٩٥٪ من اصناف الحنطة الاصلية خلال ٤٠ عاما الماضية .

يعد التوحد الوراثي **genetic uniformity** في المحاصيل السبب في العديد من الاخفاقات التي حصلت لانها اكثر عرضة للاصابة بالعديد من الامراض ، ففي اندونيسيا خلال ١٩٧٤ ــ ١٩٧٧ تم اتلاف اكثر من ٣ ملايين طن من الرز بسبب اصابتها بالـ **grassy stunt virus** ، وفي عام ١٩٨٤ في ولاية فلوريدا الامريكية تم تلف ١٨ مليون شجرة حمضيات في ١٣٥ مشتل . يوضح الجدول (١) انخفاض عدد الانواع المستعملة من المحاصيل الغذائية الرئيسة .

جدول (١) : يقل التنوع الوراثي في نباتات مثل الرز والبطاطا والقطن وفول الصويا والحنطة في العديد من الدول .

مدى التوحد الوراثي في المحاصيل

المحصول	البلد	عدد الاصناف
اصناف الرز	سريلانكا	من ٢٠٠٠٠ صنف عام ١٩٥٩ الى ٥ اصناف رئيسية
الرز	الهند	من ٣٠٠٠٠ صنف الى ٧٥٪ من الانتاج يتأتى من ١٠ أصناف فقط
الرز	اندونيسيا	٧٤٪ من الاصناف انحدرت من نبات واحد من جهة الام
البطاطا	الولايات المتحدة الامريكية	٧٤٪ من المحصول من ٤ أصناف .
القطن	الولايات المتحدة الامريكية	٥٠٪ من المحصول من ٣ اصناف .
فول الصويا	الولايات المتحدة الامريكية	٥٠٪ من المحصول من ٦ اصناف .
الحنطة	الولايات المتحدة الامريكية	٥٠٪ من المحصول من ٩ اصناف .

تنوع الانواع Species Diversity

تجهز كل من النباتات البرية التي يزرعها الانسان بسدى واسع من الاغذية والمواد الطبية والمواد الخام وبالرغم من ان العديد من الانواع البرية والمستعملة على نطاق واسع مهدد بالانقراض بسبب سوء الاستعمال ، الا ان التنوع الاحيائي النباتي سوف يبقى الثروة الكامنة التي لم تستغل حتى الان كما يجب للاحتياجات والتطورات المستقبلية . يوضح الجدول (٢) البلدان المعروفة بتنوعها الاحيائي (١) .

جدول (٢) البلدان الاكثر غنى في انواع النباتات المعروفة

البلد	عدد الانواع	البلد	عدد الانواع
البرازيل	٥٥٠٠	فنزويلا	٢٠٠٠
كولومبيا	٣٤٠٠	الولايات المتحدة الامريكية	١٩٠٠
الصين	٣٠٠٠	الاكوادور	١٨٠٠
المكسيك	٢٥٠٠	بوليفيا	١٦٠٠
افريقيا الجنوبية	٢٣٠٠	استراليا	١٤٥٠
الاتحاد السوفيتي السابق	٢٢٠٠	الهند	١٤٥٠
اندونيسيا	٢٠٠٠	بيرو	١٢٥٠
		ماليزيا	١٢٠٠

تعد مناطق الغابات الاستوائية المطرة من اغنى الانظمة البيئية في العالم فيما يتعلق بالتنوع الاحيائي وتحتوي على مالا يقل عن نصف انواع النباتات والحيوانات على الكرة الارضية . فضلا عن ان المحيطات والبحار والبحيرات تعد من المصادر الغنية بالتنوع الاحيائي . لذلك فان الدول الغنية بالتنوع الاحيائي اما ان تكون واقعة في المناطق الاستوائية او محاطة بالمياه او ان الغطاء النباتي فيها يمتد على مساحات شاسعة .

الغذاء **Food**

ان الاستعمال الرئيس للنبات هو الغذاء . تطورت محاصيل النباتات خلال الـ ٥٠٠٠ ــ ١٠٠٠٠ سنة الماضية وهنالك مدى واسع من النباتات التي تستعمل في الوقت الحاضر .

في قديم الزمان كانت النباتات تجمع من البرية وهو تقليد مازال معمولا به في المناطق الريفية حتى الان للاكل • تستعمل الاغذية التي تجمع من مناطق الغابات في تدعيم ما يتناوله اهل الريف من اغذية اعتيادية ، وغالبا ما تخـزن لاستعمالها في وقت لاحق خلال اوقات الطوارىء والجفاف والمجاعة والحروب تعد اوراق النباتات البرية ان كانت خضراً او مجففة من اكثر اغذية الغابـات استعمالا وغالبا ما تطبخ على هيئة هريسة • وتستعمل البذور والجذور والنقل nuts والتقاوي للغذاء كذلك الاصماغ ، كما ان السـوائل sap التي تجري في اوعية النباتات تستعمل للمشروبات •

الاخشـاب Timber

يعد الخشب احد اهم السلع في التجارة العالمية ، وتقدر قيمة صـادرات الخشب العالمية بعدة بلايين من الدولارات • تأتي معظم الاخشاب من الدول ذات المناخ المناسب مثل كندا وفلندة ومن الاتحاد السوفيتي السابق والولايات المتحدة الامريكية • كما تساهم الاخشاب بجزء مهم من صادرات العديد مـن الدول النامية مثل ماليزيا وغينيا الجديدة واندونيسيا •

تتكون مشاتل الاخشاب التجارية من انواع الاشجار السريعة النمو وتكون اخشابها عادة غير صلبة ، الا ان معظم الاخشاب تأتي من الغابات الطبيعيـة •. لا توجد معلومات كافية حول معدل تجارة كل نوع من الاخشـاب ، الا ان مصادر الاخشاب في العالم مهددة لسوء الادارة والقطع الجائر •

النباتـات الطبيـة Medicinal Plants

هنالك ما يقدر بـ ٢٠٠٠٠ نوع من النباتات في العالم تستعمل تقليديـا للاغراض الطبية منها فقط ٥٠٠٠ نوع درست على انها مصادر محتملة لمصادر الادوية تجاريا •. تستخلص المواد الكيمياوية من ٩٠ نوعا منها وتسـتعمل في

صناعة الادوية . معظم النباتات الطبية المستعملة تجاريا انواع تتواجد في المناطق المعتدلة ، وغالبية النباتات الاستوائية لم تستغل في هذا المجال حتى الان .

عادة ما يتم الحصول تجاريا على النباتات الطبية من البراري ، الا ان زراعة النباتات الطبية الرئيسة آخذة بالازدياد في الـ ٢٥ سنة الاخيرة . وبالرغم من انه يمكن تصنيع المواد المستخلصة من النباتات الطبية مختبريا الا ان الولايات المتحدة الامريكية مازالت تستورد ما قيمته ٢٠ مليون دولار سنويا من النباتات المتحصل عليها من مناطق الغابات الطبيعية للاغراض الطبية.

تتركز النباتات الطبية في امريكا الوسطى وكولومبيا والاكوادور والمكسيك وبيرو وفي شبه القارة الهندية وغرب آسيا واجزاء من شمال شرق افريقيا . تتعرض النباتات الطبية الى القطع الجائر في جميع هذه البلدان . يعد احد انواع النباتات الذي ينمو في سفوح جبال الهملايا في شمال الهند المصدر الرئيس لمادة الـ **diosgenin** التي تستعمل في صناعة حبوب منع الحمل . احد الاعشاب الذي ينمو في غابات الهند ويدعى جذر الـ **serpentine** استعمل في الطب التقليدي لاكثر من ٤٠٠٠ سنة لمعالجة لدغات الافاعي والديزنتري والكوليرا والحمى ، ويستعمل مستخلص هذا النبات أحد المكونات الرئيسة لصناعة المهدئات للـ ٥٠ سنة الماضية وان هذا النوع مهدد في البرية بسبب سوء الاستعمال .

تعد كل من الهند وبورما الموطن الاصلي لشجرة النيم الاخذة بالانتشار خلال هذا القرن . ويعتقد ان هذه الشجرة سترافق الانسان خلال القرن القادم للسيطرة على الحشرات وتجهيز ملايين الناس بالادوية الرخيصة ، حتى اطلق عليها اسم « صيدلية القرية » .

ان لبعض المركبات المأخوذة من بذور النيم صفات مانعة للحمل وسوف يساعد ذلك في الحد من تكاثر السكان (٨) .

تعد الانواع البرية للنباتات الطبية في العديد من مناطق الغابات في العالم مهددة بسبب الزيادة الكبيرة في انتاج الادوية منها على نطاق تجاري وتستعمل مستخلصاتها في الوقت الحاضر من قبل مصانع الادوية العصرية .

الحيوانات البرية Wild Animals

ان احد الاسباب المهمة للحفاظ على التنوع الاحيائي هو قيمة الحياة البرية على انها مصدر للغذاء وللمواد الطبية التقليدية والجلود والفراء ومورد مالي نتيجة جذب السياح .

الغذاء Food

تعد الحياة البرية في العديد من الدول النامية مصدرا مهما للغذاء ، اذ ان معظم الناس في الدول الافريقية يأكلون لحوم الصيد التي تتراوح من خفافيش صغيرة والسحالي الى حيوانات اكبر حجما كالجاموس ، فعلى سبيل المثال ، تمثل حيوانات الصيد في راوندا وزائير حوالي ربع البروتين الحيواني المستهلك . وترتفع النسبة في المجتمعات الريفية والتقليدية لتصل الى حوالي ٦٠٪ من احتياجات السعرات الحرارية وفي نيكاراغوا توفر الحياة البرية ٩٨٪ من اللحم والسمك لبعض السكان الاصليين ، فضلا عن ان حيوانات الصيد تمثل مصدرا للبروتين ، فانها ايضا مصدر جيد للدخل عند بيعها في الاسواق المحلية . تعد تجارة صيد الحيوانات رائجة عالميا وتشمل ما معدله ٣٢٠٠٠ طن سنويا ، والدول الرئيسة في هذا المجال هي الارجنتين والمملكة المتحدة وعدد من دول اوربا الشرقية .

وتعد الحشرات والرخويات أيضا من المصادر الغذائية ، فمثلا لاحد انواع المحار كبيرة الحجم الموجودة في افريقيا قيمة غذائية مكافئة للحم البقر فيما يتعلق بالبروتين . تستعمل عادة حوالي ٥٠٠ نوع من الحشرات في غذاء الانسان . من السهل جمع الارضة لوجودها باعداد كبيرة واستعمالها غذاء في افريقيا وآسيا وامريكا الجنوبية . يستهلك الجراد في المناطق الاستوائية في افريقيا الجنوبية وجنوب شرق آسيا اذ يجمع بكميات كبيرة ويجفف ويستهلك في اوقات شحة الغذاء . تمثل يرقات الفراشات والعث والخنافس مصادر مهمة للغذاء في مناطق عديدة من استراليا وافريقيا الوسطى وامريكا الوسطى وجنوب شرق اسيا . ان الانتاج العالمي للاسماك يفوق انتاج لحوم الماشية والاغنام ، وتعد الاسماك احد اكبر مصادر البروتين الحيواني لسكان الكرة الارضية . ازداد صيد الاسماك والمحار اكثر من اربعة اضعاف خلال الـ ٤٠ سنة الماضية نظرا لتحسن التقانات المستعملة اذ جاوزت كميات الاحياء المائية التي تم اصطيادها الـ ١٠٠ مليون طن سنويا ، ٩٠٪ منها اسماك والبقية تمثل الرخويات والقشريات ، بالرغم من وجود ١٣٠٠٠ نوع من الاسماك البحرية ، الا ان صناعة الاسماك البحرية تعتمد على عدد قليل من الانواع ، اذ ان ١٢ نوعا منها تساهم في انتاج ٣٥٪ من الصيد العالمي للاسماك . يبين الجدول (٣) القيمة الغذائية لانواع حيوانات وحشرات يستعملها الانسان في غذاءه (١) .

جدول (٣) القيمة الغذائية لانواع حيوانات مختارة

المـادة	٪ بروتين	٪ دهن	٪ كاربوهيدرات	٪ املاح معدنية	سعرات لكل ١٠٠ غم
لحم بقر	١٧ر٤ــ١٩ر٤	١٥ر٨ــ٢٥ر١	صفر	٠ر٨ــ٠ر٩	٢٢٥ــ٣٠١
لحم غنم	١٥ر٤ــ١٦ر٨	١٩ر٤ــ٢٧ر١	صفر	١ر٢ــ١ر٣	٢٤٧ــ٣١٠
لحم دجاج	٢٠ر٦ــ٢٣ر٤	١ر٩ــ٧ر٤	صفر	١	١١٧ــ١٣٠
هلبوت (نوع من السمك)	٢٠ر٩	١ر٢	صفر	١ر٤	١٠٠
حليب	٣ر٥	٣ر٧	٤ر٩	٠ر٧	٦٦
بيض	١٢ر٩	١١ر٥	٠ر٩	١	١٦٣
النمل الابيض (الارضة)	٢٣ر٢	٢٨ر٣	كميات قليلة	كميات قليلة	٣٤٧
الجـراد	١٥ر٣ــ٤٦ر١	٢ر٤ــ٩ر٦	٦ر٨ــ٧ر٥	٠ر٨ــ٥ر٠	كميات قليلة
الفراشة/العث	٢٣ر١	١٤ر٢	كميات قليلة	١ر٥	٢٠٧
النمل ، الزنابير، النحل	١٨ر٢	٢ر٤	٠ر٨	٢ر٢	كميات قليلة

تعتمد العديد من الصناعات على الحياة البرية ــ ومنتجاتها ــ بعض هذه الصناعات تهدد الانواع التي تعتمد عليها بالانقراض الا ان بعضها الاخر يشجع الحفاظ على الانواع البرية مثل السياحة •

لمنتجات الحياة البرية قيم عالية احيانا لاستعمالها للزينة والحلي والزخرفة مثل عاج الفيلة وترس السلحفاة وجلد الفهود وانواع القطط الاخرى • كما ان للزواحف لاسيما التماسيح والسحالي والثعابين قيماً عالية في عالم التجارة •

يأتي الفراء عادة في الوقت الحاضر من الحيوانات التي تربى في المزرعة ، عدا فراء القطط الذي يكون مصدره الحياة البرية •

تستعمل المنتجات الحيوانية على نطاق واسع في الطب التقليدي في افريقيا وامريكا الجنوبية وآسيا ، واخذت تجارة هذه المنتجات تزدهر في العقدين الاخيرين واصبحت مربحة للغاية • فمثلا تقدر التجارة العالمية بقرون ومسك واوتار الغزلان بـ ٣٠ مليون دولار سنويا • تصطاد العديد من انواع الحيوانات البرية النادرة لتستعمل في الوصفات الطبية الشرقية : تجارة المسك من الغزلان ، ومثانة الدب ، وعظام النمر وقرون الكركدن مما ادى الى قلة اعدادها بشكل مخيف واصبحت مهددة بالانقراض في الوقت الحاضر •

اما تجارة الحيوانات الحية مثل الطيور والحيوانات الاليفة التي تربى في حدائق الحيوانات فتقدر بملايين الدولارات سنويا ، كما تستعمل الثدييات (لاسيما القردة) للتجارب في بحوث الطب الحيوي •

تجذب الحياة البرية العديد من السياح للراحة والاستجمام وتعد مصدرا جيدا للدخل القومي في عدد من الدول ، فمثلا يدفع السائح ما قيمته ٢٠٠ دولار في الساعة ليراقب حياة الغوريلا البرية الجبلية في رواندا •

تعد المصادر البايولوجية للمورثات والانواع والانظمة البيئية من المصادر القابلة للتجدد اذا احسنت ادارتها وتكون مصدرا للتطور المستدام الا ان التنوع الاحيائي قد تدهور وتآكل خلال القرن الماضي وبوتيرة اسرع منذ موت الديناصورات قبل حوالي ٦٥ مليون سنة • من الاسباب التي ادت الى انقراض التنوع الاحيائي هي فقدان اماكن التوطن habitat loss والحصاد الجائر الذي يشمل التجاوز على اراضي الغابات والتنوع الاحيائي وتحويلها الى الزراعة والصيد الجائر للحيوانات وادخال الاصناف والانواع الجديدة التي ادت الى انقراض الاصلية المتوطنة سواء كانت نباتية ام حيوانية او صارت مهددة •

وبسبب التوجهات الحديثة في الزراعة ولتلبية الحاجات المتزايدة من الاغذية لسد النقص الحاصل بسبب الزيادة في عدد نفوس الكرة الارضية فان الزراعة قد توجهت نحو الاعتماد على اصناف الحبوب عالية الغلة واهمال الاصناف المحلية land races فمثلا انقرض ١٥٠٠٠ من انواع الرز المحلية في اندونيسيا خلال الـ ١٥ سنة الماضية بالمقابل يعد في الوقت الحاضر ٤٧٤ نوعا من الحيوانات الداجنة نادرة وانقرض ٦١٧ نوعا منذ عام ١٨٩٢ •

من اكبر العوامل التي تهدد فقدان التنوع الاحيائي في العالم هي الطبيعة العدائية للانسان • ان منطقة الخليج العربي ستواجه تأثير الاشعاعات السامة على البيئة والتنوع الاحيائي النباتي والحيواني لمدة طويلة قادمة نتيجة استعمال اليورانيوم المنضب خلال العدوان الثلاثيني على العراق • وكذلك من تواجد خراطيش القذائف الفارغة في ارض المعركة • ان دقائق اليورانيوم المنضب يمكن ان تصل الى المياه الجوفية وتصل الى الغذاء او ان تحمل بالهواء او الماء لتلوث مناطق اخرى بعيدة لتؤثر على تنوعها الاحيائي لاجيال قادمة •

افاد شهود عيان من البدو الذين يجوبون المنطقة للرعي بانهم شـاهدوا جثث الجمال والاغنام والطيور الميتة في الصحراء • وقد افاد اطباء بيطريـون امريكان مختصون بالامراض المعدية بأن هذه الحيوانات النافقة لم تكن مصابة بطلق ناري او مصابة بامراض • كما لاحظوا ان الجثث كانت مغطاة بحشرات لكن الحشرات ايضا كانت ميتة (٧) •

ومن الغريب حقا ان نرى إن برنامج البيئة التابع للامم المتحدة الـذي درس التأثيرات البيئية الناتجة عن استعمال اليورانيوم المنضب في العـدوان الثلاثيني لم يحرك ساكنا •

لقد تأثر القطاع الزراعي الى حد كبير نتيجة للحصار الظالم المفروض على القطر وبالتالي فقد اثر ذلك على البيئة وعلى التنوع الاحيائي من خلال جملـة عوامل تتعلق بالجانب النباتي او الحيواني او وقاية النبات • من المعلوم انـه خلال سنوات الحصار تدهورت الترب العراقية وزادت ملوحتها وارتفـع مستوى الماء الارضي بسبب توقف مشاريع الري عن العمل وتوقف عمليـات استصلاح الاراضي كما ان الكثبان الرملية باتت تزحف على المدن بسبب توقف عمليات التشجير في الاراضي الصحراوية • ان البحث عن اراضٍ زراعيـة جديدة لانتاج الحبوب ادى الى التجاوز على الاراضي الرعوية بسبب الحاجة الى الوقود في اثناء العدوان وبالتالي اثر ذلك كثيرا على الغطاء النباتي وفقدان التنوع الاحيائي (٩) •

لقد عانت الثروة الحيوانية ايضا بسبب الحصـار من جراء انتشـار الامراض والاوبئة والحشرات وشحة الادوية والمبيدات والعلاجات ، ان الضرر هنا لا يشمل فقط حيوانات المزرعة بل الحيوانات البرية والانسان ايضـا • خير مثال على ذلك انتشار ذبابة الدودة الحلزونية في ايلول ١٩٩٦ في وسط

العراق وفي منطقة قريبة من بغداد وبشكل مفاجىء مما يثير الشك بان انتقالها كان غير طبيعي عبر المحافظات الحدودية ، وانما كان دخولها الى القطر بصورة ميكانيكية .

كما ان اجتياح القوارض عام ١٩٩٣ كان مذهلا وبشكل مفاجىء ايضا ، ومما يزيد الطين بلة هو عدم توفر المبيدات وادوات المكافحة اللازمة للقضاء على الافات بصورة عامة ، وان توفرت هذه المبيدات فانها في احيان كثيرة تكون غير فعالة مما يدفعنا الى استعمال جرعات اكبر وهذا يؤدي الى تلوث البيئة وقتل جزء كبير من التنوع الاحيائي وتدميره . وبسبب شحة مصادر التمويل تقلصت البحوث الخاصة بالمكافحة المتكاملة واستخدام المكافحة الاحيائية مما انعكس سلبا على البيئة والتنوع الاحيائي ايضا .

قيمة التنوع الاحيائي The Value of Biodiversity

غالبا ما تقدر قيمة التنوع الاحيائي على اساس قيمة المنتجات المشتقة من التغايرات الوراثية . فمثلا ان ما يوفره الدخن المسمى **Pearl millet** المحسن وراثيا في الهند يصل الى ٢٠٠ مليون دولار سنويا . تساهم موروثات المحاصيل البرية في الانتاجية بشكل كبير ، فمثلا استعملت الموروثات البرية للشعير الاثيوبي لحماية الشعير المنتج في كاليفورنيا من الاصابة فايروس التقزم الاصفر **yellow dwarf virus** الذي كان يسبب خسارة ١٦٠ مليون دولار سنويا .

من المؤشرات التي تدل على اهمية التنوع الوراثي هو كمية المبالغ التي تصرفها المؤسسات البحثية في هذا المجال لنقل الصفات الوراثية المرغوبة ، اذ قد تصل هذه المبالغ مئات الملايين من الدولارات سنويا . تعد الصناعات الصيدلانية مؤشرا جيدا على القيمة المادية للنباتات ومشتقاتها ، اذ ان اكثر من ٢٥٪ من جميع الادوية في الولايات المتحدة الامريكية تعتمد في صناعتها

على النبات وتصل مبيعاتها الى اكثر من ١٠ بليون دولار سنويا وترجع اصول هذه الصناعة الى ٤٠ نوع من النباتات اي أن معدل ما يساهم به كل نوع من النباتات حوالي ٢٥٠ مليون دولار سنويا للصناعات الصيدلانية ويعتقد ان هذا الرقم يتضاعف ثلاث مرات على المستوى العالمي •

بدأ التناقص في التنوع الاحيائي العالمي منذ ان تعلم الانسان حصاد الموارد الطبيعية وتهيئة الاراضي الزراعية وزيادة الانتاجية • وفي ضوء ذلك يكون من المهم التأكد فيما اذا كان تحويل الموارد الطبيعية الى استعمالات اخرى يكون اكثر او اقل فائدة للانسان مقارنة بالحفاظ على التنوع الاحيائي ، ومن احدى الطرق لتقدير ذلك هو وضع قيمة مادية على مختلف الموارد الطبيعية ومقارنة هذه القيم بالفوائد المادية المتحصل عليها نتيجة القضاء عليها •

قيمة الموارد الطبيعية The Value of Natural Resources

من السهل جدا تقدير قيمة الموارد الطبيعية التي تستعمل بصورة مباشرة للحصول على دخل مادي مثل اشجار الغابات والحيوانات والنباتات المستعملة في الزراعة • الا انه لا يمكن تقدير قيمة الموارد الطبيعية والعمليات التي تساهم بصورة غير مباشرة في خير الانسان ، مثل امتصاص ثنائي اوكسيد الكربون من الجو بواسطة الغابات على اساس مادي ، لذلك غالبا ما تهمل القيم غير المباشرة للموارد الطبيعية ولا تؤخذ في الحسبان عند اتخاذ القرارات المتعلقة بالتطوير •

للموارد الطبيعية فوائد آنية ومستقبلية ، ان كانت مباشرة او غير مباشرة وعلى الانسان الحفاظ عليها للاجيال القادمة • فعلى سبيل المثال ان الغابات الاستوائية ذات قيمة كبيرة مباشرة بما تحتويه من اخشاب ، الا انها ايضا

مهمة بصورة غير مباشرة في الحفاظ على مجمعات الامطار التي تمد الانهار بالمياه ونوعية الهواء ، وكذلك بما تحتويه من انواع نباتات ذات استعمالات مستقبلية للغذاء والدواء •

وفي الختام يمكننا التأكيد ان الهدف الاساسي من الحفاظ على التنوع الاحيائي هو الاستفادة منه بشكل دائم للجيل الحالي والاجيال القادمة لما يشكله من مصدر مهم للثروات الطبيعية والمصادر الوراثية ، ويجب على الحكومات المركزية سن تشريعات ملزمة بهذا الخصوص وكذلك الحفاظ على المحميات الطبيعية وحماية الانواع النباتية والحيوانية المهددة بالانقراض• كما يجب توعية المواطنين على نطاق واسع باهمية الحفاظ على التنوع الاحيائي وانه من حصة البشرية اجمع •

المصـــادر

1- Global Biodiversity (1993) . United Nations Environment Programme. Nairobi- UNEP.

(٢) دراسة الاثار البيئية على الموارد الرعوية في الوطـن العربـي (١٩٩٤) . المنظمة العربية للتنمية الزراعية .

3- Zedan, H. Loss of Plant Diversity . a call for action. In " Collecting Plant Genetic Diversity "1995". Edited by L.Guarino, V.Ramanathe Rao, and R. Reid. CAB International .

4- Biodiversity , A key to Food Security (1996) . International Center for Agricultural Research in the Dry Areas .

5- Genetic Resouces : Urgent Action Needed Now (1996). Caravan (ICARDA) . Issue No. 4.

(٦) اعمال ندوة شبكة الماب العربية حول محميات المحيط الحيوي (١٩٩٦) . منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة .

7- Guenther, S. (1997) . How DU Shell Residuse Poison Iraq, Kuwait and Saudi Arabia . In " Metal of Dishonor Depleted Uranium " International Action center , New York City .

(٨) دلالي ، باسل . ١٩٩٨ . شجرة النيم المستقبل والافاق . الزراعـــة والتنمية . العدد الثاني .

(٩) الحفاظ على التنوع الحيوي والبيئة في العراق ، ١٩٩٩ الهيئة العامـــة لفحص وتصديق البذور ، وزارة الزراعة .

اتجاهات حديثة في العلم
القسم الثاني ـ علم أيونيات حالة الصلابة

ا . د. جلال محمد صالح
عضو المجمع العلمي
استاذ في جامعة بغداد

الملخص

أحدثت نظرية التوصيل الالكتروليتي في المحاليل السائلة ، التي جاء بها « أرينيوس » في أواخر القرن التاسع عشر ، ثورة عارمة في حينه في كيمياء وفيزياء المحاليل . ولم يطرأ تطور كبير في ذلك العلم بعد ذلك حتى أواسط السبعينيات من القرن الحالي حين شهد العالم من جديد تطورات مذهلة في علوم الكيمياء الكهربائية لحالة الصلابة وذلك عقب اكتشاف « الالكتروليتات الصلبة » .

تبين هذه الدراسة أن حقلا جديدا في العلم أنبثق خلال العقدين الأخيرين من هذا القرن ، ومن المؤمل أن يرسخ هذا العلم وتكتمل معالمه في بداية القرن الجديد . وأخذ هذا العلم يجد بسرعة تطبيقات واسعة في التحليل الكهربائي وفي تصميم دارات حالة الصلابة المستخدمة في الأجهزة والمعدات الالكترونية ، وأصبح له شأن بالغ في ميدان الطب وصناعة النضائد (البطاريات) الصلبة التي تمتاز بكثافة طاقة عالية وعمر مديد وبالانكماش في الحجم لتصبح بأبعاد مجهرية دقيقة متناهية في الصغر . ويتوقع العلماء أن يكون للعلم الجديد دوره الفاعل في ثورة الطاقة المقبلة في العالم .

تمهيـد

أشرنا في القسم الأول من هذه الدراسة[1] الى ان المكونات الالكترونية (electronic components) المستخدمـة في الأجهـزة والمعـدات الالكترونية أخذت تصغر شيئا فشيئا على مر السنين ، وتحولت من مكونات عيانية (macro-components) الى مكونـات مجهرية (micro-) خلال العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن • وقلنـا ان التوقعـات العلمية تشير الى استمرار المكونات الالكترونية في الصغر حتى تصبـح بأبعـاد الجزيئات المنفردة ، أو بابعاد مجموعة صغيرة من الجزيئـات وذلـك خـلال الربع الاول من القرن المقبل • ويلاحظ منذ سنـين قليلة ان المـواد المتمثلة بالجزيئات أو بمتعدداتها المتناهية في الصغر أخذت تظهر الكثير من الخصائص التي تنسجم مع متطلبات استخداماتها في المكونات الالكترونية الجزيئية • وقد أدت هـذه التطـورات الى نشـوء حقل جديد في العلـم سمـي بـ « الالكترونيـات الجزيئيـة molecular electronics » •ويتناول هذا العلم استخـدام المواد الجزيئيـة المتناهيـة في الصغـر في التطبيقات الالكترونية الحديثة لصنع أجهزة ومعدات المستقبل •

وشهدت العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن كذلك تطورات مذهلة في ميدان التوصيـل الالكتروليتـي ، وتم اكتشاف « الالكتروليتـات الصلبـة solid electrolytes » بعـد أن كانـت صفـة التوصيل الالكتروليتي خلال قـرن كامل او اكثر حكـرا على الحالة السائلـة وعلى منصهرات بعض المواد • وأقتـرن هذا التطور باستخـدام الالكتروليتات الصلبة في صناعة المجسـات الكهروكيميائية وصناعـة نضائد (بطاريات)

---

(١) مجلة المجمع العلمي ، الجزء الثالث ، المجلد (٤٥) ، الصفحات (٥ ـ ٣٣) لسنة ١٩٩٨

كاملة الصلابة تتمتع بكثافة طاقة عالية •وتـم تحضير نضائد صلبة متناهيةفي الصغر (مجهرية) • ووجدت النضائد استخدامات واسعة في مركبات الفضاء والأجهزة الطبية التي تزرع في صدور مرضى القلب لتنظيم ضربات القلب ، وفي مكونات الدوائر الالكترونية • وسيكون لهذه المكونات دور فاعل في ثورة الطاقة التي سيشهدها القرن القادم •

التوصيل الايوني والالكتروليتات الصلبة

يقترن تاريخ ١٧ أيار من العام الحالي (١٩٩٩) بذكرى مرور ١١٦ عاما على نظرية التوصيل والتفكك الالكتروليتي التي جاء بها «سفانتا أرينيوس Svanta Arrhenius » ويعـد معظـم الكيميائيـين التوصيلية الأيونية التي تتصل بهذه النظرية حقلا تقليديـا قديمـا من حقول الكيمياء الفيزيائية ، وأنهم لا يتوقعون حدوث تطورات مثيرة في هذا الميدانمن العلم• وعلى عكسهذه التوقعاتفقدحدثتخلال العقود الثلاثةالاخيرةمن القرنالحالي تطورات لم تكن في الحسبان ، وحصلت تغيرات كبيرة في الكثير من المفاهيم وفي آليات التوصيل الأيونـي • فقـد تم اكتشاف حقـل « الالكتروليتات الصلبة solid electrolytes » وتبع ذلك حدوث تطـور سريع في هذا العلم وفي استخداماته في التطبيقات الالكترونية الحديثة • فقد بـدأ مثلا استخدام الالكتروليتات الصلبة في صناعة المجسات الكهروكيميائية (electrochemical sensors) وفي صنع نضائد صلبة تتمتع بكثافة طاقة عالية ، وفي ميادين كثيرة أخرى سنشير الى بعضها لاحقـا •

فالتوصيل الايوني في المواد الصلبة معروف منذ سنين طويلة تمتد الى عام ١٨٣٤ حين لاحظ فراداي (Faraday) ان بلورات فلوريـد الرصاص تصبح موصلة للتيار الكهربائي عند تسخينها الى درجات الحرارة العالية • فقد لوحظ على سبيل المثال ان التوصيل الايوني لبلورة كلوريد الصوديوم

يقدر : 3.0×10^{-5} $S\ m^{-1}$ (أو 3.0×10^{-7} $S\ cm^{-1}$) بدرجة ٥٠٠ مئوية، ومثل هذه التوصيلية تعد واطئة، فهي تقرب من توصيلة الماء اللاأيوني (de-ionized water) بدرجة الحرارة الاعتيادية •

فالالكتروليتات الصلبة تكون عادة في الطور الصلب وتتمتع بتركيب بلوري منتظم • والتوصيلية الايونية في مثل هذه المواد تنجم عادة عن ازاحة الايونات الموجودة في الطور الصلب عن مواقعها الطبيعية • وتحدث مثل هذه الازاحات بسبب وجود عيوب نقطية (point defects) في البنى البلورية • وتكون هذه العيوب النقطية في الهيكل البلوري للالكتروليت الصلب على هيئة :

١ ـ إما فراغات شبيكية (lattice vacancies) من نمط عيوب شوتكي (Schottky defects)

٢ ـ أو أيونات بينية (interstitial ions) من نمط عيوب فرانكل (Frankel defects)

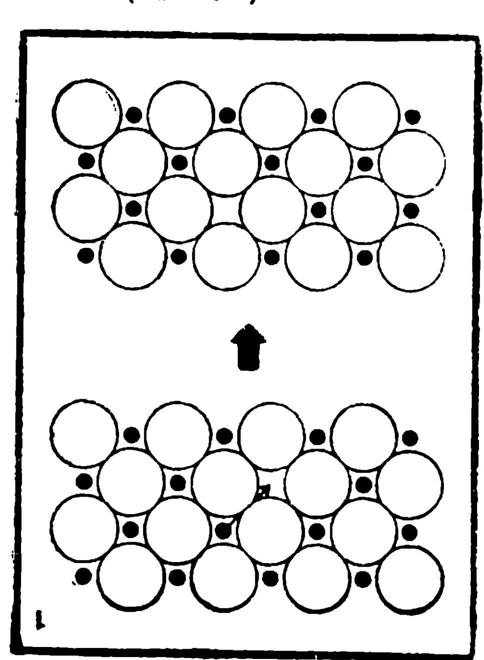
٣ ـ أو من النوعين معا (أي فراغات شبيكية و ايونات بينية) ناجمة عن انخلاعات لولبية (screw dislocations) أو عن انخلاعات الحافة (edge dislocations)

والعيوب النقطية هذه يمكنها أن تنتقل في الهيكل البلوري للالكتروليت الصلب على شكل قفزات متتابعة • وتتناسب التوصيلية الكهربائية في الالكتروليت الصلب مع تركيز وكذلك مع قابلية الحركة الايونية (mobility) لهذه العيوب البلورية •

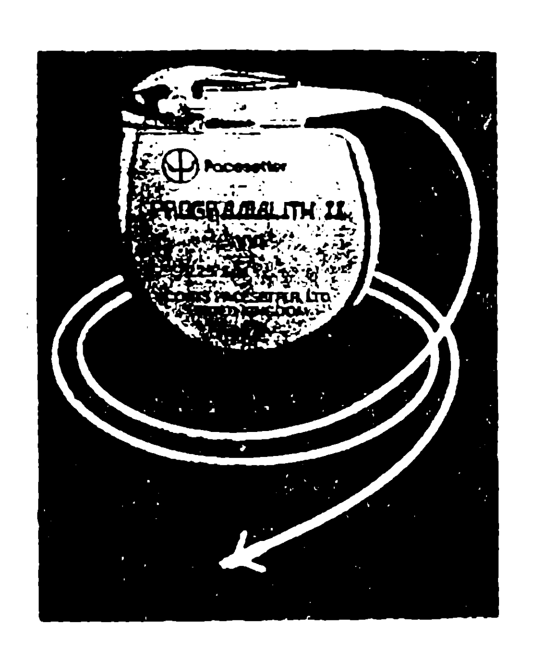
يوديد الليثيوم Lithium Iodide

يعطينا يوديد الليثيوم مثالا جيدا لالكتروليت صلب من هذه الانماط الذي يتمتع بتوصيلية كهربائية عالية نسبيا بسبب احتواء الالكتروليت

على مقدار غير قليل من الفراغات الكاتيونية (فراغات الايونـات الموجبـة cation vacancies) المتنقلـة • يبين الشكل (١) ان حركة مثل هـذه العيوب البلورية من اليسار الى اليمين تتسبب بالنتيجـة عن انتقال شحنات موجبـة من اليمـين الى اليسار • وينجـم عن هـذا أن الفـراغ الـذي يخلفه كاتيون الليثيوم (Li^+) يسلك سلوك أنيون (أيون سالب anion) ذي شحنـة سالبة واحدة • وانـه على الرغـم من التوصيلية الكهربائيـة المعتدلة ($5 \times 10^{-5} S\,m^{-1}$) البالغة ٥×١٠^-٥ سيمنز للمتر في درجات الحرارة الاعتيادية لمثل هذه الانتقالات الايونية في بلورة يوديد الليثيوم فان هذه المادة تفي باغراض استخدامها كألكتروليت صلب في نضيدةالليثيوم (Lithium battery)التي تعد من اكثر مصادر القدرة استخداماً في اجهزة تنظيم ضربات القلب التي يتـم زرعهـا في جسـم الانسـان لتحقيق هذا الغرض (الشـكل ٢) • وهذه النضيدة (البطارية) ناجحة تماما في هذا الميدان



الشكل (١) ـ انتقال فراغ كاتيوني داخل شبيكة يوديد الليثيوم •
● ، يمثل كاتيـون الليثيوم
○ ، يمثل انيون اليوديد

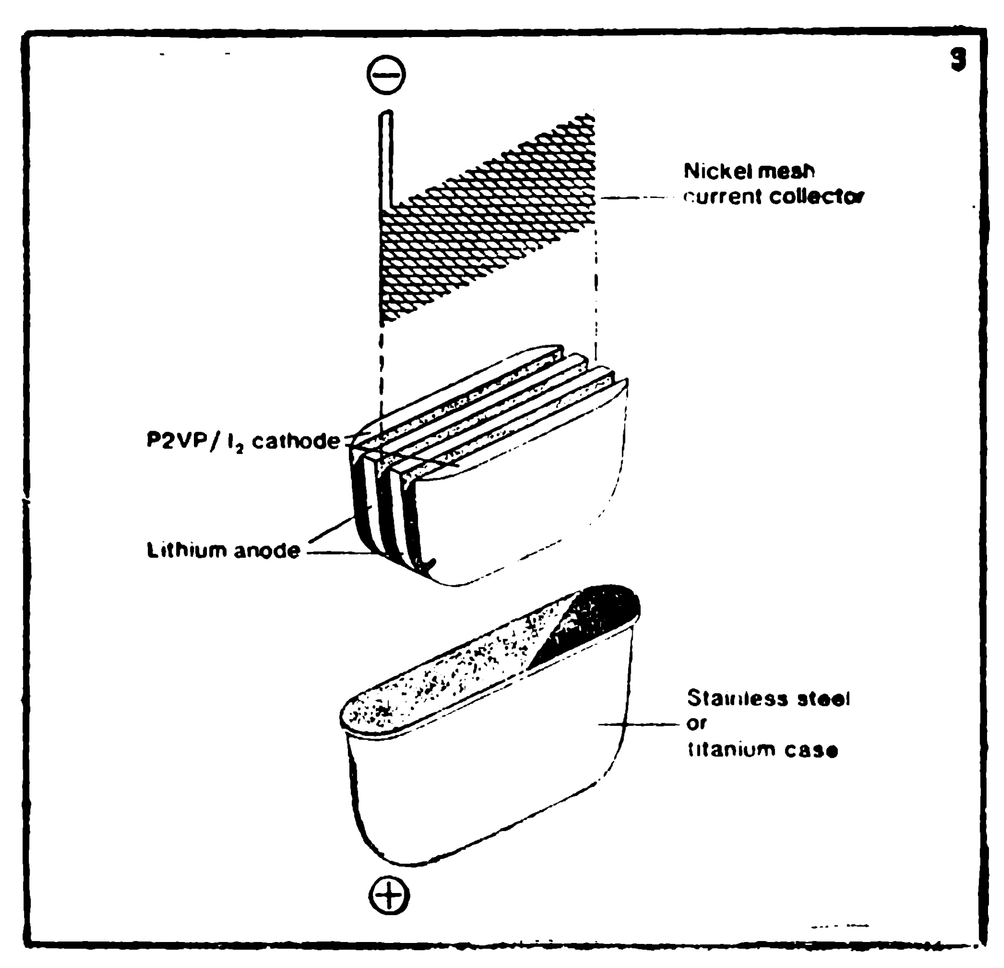


الشكـل (٢) ـ خليـة الليثيوم واليود (طاقتها ٣ر٢ أمبير ساعة)التي تعتمد في الاجهزة التي يتم زرعها في صدر المريض بامراض القلب لتنظيم ضربات قلبه •

وأنها مصدر مناسب لتوليد تيار كهربائي ضعيف تقدر شدته بحدود ٢٥ مايكرو أمبير ، وبهـذا يتـم الابقـاء على هبوط واطىء للتيار والمقاومـة (IR drop) • وتفي هذه البطارية باغراض الاستخدام الطويل لمدة تتراوح من (٨) الـى (١٠) سنـوات • وفولطيـة الدائرة المفتوحـة للنضيـدة (open circuit voltage) تكـون كبيرة نسبيا ، وهذه المزيـة المقترنة بالوزن المكافىء المنخفض لليثيوم يساعدان على الحصول على كثافة طاقة عالية من هذه النضيدة وعلى التخفيف من وزن الجهاز المحمول في صدر المريض • ويمكن باستعمال مثل هـذه الخلية الكاملة الصلابة تجنب الكثير

من المشاكل التي تحدث في العـادة في النضائد التقليدية مثل التسـرب (leakage) والتفريغ الذاتي (self discharge) ، والعطلات التي تصيب الفواصل وغيرها • لهذه الاسباب مجتمعة تعد النضيدة مصدر طاقة يمكن الاعتماد عليه •

ان خلية الليثيوم النموذجية المبينة في الشكل (٣) يتم تصنيعها بربط أنود (مصعد anode)من عنصر الليثيـوم مع معقد (complex)



الشكل (٣) ـ مكونات خلية الليثيوم واليود التي تستخدم في الاجهزة الخاصة بتنظيم ضربات القلب •

يتمتـــع بصفــة التوصيـــل الالـكترونـــي (electronic conductor)
يتم تحضيره عادة من اليود مع متعــدد ٢ ــ فنيــل بيريدين الذي يرمز اليه
باختصار P2 VP (الاسم الكامل للمتعدد هو : poly - 2 - vinylpyridine)
ويضم المعقد زيادة من اليود ، لذا تتكون طبقة رقيقة من يوديد الليثيــوم
الصلب الذي يؤلف الكتروليت الخلية ويمنع حدوث تفاعلات مباشرة أخرى
بين مكونات الخلية • يمكن كتابة التفاعــل الذي يحــدث بين أنود الليثيوم
والمعقد على النحو الاتي :

$$2\,Li(s) + P2\,VP.n\,I_2(s) \rightleftharpoons 2\,Li\,I(s) + P2\,VP\,(n\text{-}1)\,I_2\,(s)$$

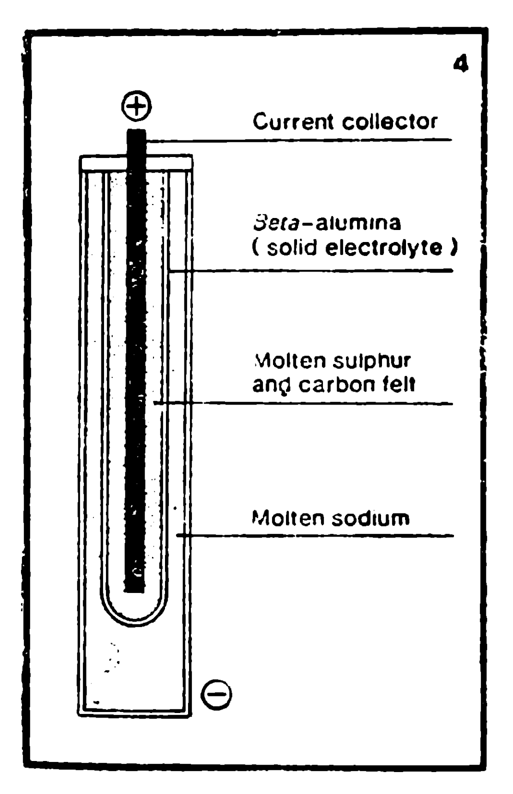
ويشير الرمز (s) الى يمين الصيغة الكيميائية الى الطور الصلب للمادة،
أما الرمز (n) فانه يدل على عدد جزيئات اليود الموجودة مع متعدد ٢ــ فنيل
بيريدين • تبلغ فولطية الدائرة المفتوحــة لهذه الخليــة ٢٫٨ فولت ، وتقدر
الكثافة الاجمالية للطاقة المنتجة منها بـ (١٥٠ــ٢٥٠) مللي واط ساعة للغرام•
($(150 - 250)\ mWhg^{-1}$) وعند قيام الخلية بتوليد التيار الكهربائي
(أي في عملية التفريغ) تنتقل أيونات الليثيوم (Li^+) من خلال الالكتروليت
الصلب الى الكاثود (المهبط cathode)بينما يؤدي انتقال هذه الايونات الى
توليد أيونات اليوديد السالبة (I^-) •وباستمرار تفريغ الخلية وتوليد التيار
الكهربائي يزداد سمك الالكتروليت الصلب (سمك طبقة يوديد الليثيوم)
حتى تصبح ممانعته (impedance) في النهاية العامل المحدد لتيار الخلية •

خلية الصوديوم والكبريت (٢) Sodium-Sulphur Cell

سجلت براءة الاختراع (Patent) لنوع جديد من النضائد أول مرة
من شركة محركات فورد (Ford) الامريكية عام ١٩٦٧ تحت اسم نضيدة

(٢) الخلية هي الوحدة الاساسية للنضيدة ، وتتكون النضيدة عادة من خلية
واحدة او عدة خلايا .

بيتا (beta battery) التي تتكون من خلية الصوديوم والكبريت الموضحة في الشكل (٤) • وتعمل هذه الخليـة عادة بدرجة ٣٥٠ مئوية لذا



الشكل (٤) ـ مخطط لخلية الصوديوم والكبريت

تكون أقطاب الخلية (من الصوديوم والكبريت) عندئذ بحالة سائلة ، أى من منصهر الصوديوم الذي يمثل أنود الخلية وسائل الكبريت الذي يمثل كاثود الخلية • أما الكتروليت الخلية فانه يتكون من مادة بيتا ألومينا (beta-alumina) الصلبة • ويمكن تمثيل تفاعل هذه الخلية ببساطة على النحو :

$$2\,Na + 5\,S = Na_2\,S_5$$

وتبلغ فولطية الدائرة المفتوحة لهذه الخلية ٢٫٠٨ فولت • وبيتا ألومينا تكون على هيئة مادة سيراميكية يعرف تركيبها بالصيغة :

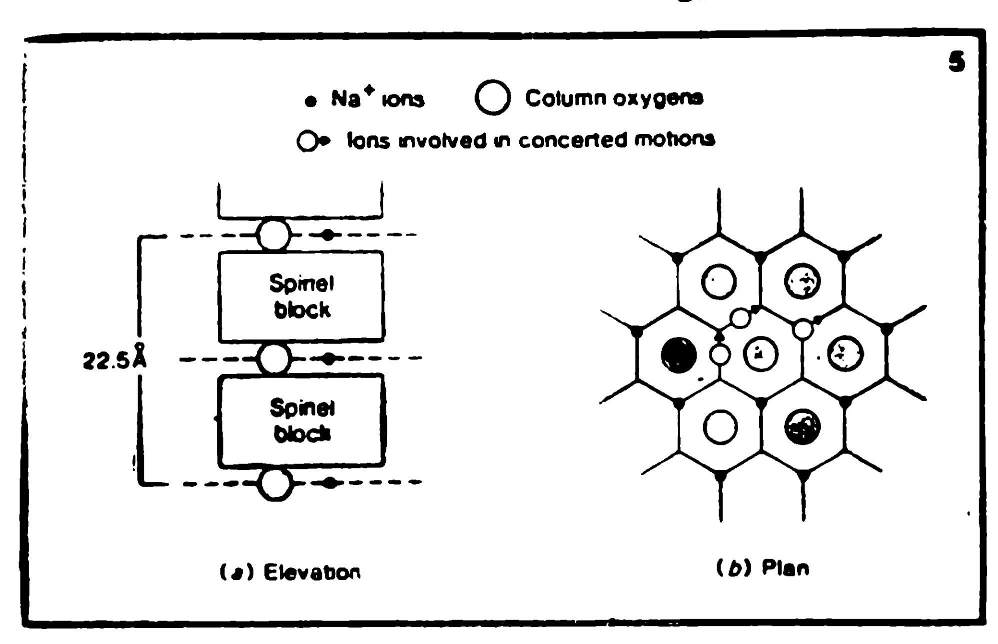
$$1.22\,Na_2O : 11\,Al_2O_3$$

أي على هيئة مخلوط ١٫٢٢ مول من اوكسيد الصوديوم لكل ١١ مول من اوكسيد الالمنيوم • وعند قيام الخلية بتوليد تيار كهربائي (أي عند تفريغ الخلية) تتولد أيونات الصوديوم الموجبة (Na^+) التي تنتقل من خلال الالكتروليت الصلب (ألومينا) نحو الكاثود للاتحاد مع أيونات الكبريتيد المتكونة هناك • وعند شحن الخلية بوساطة تيار كهربائي من مصدر خارجي تعاد أيونات الصوديوم بالهجرة المعاكسة الى الموقع الذي هاجرت منه في بداية عملية التفريغ مروراً بالالكتروليت الصلب ثانية • وقد كسبت هذه النضيدة سوق التجارة بسهولة ويسر • يضاف الى ذلك ان كثافة طاقة الخلية تكون عالية وتقدر بحوالي خمس مرات بقدر كثافة نضيدة الرصاص الحامضية •

موصلات الايونات السريعة — Fast Ion Conductors

يجري عادة تصنيف بيتا ألومينا مع المواد التي تتميز بالتوصيلية الايونية العالية، ويطلق عليها اسم الموصلات الايونية الفائقة (superionic conductors) وكذلك اسم « موصلات الايونات السريعة (fast - ion conductors) ودراسة سلوك مثل هذه المواد تدخل ضمن حقل جديد في العلم يدعى بـ « أيونيات حالة الصلابة » "solid state ionics"

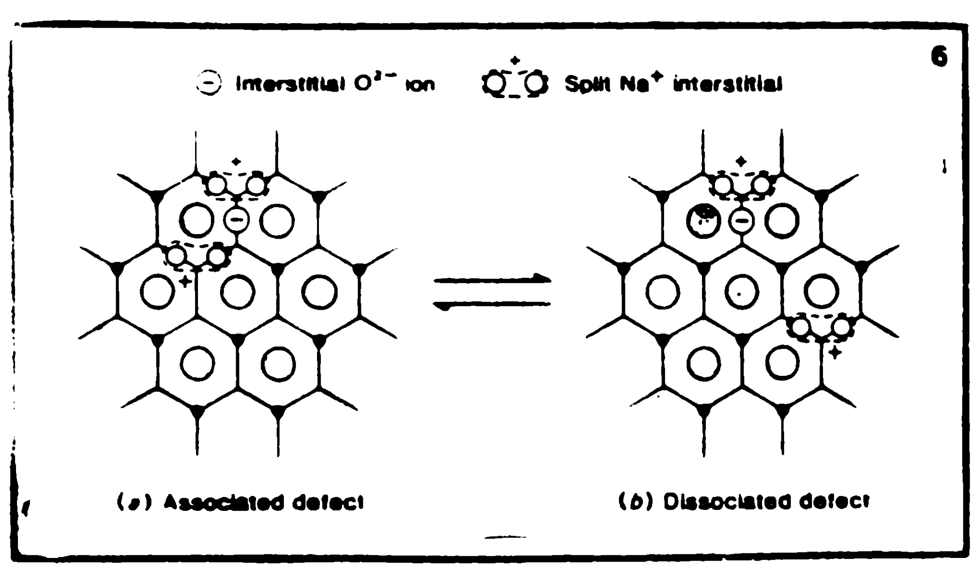
يوضح الشكل (٥) التركيب الكيميائي وبنية بلورة بيتا ألومينا ، وهو موصل ذو بعدين (two - dimensional conduccor)



الشكل (٥) ـ تركيب بيتا الومنيا يتبين فيه :
(a) تناوب مواقع الكتل الهيكلية ومستويات التوصيل .
(b) مسار « مشط العسل » الذي تتنقل فيه ايونات الصوديوم .

أذ تنتقل أيونات الصوديوم بحرية جيدة في مستويات التوصيل التي تقع مابين الكتل التي تؤلف هيكل البلورة . فهناك مواقع بينية مابين تلك الكتل تزيد في العدد على الايونات التي يمكنها اشغال تلك المواقع . وتبلغ توصيلية بيتا ألومينا بدرجة ٣٥٠ مئوية حوالي ١٠٠ سيمنز للمتر $(100\ S\,m^{-1})$ وهذه التوصيلة تقرب من توصيلة منصهر نترات الصوديوم $(Na\,NO_3)$ حتى أن أيونات الصوديوم التي تشغل مثل تلك المواقع البينية تصبح وكأنها بحالة شبه سائلة . وهو بهذا يتميز عن الكتروليت صلب مثل يوديد الليثيوم $(Li\,I)$ الذي تعتمد توصليته على بنية عيوبه النقطية . وتساهم أيونات

الصوديوم البينية في هيكل بيتا ألومينا في التوصيلية الايونية للمركب (الشكل ٦) .



الشكل (٦) ـ تطبيق نظرية ارينيوس للتفكك الالكتروليتي بصورتها المبسطة على تفكك بيتا الومينا ولغرض التوضيح وضعت الشحنات الموجبة والسالبة على الايونات البينية .

موصلات الايونات السريعة الجديدة New Fast Ion Conductors

تمت محاولات كثيرة خلال العقود الثلاثة الاخيرة من هذا القرن لتصميم تراكيب بلورية وفي تحضير مركبات كيميائية جديدة التي تحتوي على أيونات الصوديوم أو الليثيوم عالية السرعة . وقام العلماء بفحص واختبار البلورات التي تحتوي على تراكيز عالية من أيونات العناصر القلوية (alkali metal ions) التي تحتل المواقع البينية والتي تتمتع بقدرة عالية على الحركة والتنقل في الفضاء البيني الذي يتخلل الشبيكة البلورية الثلاثية الابعاد . وقد أفلحوا في تحضير مواد كيميائية مثل المركب $Na_3 Zr_2 Si_2 PO_{12}$ الذي يتمتع بتوصيلية

بدرجة ٣٠٠ مئوية تقرب من توصيله بيتا ألوبينا . ويمتلك مثل هذا المركب كذلك خصائص + تشابـــه المناحـــي [٣] (isotropy) ويطلق عليـه اسم « ناسيكون nasicon » . وهذا الاسم مختصر يضم الحروف الاولى للمصطلح الاجنبي المركب :

'Natrium Superionic Conductor' أو 'Na Superionic Conductor ,

والمقابل العربي المناسب لهذا المصطلح الاجنبي المركب هو « موصل أيون الصوديوم الفائق » . ويجمع « الناسيكون » الى « ناسيكونات » اذا قبلنا بتعريـب المختصـر مباشـرة . أمـا مـوصلات الليثيـوم المشابهـة (Lithium ion conductors) فانها تدعى بـ ليسيكونات ومفردها ليسيكون Lisicon ، أي موصل أيون الليثيوم الفائق . وهذه الموصلات تمتلك ايضا خصائص مشابهة لموصلات الصوديوم الفائقة الا ان توصيلها الكهربائي يكون أقل نسبيا ، ومن أمثلة هذه المواد . ($Li_2 Zn Ge O_4$ وكذلك ($Li_4 Ge O_4$) .

يتحول بيتايوديد الفضة (B–AgI) الـى ألفايوديد الفضـة (α - AgI) بدرجة ١٤٧ مئوية . والتحول من الناحية الحركية (kinetic aspect) يخضـع لمعادلـة المرتبـة الاولى ويكون عــادة مصحوبا بزيادة في التوصيلية الايونية بنحو (١٠٠٠) مرة . ووجدت حالة مشابهة مع مواد صلبة أخرى مثل كبريتات الليثيوم ($Li_2 SO_4$) .

وتهدف البحوث الحديثة في الوقت الحاضر الى الحصول على موصلات أيونية سريعة وفائقة السرعة في درجات الحرارة الاعتيادية كي يمكن ادخالها في تصاميم مكونات الاجهزة الالكترونية . واستطاع العلماء في السنين الاخيرة تحضير مواد مـثل $RbAgI_5$ وكـذلـك KAg_4I_5 التـــي تمتلك توصيليات أيونية تصل في درجة الحرارة الاعتيادية الى ١٠ سيمنز للمتر ($10Sm^{-1}$) . وتقارن هذه التوصيلية بتوصيلية محلول مولاري من كلوريد البوتاسيوم .

وتخضع التوصيلية الايونية (6) في الالكتروليتات الصلبة الى المعادلة السرعة الآتية :

$$\sigma = \sigma_0 \exp(-Ea/RT) \quad (١)$$

وهذه المعادلة تبنى في الاساس على علاقة آرينيوس المعروفة في مجال حركيات الكيمياء (Chemical Kinetics) • وتبين هذه المعادلة تأثير درجة الحرارة على التوصيلية الايونية (6) للالكتروليتات الصلبة • يسمى المقدار σ_0 في المعادلة بـ « تردد المحاولة » attempt frequency أو بـ « مسافة القفزة " jump distance " » •

أما Ea في الجزء الأسي من المعادلة فانه يمثل طاقة التنشيط الظاهرية (apparent activation energy) للتوصيلية الايونية • وتقدر قيمة Ea في حالة بيتا ألومينا بحوالي (١٠ ــ ٢٥) كيلو جول للمول ($10 - 25\ k\ Jmol^{-1}$) • وترتفع هذه القيمة في الموصلات الأيونية الاقل توصيلية مثل سليكات الصوديوم الى (٥٠) كيلو جول للمول • ويبحث العلماء في العوامل المؤثرة على قيمة المقدار Ea وفي كيفية خفض القيمة • ففي حالة الموصلات الناجمة عن العيوب النقطية تتم تجزئة Ea الى كميتين تتعلق الاولى بتكوين العيوب النقطية والثانية باتنقالها في الوسط المعني • ويجري البحث كذلك عن مكونات المقدار Ea في حالة الموصلات الايونية •

ويجري العمل على تحضير موصلات أخرى لايونات الليثيوم وذلك عن طريق تكوين معقدات بتفاعل املاح ليثيوم معينة مع اوكسجينات ايثرية (ether oxygens) في بعض متعددات الجزيئات (polymers) مثل اوكسيد متعدد الاثيلين (polyethylene oxide) • وآلية التوصيلية في هذه المركبات لاتزال غير واضحة تماما ، والغالب أنها تتم عن عن طريق حركة مقاطع من السلسلة المتعددة (البوليمرية) ، وانتقال الايونات ما بين المواقع المرتبطة بأواصر تناسقية • كما امكن الان تحضير زجاجيات عالية التوصيلية (highly conducting glasses) •

ان امكان تحضير مثل هذه المنظومات الكهربائية التي تمتلك توصيليات أيونية عالية تعنى ان النظام طويل المدى والبنى الهيكلية الصلدة كالتي أمكن الحصول عليها في الفايوديد الفضة (AgI &) ، وكذلك في المواد التي سميت بالناسيكونات (nasicons) ليست مـن المتطلبات والملامح الاساسية للالكتروليات الصلبة • وقد ثبت في السنين القلائـل الاخيرة ان الاستقطابية الانيونية العالية (high anionic polarizability) تسهل من امكانية تكوين حالات الانتقال ذات الطاقة الواطئة (أي التي تتطلب قيماً واطئة لطاقة التنشيط (E a) كلما انزاحت كاتيونات من مواقعها الاعتيادية في الهيكل البلوري (الشكل ١) فقد ثبت الان ان قابلية الانتقال العالية لايونات الليثيوم في ترريد الليثيوم (Li_3N) التي تقدر بنحو ٣و٠ سيمنز للمتر ($0.3\ Sm^{-1}$) بدرجة ٢٥٠ مئوية ناجمة عن الاستقطابية العالية لايونات النتريد (N^{3-}) •

والموصلات الانيونية (anionic conductors) اصبحت هـي الاخرى معروفة في الوقت الحاضر • وهناك صنف كبير من المواد التي تشتمل على اوكسيد الزركونيوم ZrO_2 تكتسب الاستقرار باضافة مواد مثل اوكسيد الكلسيوم (CaO) او اليتيريوم (Y_2O_3) اليها • والتوصل الايوني في هذه المواد ينجم عن ايونات الاوكسيد المعيبة (defect oxide ion) . وأخذت هذه المواد تجد استخدامات واسعة في خلايا وقود خاصة تستعمل في درجات الحرارة العالية • وأمكن كذلك وباستخدام الاساليب نفسها تحضير موصلات أيون الفلوريد التي تتمتع بتوصيلات أيونية عالية• ان اضافة فلوريد الصوديوم NaF الى بيتا فلوريد الرصاص (PbF_2) تزيد من توصيلية فلوريد الرصاص بدرجة حـرارة الغرفة من ٥×١٠$^{-٥}$ سميتز للمتـر ($5 \times 10^{-5} Sm^{-1}$) الى حوالي ١و٠ سيمنز للمتر ($0.1\ Sm^{-1}$)

التطبيقات

دخلت الايونيات الصلبة منذ اكثر من ثلاثة عقود في ميادين التطبيق المختلفة ، ولعل من المفيد الاشارة الى بعض تلك الميادين :

١ـ المجسات الكهروكيميائية Electrochemical Sensors

الالكتروليتات الصلبة أصبحت تؤلف الاساس لتحضير العديد من الاقطاب الانتقائية (selective electrodes) التي تستخدم في درجات الحرارة الاعتيادية ، ومثال ذلك القطب الانتقائي الموسوم بـ : $La_{0.95}Sr_{0.05}F_{2.95}$ المشتمل على عناصر اللنثانيوم (La) والسترونتيوم (Sr) والفلوريد بالنسب المولية المؤشرة الى يمين كل منهم • واصبح هذا القطب يستخدم على نطاق واسع لفحص أيونات الفلوريد ومراقبتها في مياه الشرب وفي المياه الصناعية •

وهناك مجسات (sensors) تدعى بـ « كالسيا Calcia » التي أضيفت اليها الزركونيا (Zirconia) لغرض زيادة ثباتها وتجهيزها بالالكتروليت الصلب المناسب • وتكتب هذه المجسات على الشاكلة :

Pt(s), O_2 (g),p [ZrO_2.CaO (llm/o) (s)] O_2(g), Pref, Pt(s)

التي تمثل خلية تركيز (concentrotion cell) التي يضم قطباها من الاوكسجين بضغطين مختلفين احدهما ثابت ومرجعي (Pref) والاخر عند اي ضغط آخر (P) • ويشير Pt الى لوحي البلاتين المحاطين بالاوكسجين عند القطبين • والكتروليت هذه الخلية يكون بطور صلب ويحتوي على مخلوط اوكسيد الزركونيوم (زركونيا (ZrO_2)) واوكسيد الكلسيوم (كالسيا CaO)والكالسيا اوكسيد الكالسيوم غير التكافوي الذي يحتوي على زيادة من أيونات الكلسيوم (النسبة المولية للكلسيوم الى

الاوكسجين=١١)٠والرمزان (s) و (g) الىيمين بعض الصيغ يشيران على التوالي الى الطور الصلب والغازي للمادة ٠ وتعمل هذه الخلية عادة في مدى درجات الحرارة من ٥٠٠ الى ٧٠٠ مئوية ؛ ويمكن بذلك الاستفادة منها في فحص ومراقبة تركيز غاز الاوكسجين المنبعث مع غازات العادم في السيارات (vehicle exhaust emissions) او من غازات الافران ٠

وتحسب القوة الدافعة الكهربائية (e. m. f.) للخلية من العلاقة :

$$E = (RT/4F) \ln p/P_{ref} \qquad (2)$$

R ثابت الغاز و T درجة الحرارة على مقياس كلفن و F فرادای ٠ ويزداد فرق الجهد او القوة الدافعة الكهربائية للخلية كلما كان ضغط الاوكسجين في القطب الايسر من المجس اكبر من ضغط المرجع الذي يتمثل بالقطب الايمن ٠ ويتم عادة الابقاء على ضغط غاز الاوكسجين في القطب الايمن (المرجع Pref) ثابتا بينما يتم تغيير الضغط (P) في القطب الايسر بحسب ضغط غازالاوكسجين في الموقع الذي يراد اختباره ٠ ويستخدم مثل هذا المجس حاليا لفحص ومراقبة تركيز غاز الاوكسجين الذائب في منصهر النحاس في العمليات الصناعية التي تشتمل على سحب المنصهر الى قوالب محددة او الى اسلاك ٠ وتجري بحوث مضنية لتطوير مجسات من هذا النمط كي يمكن استعمالها في تحاليل أكاسيد الكبريت وأكاسيد النتروجين في الجو وفي الاجواء الملوثة بهذه الغازات ٠

خلايا الوقود Fuel Cells

أصبحت خلايا الوقود في وقتنا الحاضر مصدرا مهما للطاقة الكهربائية للاغراض التجارية والعسكريةوالعلمية، وتستخدم بكثرة في مركبات الفضاء ٠ ولكي تصبح خلايا الوقود اقتصادية ومرغوبة ينبغي استخدام مواد

رخيصة في تفاعلاتها ، ومن تلك المواد الغاز الطبيعي والفحم وبقايا النباتات والهواء ومواد أخرى • وكانت التجربة الاولى لصنع خلايا الوقود عـــام ١٩٣٩ باستعمال غازي الاوكسجين والهيدروجين • فالهيدروجين مادة ليــست رخيصة وليست سهلة المنال . ولكن استعمال الهيدروجين مع الاوكسجين في صنع خلايا الوقود جاء بحصيلــة مهمــة وأصبحت تلك الخلايا تستعمل في المركبات الفضائية وفي بحــوث الفضاء عموما • والتفاعل الذي يتم في مثل هذه الخلايا يشتمل على اتحاد الهيدروجين مع الاوكسجين لتكوين الماء :

$$2H_2(g) + O_2(g) = 2H_2O(l)$$

ويشير (l) الى حالة السيولة للماء و (g) الى الحالة الغازية لكــل من الاوكسجين والهيدروجين • وتشتمل الخلية على أغشية مسامية راتنجية مكسوة بالتيتانيوم الذي تتم تغطيته بالبلاتــين • والبلاتــين مع التيتانيوم يعملان معا عاملا مساعدا لتسهيل اتحاد الغازين او بالاحرى تسهل الايونــات الناجمة منهما في تفاعل تكوين سائل الماء ، وقد استعيض عن الهيدروجــين في بعض أنواع خلايا الوقود ببعض الهيدروكربونات (C_nH_{2n+2})

وعن الاوكسجين بالهواء لاسباب اقتصادية • ولعل من أهم خلايا الوقــود التي انتشرت خلال القرن الحالــي خلايــا الغاز الطبيعي واحادي اوكسيد الكربون (CO) والهواء والالكتروليت في مثل هذه الخلايا يكــون عادة على هيئة عجينة من اوكسيد المغنسيوم (MgO) مع منصهر من مخلوط كربونات الليثيوم (Li_2CO_3) وكربونات الصوديوم (Na_2CO_3) وكربونــات البوتاسيوم (K_2CO_3) ، ويكــون أنــود (مصعــد) الخلية على هيئة طبقة رقيقة مسامية من النيكل في حين يتكــــون الكاثود (المهبط) من ثنائي اوكسيد الكربون (CO_2) والهواء •

أستخدمت في العقود الثلاثة الأخيرة من هذا القرن خلية وقود مكونة

من غازي الهيدروجين والاوكسجين باستعمال اليتيريا (Y_2O_3 Yttiriya)
المشــوب بالزركونيــا (ZrO_2 Zirconia) كألكتروليــت صلــب •
وأصبحت هذه الخلية تستعمل في الظــروف التي ترتفع فيها درجــة الحرارة
الى اكثر مــن ١٠٠٠ مئويــة • وقــد نجمت مشاكــل كثيرة عــن استخدام
هذه الخلايا في مثل هذه الظروف القاسية • وأتجهت الدراسات والبحوث
بعد ذلك لتحضير موصلات البروتون الصلبة (solid proton conductor)
وحضــرت خلايــا وقــود باستخــدام مثل هــذه الالكتروليتات الصلبة •
وأخــذ استعمــال المركب ($HUO_2PO_4 . 4H_2O$) المعروف تجاريــا
باســم هــب (Hup) كألكتروليت صلب في خــلايا الوقــود ، اذ يقــدر
توصيله بحدود (١) سيمنز للمتر ($1.0\ Sm^{-1}$) بدرجة ٥٠ مئويــة •

٣ ـ نضائد حالة الصلابة Solid State Batteries

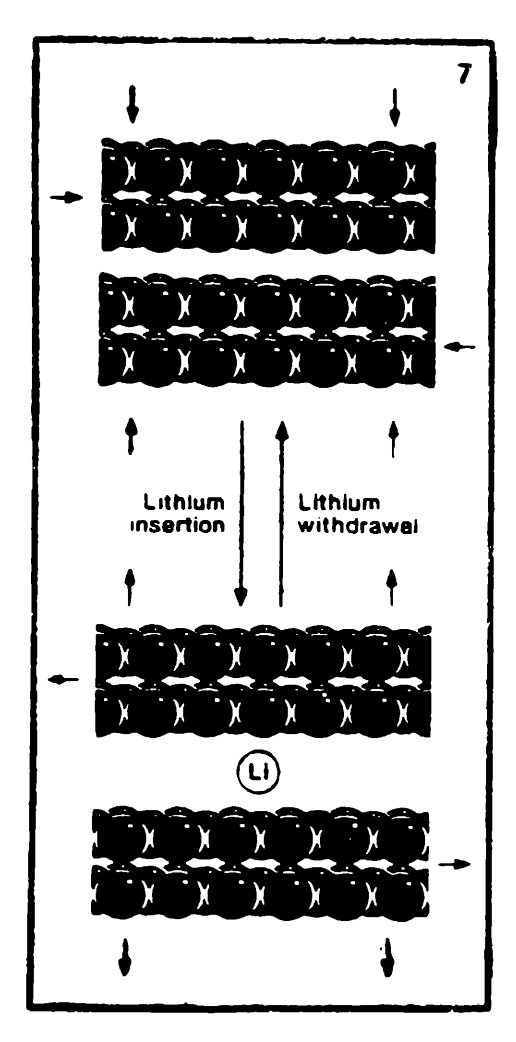
ونقصد بها تلك النضائد التي تكون مكوناتها المختلفة كلها بحالــة صلابة • وقد برزت بعض الصعوبات من خلال التعامل مع مثل هذه النضائد بسبب التفاعلات التي تحدث بين مواد الاقطاب والالكتروليت الصلب خلال عمليات التفريغ (سحب التيــار الكهربائــي منهــا) أو الشحن • وأستطاع الباحثون في السنين القلائل الاخيرة معالجة هذه الصعوبات بكفاية تامة •

أتجه الباحثون في ميدان نضائد حالة الصلابة الى استعمال طور غير تكافؤي (non - stoichiometric phase) يمتلــك خصائص التوصيــل الالكتروني والايوني معا يكون على هيئة محلول صلب (solid solution) واستعمل مثل هذا الطور الصلب لتحضير أقطاب النضيدة • فقد أمكــن مثلا تحضير طبقة شبه موصلة (semi - conductor) من تفاعل ايونات فلزية (M^+) مع المركب TiS_2 على النحو

$$x M^+ + TiS_2 + xe \rightleftharpoons M_x TiS_2$$

واستعملت أيونات الفلزات القلوية كايونات الليثيوم لهذا الغرض •
ويكون معامل انتشار أيونات الليثيوم في فسح (gap) فاندرفالز (الشكل ٧) بين طبقات TiS_2 المتجاورة عاليا جدا •

وجرت محاولات أخرى لاستخدام طور غير تكافؤي لتحضير أقطاب



الشكل (٧) ـ الاضافة الرجوعية لفلز الى طبقات ثنائي شالكوجنيد لفلز انتقالي • والاسهم توضح التمدد الذي يحصل على امتداد محور C ومايعقب ذلك من ازاحة للطبقات •

او الكتروليتات صلبة في نضائد حالة الصلابة ، ومن تلك المحاولات نذكر بعضها كما يأتي :

أ ـ استعمال مخلوط برونز التنكستن والفناديوم الذي يحتوي على قنوات يمكنها استيعاب ذرات فلزية والتي تسمح بتحرك تلك الذرات فيها •

ب ـ استخدام كبريتيد الفضة غير التكافؤي الذي يكون معامل انتشار أيونات الفضة فيه عاليا •

جـ ـ استعمال سبائك تتمتع بالتراكيب Li_xAl أو Li_xSi

د ـ مخلوط بيتا فيرات فلزات قلوية مع بيتا ألومينا والذي يتمتع بخصائص تشابه المناحي (isotropy)

هـ ـ الكرافيت والكرافيت المحسن في متعددات فلوريدية مثل $(CF_8)n$

وبدأ الاهتمام أيضا برقوق متعدد الاستيلين (polyacetylene) التي يمكنها قبول واستيعاب أيونات الفلزات القلوية بصورة رجوعية عند الكاثود لتكوين مركبات موصلة الكترونيا ذى التركيب $(CHNaY)_x$ وأمكن تحضير نضيدة كاملة الصلابة تشتمل على الكتروليت صلب من متعدد اوكسيد الاثيلين ويوديد الصوديوم • وتصنع الاقطاب كذلك من متعدد اوكسيد الاثيلين الا أن المتعدد يكون مشوبا • ويتم تمثيل تركيب الخلية على النحو الأتي :

$$(CHNaY)_x (s) / PEO.NaI (s) / (CHIz)_x$$

ويشير PEO الى متعدد اوكسيد الاثيلين ، وتشير الرموز X و y الى عدد الجزيئات او الى عدد الذرات بحسب موقع الرمز في الصيغة الكيميائية على التوالي • وتتمتع مثل هذه النضيدة بكثافة طاقة عالية ، ولكن المقاومة الداخلية لمكوناتها تكون هي الأخرى عالية •

تتوفـــر الأن في الاســـواق مصغرات (miniature devices) مصنوعة من الكتروليتات صلبة لاغراض استعمالها في الدوائر الالكترونية المتكاملة (integrated Circuits) ، ولاغراض التوقيت أو الفتـــح والغلق أو الخـــزن • واستعملت الخليـــة الأتيـــة في ذاكـــرة بعض الدوائر الالكترونية :

$$Ag(s) | Ag_6 I_4 WO_4(s) | Ag{\times}Se(s)$$

وبامرار التيار الكهربائي ترتفع او تنخفض فعالية الفضة (أيونات الفضة) في موصل سلنيد الفضة $Ag{\times}Se$ وتتغــير تبعــا لذلك فولطية الخلية ، وتتمتع الخلية بفولطية ثابتة لا تتغير على مدى طويل من الزمن •

وتستخــــدم انــواع مختلفـــة مـــن المكونــــات الكهرولونيـــة (electrochromic devices) في الدوائر الالكترونية • ويتم تحضير هذه المكونات بادخـــال كاتيونات في مـــواد شبه موصلـــة مثل WO_3 او MoO_3 •

ويمكن الاشارة الى الخلية النموذجية الأتية المستخدمة لهذا الغرض :

$$Ag{\times}NbS_2(s) | Ag_6I_4WO_4(s) | WO_3(s) | SnO_2 \cdot Sb_2O_3(s)$$

ويتم تحضير المخلوط من اوكسيدي القصدير SnO_2 والاتمون Sb_2O_3 بترسيبهما على هيئة غشاء رقيق على سطح زجاجي ، ويكون المخلوط موصلا الكترونيا • ويتم في الخلية التفاعل الأتي :

$$WO_3(s) + nAg^+ + ne \rightleftharpoons AgnWO_3(s)$$

(Clear مضـــيء) (dark مظلـــم)

وعندما ينزاح التفاعل الى اليمين يختفـــي اللون ويســـود الظلام في المنظومة في حين عندما ينزاح التفاعل نحو اليســـار تصبح المنظومـــة مضاءة وتكتسب لونا خاصا • ويستفاد من ســـير التفاعل في تقانـــة الكتابة والمحو الألكتروني (write - erase)

المصادر المعتمدة

١ ـ جلال محمد صالح ، مجلة المجمع العلمي ، ١٩٩٨ ، المجلد (٤٥) ، الجزء (٣) الصفحات (٥ـ٣٣) .

2 - S . Arrhenius , J. Am. Chem . Soc. , 1912,34,353 .

3 - A. B. Lidiard in Handbuch der physik, S. Flügge (ed.) vol 20, P. 246· Berlin, Springer, 1957 .

4- M. D. Ingram and C· A. Vincent, Chem. Soc. Ann . Reps. 1977 , 74A , 23 .

5- J.N. Mundy and G. K. Shenoy (eds.) , Fast Ion Transport in Solids , North- Holland , 1979

6- T. Takahashi and A. Kozawa (eds.) , Applications of Solid Electrolytes, Cleveland JEC, 1980.

7- C. R. A. Catlow ind A. N. Carmack , Chem.Br, 1982, 18, 627.

8- J. A. Bruce, C.C. Hunter and M· D. Ingram, Solid State Ionics, 1990 .

9- J. B. Goodenough , H. Y-P. Hong and J.A. Kafalas,Mater . Res. Bull. , 1976, 11, 203.

10- P.B. Bruce and A.R. West, J. Solid State Chem. , 1982, 44 , 354 .

11- M. B. Armand , J. M. Chabagno and M. J· Duclet , Page 131 in ref . (5) .

12- R.D. Armstrong , R.S. Bulmer and T. Dickinson, J.Solid State Chem., 1973, 8, 219.

13- B. C· H. Steele, Fast Ion Transport in solids, W. Vas Gool (ed.) , P. 103, Amsterdam, North — Holland, 1973.

١٤ـ جلال محمد صالح ، الكيمياء الكهربائية ، الطبعة الثانية الحديثة ، ٢٠٠٢ ، الصفحات (٣٦٨ـ٣٨٤) .

التحديات التربوية في التعليم العالي
.. وتوقعات المستقبل

أ.د. رياض حامد الدباغ
رئيس الجامعة المستنصرية
عضو المجمع العلمي

الملخص

لعل من اهم المعضلات التي يصادفها التربويون والمهتمون بنظم التعليم واهدافه ومناهجه هي تلك الحيرة وذلك التردد في تربيتنا العربية بين الاصالة والاقتباس فالتربية العربية (في الواقع) تأخذ من العالم الغربي الكثير من مناهجه وطرائقه واساليبه دون محاولة تطويعها لخصائص الشعب العربي وحاجات المجتمع ، فضلا عن ان التربية العربية عادة ما تنمو نحو الابقاء على بعض القيم الثابتة والمستخلصة من تراثنا ، دون ان توفق بين حاجاتها وحاجات العصر .

لذلك يبدو لدينا في الوقت الحاضر نمطين اساسيين للتربية في مجتمعنا العربي تربية تقليدية تمعن في المحافظة على القديم تؤكده ولا تحاول الاخذ بالجديد بحجة ان في ذلك تهديداً لكياننا العربي ، وتربية حديثة تعتمد بصورة تكاد تكون كلية على محاكاة طرائق واساليب التربية المتبعة في المجتمعات الغربية متجاهلة مدى ملائمتها للمقومات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشخصية العربية .

وهكذا نجد ان امام التعليم العالي مهمات كبيرة في انتشال التربية العربية من رقدتها وبعث الروح فيها لتكون اداة لصياغة الانسان العربي الجديد .

مشـكلة البحـث واهميتـه

شهد العقدان الاخيران من القرن العشرين تظاهرة استعدادية على مستوى التعليم العالي في الدول الصناعية والدول المتقدمة لمواجهة التطورات المحتملة والمستحدثات الاستراتيجية والتكنولوجية المتقدمة التي تفرض مطاليب جديدة على التربية الجامعية لكي تأخذ الجامعة دورها القيادي في المجتمع حيث تعـد الجامعة مؤسسة قيادية تعتمد القرارات الرشيدة والستراتيجيات الحديثـة في تحقيق اهدافها واهداف المجتمع الذي تنتمي اليه ((Luthans 1989 P. 534)) فهي اذا فرضية تعتمد التخطيط وسيلة ستراتيجية في تبني الافكار الجديـدة التي تخدم اغراض المجتمع ((Malan 1987 P. 62)) كمـا انها تعـد مـن الوحدات الاستثمارية لامتلاكها الخبرات المتخصصة في المجالات المختلفـة التي تأخذ على عاتقها مسؤولية انتاج القوى البشرية التي لا تقل اهمية عـن أي مصدر اخر من مصادر الثروة ((Raheef 1992 P. 71)) كما اعدت وحدة فاعلة للانتاج البحثي الموجه نحو تعزيز ورفد المعوقات التي تجابه الحركـة التنموية في المجتمع وتطويرها ((World Bank 1995 P. 24)) كما انها تعـد خزينا للتراث العلمي والثقافي العربي الاسلامي والانساني الامر الذي يجعلها تمثل مركزاً للاشـعاع الثقافـي على مسـتوى صـعيد الامـة والانسـانية ((Raheef 1997 P. 8)) كما تعد مركزاً تدريبياً متطوراً يأخذ على عـاتقه التكيف مع المطاليب التي تفرضها التغيرات الحادثة في القرن العشرين وتنميـة المهارات المطلوبة الملائمـة وهـذه التغـيرات ((Giles 1995 P. 10))

لذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر ان الجامعات اليابانية ادت دوراً مهماً وخطيراً في نقل المعرفة والعلوم التكنولوجية الغربية الى اليابان الامر الذي ادى الى انتعاشها الاقتصادي وتقدمها العلمي وتأكيداتها الاستعدادية في الوقت الحاضر لتواجه متطلبات المستقبل ولا تحدد بما حققته من تطور فقد اكد ((Kobayashi 1980 P. 631)) ان المستقبل يفرض على الجامعات اليابانية أن توحد هويتها المستقلة وان تطورها لمصلحة الامة وان الخطط الستراتيجية لها ينبغي ان تأخذ ذلك في نظر الاعتبار • اما بالنسبة للجامعات الالمانية فقد ذكر ((Schramm 1980 P. 605)) بأن الجامعات الالمانية ينبغي ان لا تكتفي بغرس المعرفة والتوسع بالعلوم واستخدام الوسائل التكنولوجية فحسب بل ينبغي عليها ان تربط ذلك ربطاً مباشراً بحاجات التنمية الاجتماعية والاقتصادية الحالية والمستقبلية للمجتمع الالماني وان توجد هويتها المميزة والمستقلة •

ولا نريد ان نستعرض ما قامت به جامعات العالم المتقدم وهو ليس هدفنا في هذا البحث بل توضيحاً لحقيقة امر هذه الجامعات فهي لم تكتفِ بما حققته من تقدم في القرن العشرين بل تهيء نفسها للتكيف مع متطلبات القرن الحادي والعشرين وبذلك فقد رصدت لها الاموال الكافية لانجاح ستراتيجيتها وتحقيق اهدافها واثبات هويتها وتكيفها مع متطلبات الوقت الحاضر والمستقبل•

الا ان المشكلة تكمن على صعيد جامعات الدول النامية بصورة عامة والجامعات العربية بصفة خاصة حيث لم يشاهد حتى منتصف التسعينات من هذا القرن اي نهضة ستراتيجية إلا من بعض الحركات الاصلاحية هنا وهناك ويرجع السبب في ذلك الى ان هذه الجامعات تحمل من المشكلات الثقيلة

والمتمثلة على سبيل المثال بقلة التخصيصات المالية والنقص في الابنية والمرافق المختبرية العلمية والوسائل التكنولوجية التدريسية والنقص في الذين يحملون لقب استاذ الامر الذي جعل معظم تفكير هذه الجامعات يدور في فلك التخلص من هذه المشكلات وليس التفكير في المستقبل ((Ahmat 1980 P. 728))

لذا فأن على الجامعات العربية تقع مسؤوليات كبيرة لكي تصبح قادرة على تأدية واجباتها بصورة فاعلة وان تأخذ دورها القيادي لمواجهة ما يخبئه لها المستقبل من تطورات وان تأخذ مكانتها في الاشراقة الانسانية كجامعة تحقق اغراض التربية العربية الاسلامية في المجتمع الانساني .

وتظراً لعدم عثور الباحث على دراسة تهدف للتعرف على المؤثرات والتحديات التي تواجه التربية العربية الجامعية ونوع التربية العربية المنشودة ومواصفاتها فأن الحاجة تصبح ماسة للقيام بمثل هذا البحث .

اهداف البحث :

يهدف البحث :ـ

١ ــ الكشف عن المؤثرات والتحديات التي تواجه التربية العربية الجامعية .

٢ ــ التعرف على :ــ

أ ــ نوع التربية العربية المنشودة للتعليم العالي .

ب ــ مواصفات ومقومات التربية العربية المنشودة .

جـ ــ دور التربية العربية في صناعة الانسان العربي القادر على التكيف مع متطلبات المستقبل .

حدود البحث :

يتحدد البحث بالتربية العربية على مستوى التعليم العالي والمؤثرات والتحديات التي تواجهها في الوقت الحاضر وفي القرن الحادي والعشرين .

تعريف المصطلحات :

وردت بعض المصطلحات التي عرفت اجرائياً بما يتلاءم وطبيعة البحث الحالي :ـ

١ ـ التربية العربية الجامعية : هي تربية عربية اسلامية تجمع بين الشمول والتكامل والاصالة والتجدد والعلم والعمل والنظرية والتطبيق من اجل بناء شخصية متكاملة جوانبها الجسمية والعقلية والاجتماعية والوطنية •

٢ ـ مطالب المستقبل : وهو كل ما يخبئه المستقبل من تغيرات تحدث في الساحة الانسانية ككل بما فيها من ذخائر فكرية وابداعات علمية وتقنيات تدخل في مفاصل الحياة •

اجراءات البحث :

اعتمد الباحث المنهج التحليلي في الكشف عن المشكلات والمعوقات المؤثرة في كفاءة التربية العربية الجامعية واحالت دون تحقيقها لاهدافها المنشودة كما اعتمد المنهج الاستقرائي للكشف عن متغيرات المستقبل التي تفرض نفسها على التربية العربية الجامعية التي طرحتها الدراسات التنبوئية للعقدين الاخيرين من القرن العشرين •

تحليل النتائج وتفسيرها :

بعد جمع البيانات والمعلومات باستخدام المنهجين السابقين فقد عرضت النتائج كما يأتي :ـ

المؤثرات والتحديات التي تواجه التربية العربية الجامعية :

ان المعنيين بالتربية والتعليم عموما والمتخصصين الجامعيين خصوصا مطالبون بوقفة جدية وعملية لاعادة النظر في مجمل محتوى التعليم العالي واساليبه ومستلزماته ، ازاء المؤثرات التي تؤثر فيه سلباً او ايجاباً وازاء

التحديات الكبيرة المقترنة بالتسارع العلمي والتقني والتطورات الهائلة في وسائل الاتصال والمعلومات التي تكفي وحدها تحدياً من اعقد التحديات التي تواجه التربية العربية فضلا عن التحديات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تترك ظلالها على التربية والتعليم وعلى المجتمع عموما •

ومن اجل ان نقدم تصوراً سريعاً لاهم التحديات الخاصة بالتعليم العالي فاننا نؤمن ونؤكد أن التعليم العالي العربي مدعو لمواجهة التحديات الاتية :ـ

١ ـ التزايد المستمر على التعليم العالي من الطلبة ، الامر الذي يتطلب من مؤسسات التعليم العالي تدارك الحاجة القائمة الى التوسع الكمي مع ضمان التعمق النوعي والتخصصي المطلوب •

٢ ـ المناهج وطرق التعليم ، وما تتطلبان من تغيير وتطوير دائم لاستيعاب الحركة العلمية العالمية ومعطيات التقنية الحديثة مع الحفاظ على الاصالة العربية ضمن اهداف التعليم العالي في تكوين شخصية عربية متميزة •

٣ ـ ظهور مؤسسات مناظرة او بديلة كمراكز البحوث والدوائر البحثية التابعة للمؤسسات الصناعية والانتاجية او مؤسسات التعليم الاهلي الخاص بالجمعيات والمنظمات التي بمجملها تكون تحدياً تنافسياً مع التعليم العالي •

٤ ـ ظهور افكار ونظريات جديدة في التعليم والتعلم واساليب متنوعة للتعلم لها اسسها وقواعدها ومستلزماتها غير التقليدية (كالجامعة المفتوحة والتعلم الذاتي والتعلم عن بعد والتعلم المصغر وغيرها) وكلها متطلبات ومستلزمات تحقق اغراضاً متنوعة تلتقي مع اغراض التعليم العالي وتختلف عنها في بعض الامور •

٥ ـ التمويل ومصادر التمويل التي تتأثر بالاوضاع الاقتصادية والسياسية وتؤثر بشكل مباشر على حركة التعليم العالي سلباً وايجاباً على وفق

المتوفر من الامكانيات او العوز فيها . الامر الذي يستدعي ضرورة الاهتمام بالتمويل وضمان مصادره تبعاً للتنوع والتخصص والتوسع المطلوب للتعليم العالي كماً وكيفاً .

ومن اجل التفصيل في هذه التحديات فأننا نجد انها تحديات داخلية واخرى خارجية تواجه التعليم العالي .

فمن اهم التحديات الداخلية :

١ ـ الطبيعة المحافظة لمؤسسات التعليم العالي .

٢ ـ التنافس على الموارد المحددة .

٣ ـ مشاكل البنية الادارية والقيادة .

٤ ـ عدم وضوح الرؤية فيما يتعلق بالبرامج التي يجب طرحها .

٥ ـ الحاجة الى اساليب معقولة في التخطيط الاستراتيجي .

٦ ـ الحاجة الى تفهم طبيعة المتعلمين ودوافعهم الدراسية .

٧ ـ الحاجة الى التعاون مع المؤسسات التربوية البديلة في مجال الصناعة والمؤسسات الحكومية والعمل الحر .

٨ ـ الرغبة في التقدم في فترات الازمات الاقتصادية .

اما التحديات الخارجية فيمكن تحديدها بالاتي :

١ ـ الاتجاه السلبي نحو التعليم العالي الذي يؤدي الى انخفاض الميزانية .

٢ ـ المشكلات الاجتماعية .

٣ ـ المنافسة مع المؤسسات الاخرى التي تقدم برامج تعليمية .

٤ ـ الصورة السيئة لبعض برامج التعليم العالي .

٥ ـ تقنية المعلومات التي احدثت ثورة في مجال حفظ المعلومات وانتشارها

واذا اضفنا الى ذلك تحديات خارجية اخرى متمثلة بما تواجه البلدان العربية من اخطار سياسية او عسكرية او اقتصادية او غيرها فان معضلات

التعليم العالي تتفاقم اكثر ، الامر الذي يؤكد دعوتنا الى ضرورة وقفة جدية وعملية لمواجهة هذه التحديات .

اما المؤثرات والتحديات التنبؤية المستقبلية التي سوف يفرضها التقدم الذي يحدث في القرن الحادي والعشرين فقد اشرتها الدراسات الحديثة بما يأتي :ـ

١ ـ أن توحد هوية الجامعة المستقلة وان تطورها لمصلحة الامة حيث انها القيمة على تراث الامة الثقافي والمسؤولة عن تطويره وانمائه .

٢ ـ ان يجعل من الجامعة مؤسسة انتاجية واستشارية وان تربط كل وسائلها التقنية مباشرة بحاجات التنمية الاجتماعية والاقتصادية ..

٣ ـ ان تركز التربية الجامعية على تنمية الجانب المهاري والتطبيقي للمعرفة التقنية .

٤ ـ ان تعتمد التربية الجامعية التخطيط وسيلة ستراتيجية في تحقيق اهدافها .

٥ ـ ان تمتاز التربية الجامعية بالابداع والابتكار وتصبح الجامعة مؤسسة ابداعية تسعى نحو التجديد والانماء .

٦ ـ ان تكون التربية الجامعية منارا لنقل المعرفة الى جميع قطاعات المجتمع تلك المعرفة المعتمدة على منهجية البحث العلمي وبذلك تصبح الجامعة وحدة للانتاج البحثي وهي عماد البحث العلمي والتطور .

٧ ـ ان تحول الجامعة كل المصطلحات التكنوقراطية لصالح المجتمع الذي توجد فيه حفاظا على نوع النظام القيمي والاجتماعي الذي يؤمن به ذلك المجتمع من دون الانقياد لمفاهيم تلك المصطلحات ومعانيها الظاهرة .

٨ ـ ان تنمي التربية الجامعية روح القيادة الجماعية وذلك عن طريق خلق مناخ تنظيمي سليم تتفاعل فيه العقول المشتركة وينمو كل عقل نموا ذاتيا حسب قدراته ونموا جماعيا لصالح المؤسسة الجامعية بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامة .

ايــة تربية عربية ننشد للتعليم العالي ..؟

التعليم العالي ليس عالياً في مراتبه التسلسلية في السلم التعليمي فقـط . بل هو عال في مدى عمقه وفي مدى ما يوفره للطالب من اتساع في الخبرة وفي المعرفة وفي المهارة التخصصية . وبذلك فأن للتعليم العالي اهدافاً خاصـة ترقى بالفرد من مستوى الى مستوى كمياً ونوعياً وفكراً وتطبيقاً علماً وعملاً .

ولعل هذه الاهداف كانت العوامل والتحديات التي ظهرت في بدايـة الربع الثاني من القرن العشرين خاصة ، واثرت في وضع التعليم ووضع العلـم ومؤسساته ، ومن اهمها :

١ ـ تعاظم الاهتمام بالعلم والتعليم باعتبارهما من اهم القوى المؤثرة في تطور المجتمعات وتنفيذ سياستها الاقتصـادية والاجتماعية ، وبالتالـي ازداد اشراف الدولة على مؤسساتها وتمويلها وادارتها ، حتى وصل الامـر في معظم الدول الى اعتبار المؤسسات العلمية والتعليمية على اختلاف انواعها مؤسسات حكومية تخضع للدولة مباشرة .

٢ ـ ضيق الفجوة بين ما كان يسمى علماً بحثاً وعلماً تطبيقياً (اي ازديـاد الارتباط بين العلم والتقنية) ، الامر الذي ادى الى توجيه الانظار الـى اهمية البحث العلمي في الحياة اليومية للانسان ، وبالتالي الى ظهـور الدعوة الى ضرورة توجيه هذا البحث الى ما يفيد المجتمع ، بل ان هذه الدعوة تجـاوزت حدود المجتمع الواحـد لتكـون دعوة انسانية شاملة ولاسيما بعد ان استخدم العلم وتطبيقاته بصورة مذهلة في الحروب . وفي الوقت نفسه الذي تعاني فيه البشرية من ازمات في الطاقة والغـذاء كان الاهتمام يتجه الى ان يتم توجيه العلم والبحث العلمي نحو حلها .

٣ ـ ازدياد الاتجاهات الاشتراكية بما تتضمنه من مبادىء تتصل بالتنظيـم الاجتماعي واعطاء الاولوية للمطالب الاجتماعية والتخطيط لصـالح الجماهير والملكية العامة لوسائل الانتاج ، وبالتالي اصبحت المؤسسات

العلمية والتعليمية في الدول ذات النهج الاشتراكي خاضعة للدولة توجهها من اجل بناء المجتمع الاشتراكي وتحقيق اهدافه .

٤ ـ الاهتمام بالتخطيط بعد ان برز دوره واهميته العلمية في توجيه الطاقات والموارد واستثمارها بعد ان ظهر التنافس الدولي في التنمية والانتاج والتسليح وغير ذلك من ميادين التنافس ، وكان من الطبيعي ان يشمل هذا الاهتمام المؤسسات العلمية والتعليمية ، ولذلك ظهرت مفاهيم توجيه العلم والتعليم توجيهاً اجتماعياً بما يخدم مصالح المجتمع ومتطلباته وربطه بفلسفة المجتمع وقيمة واهدافه وبمعنى آخر ظهر مفهوم (الالتزام في العلم في مواجهة مفهوم الحرية في العلم) .

ولو اضفنا الى هذه الامور عوامل اخرى ، وهي كثيرة ، لا تستوجب منا الاطالة بلا طائل . لان الواقع المعاشي يبين بوضوح اثر هذه العوامل وغيرها في حركة التعلم العالي والمؤسسات التعليمية عموماً .

ولذلك انطلاقاً من الايمان بأن مسيرة التربية العربية واحدة ان لكل مرحلة اختناقاتها الخاصة بها ، فان المقام يدعونا الى ان تحدد للتعليم العالي مقومات المسايرة والتوافق مع عناصر التربية العربية الاساسية التي تمثل الفلسفة الاجتماعية للتربية العربية . وان مهمة تحديد هذه المقومات ليست بالسهلة اذا ما علمنا ان التعليم العالي سواء في الدراسات الاولية أو العليا له خصوصياته ، ابتداء بمفاهيم الالزام والالتزام والحرية والاكاديمية المطلوبة في ساحة التعليم العالي وانتهاء بالمدارس الفكرية والفلسفات التي ينبغي التعامل معها بموضوعية تضمن عدم المساس بقيم الامة مثلها وتراثها من جهة وبالعطاء والفكر الانساني من جهة ثانية .

اي ان هناك عوامل وتحديات داخلية وخارجية تعمل عملها في اطار التعليم الجامعي والعالي (قد تكون قليلة الاثر في التعليم الذي يسبقه) .

مواصفات التربية العربية المنشودة للتعليم العالي ومقوماتها :

بدءاً ينبغي الاعتراف بأن نظم التعليم العالي العربية نظم مقتبسة في هياكلها واسسها ، والاعم الاغلب في مناهجها وبرامجها ، وهذا الاقتباس لم يكن دخيلا على نظام التعليم بقدر ما كان تنظيماً واعادة تنظيم لها بالصورة التي تجعلها اكثر انسجاماً مع حركة النمو المعرفي والتطور العلمي في العالم •

ولكن المهم في هذا المجال هو الوقوف على اصالة التربية العربية والثقافة العربية التي تمثل وعاءً حضارياً واجتماعياً لها • ولنستمع الى H.A.R. GIBB وهو يقول في عام ١٩٤٢ :

(لم ار كتاباً واحداً كتبه عربي في أي فرع بأية لغة عربية يمكن عن طريقه للدارس الغربي ان يفهم جذور الثقافة العربية••واكثر من ذلك لم ار كتاباً كتب بالعربية للعرب انفسهم يحلل بوضوح ما تعنيه الثقافة العربية للعرب) • ويبدو ان هذا الرأي مازال يلقى القبول حتى الوقت الحاضر لدى الكثير من الغربيين المهتمين بهذا الامر •

ولو سلمنا بهذا الرأي افتراضاً ، وليس لدينا حجة قوية لرده لظهر لنا ان هذا الاخفاق من جانب العالم العربي لشرح او محاولة تحليل اسس حضارته امر يحتاج الى توضيح ، ولعل من ابرز اسباب ذلك ان المجتمع العربي ، وبصفة عامة ، يجهل نسبياً اصول حضارته السالفة وتطوراتها ومنجزاتها ويعزى مثل هذا الجهل في بعض جوانبه الى النظم التعليمية وانماط التربية المليئة بالثغرات ونواحي القصور •

ومن هنا كان لابد من ان تستهدف التربية العربية تدارك نواحي القصور هذه لتكون هذه التربية مصدر علم وثقافة بسبب جهل وقصور معرفة •

أن من أبرز سمات العصر الذي نعيشه انه عصر العلم المقترن بالعمل ، اي العلم الطبيعي وما يقترن به من تطبيق هذا العلم بالاساليب التقنية على اختلاف

مجالات العلوم وتطبيقاتها ، ومع العلم والعمل مفهومان اشار اليهما الغزالي في (ميزان العمل) حينما قرر ان السعادة لا تنال الا بالعلم والعمل ، الا ان هذين المفهومين لهما في العصر الحاضر دلالات غير التي اشار اليهما او انطلق منها الغزالي .

وهذا الامر يدعونا الى التساؤل : كيف يمكن ان ننتقل الى فكر جديد يتجنب سلبيات الفكر القديم ويدعم ايجابياته ؟

اننا هنا لابد ان نقرر بأنه لا يمكن التحول الى فكر جديد او نظام تربوي جديد او الى (تربية عربية جديدة) مالم نبدأ من الجذور ، من المبادىء نستبدل مثلا علياً جديدة بمثل كانت علياً في اوانها ولم تعد كذلك ، واسلافنا قد صنعوا الشيء نفسه أستبدلوا مبادىء وأفكار بافكار ومثلا بمثل ولكن هذا الهدف وهذه المهمة الكبيرة تستدعي اعادة النظر في شخصية التربية العربية وفي تأصيلها واستنباط الدروس الحديثة من كنوز التراث . ولو بدأنا في الخطوة الاولى لجابهتنا مهمة اخرى لا تقل اهمية وهي دور التربية في بعث الشخصية الحضارية العربية ، الامر الذي يدعونا الى استعراض سريع للاهداف القومية العليا للمجتمع العربي المتمثلة بالاخذ بالسبيل الديمقراطي في شتى مناحي الحياة بما يتضمنه ذلك من حرية ومساواة ، يدرك الانسان العربي من خلالها حقوقه وواجباته في اطار الجماعة ومن ثم يقوى لديه الشعور بالانتماء الى قوميته بدلا من الاغتراب عنها ، كما يقوي لديه الشعور بالمشاركة الاجتماعية والا يقنع بموقف المتفرج السلبي الذي يحيا على هامش الحياة بل يشارك فيما حوله مستخدما ومنميا امكاناته الابداعية في سبيل نفسه وامته ، والعمل على رفع مستوى الحياة لابناء الوطن والامة .

ان الاخذ بالسبيل الديمقراطي والعمل على رفع مستوى الحياة هدفان يرتبط بهما هدف مهم اخر هو السعي الى تحقيق العدالة الاجتماعية كأحد الاهداف القومية للمجتمع العربي ، ويتضمن ذلك في المقام الاول تحقيق تكافؤ

الفرص امام المواطنين في شتى المجالات والقضاء على الفوارق الطبقية • ان مثل هذه الاهداف الكبيرة والواسعة منطلقها وهدفها الاساس هو كونها عملية صياغة الانسان العربي الذي يمكن ان يسعى لتحقيق تلك الاهداف •

وهنا يبرز دور التعليم والتعليم العالي بصورة خاصة في هذا الدور المهم للتربية العربية في عملية صياغة الانسان العربي على وفق خصائص معينة في الشخصية العربية لعل من اهمها :

١ ـ التمسك بالقيم الروحية والخلقية •

٢ ـ حرية الفكر والانفتاح على المصادر المختلفة للثقافة •

٣ ـ تنمية الايمان بفلسفة التغيير وطرح النظرة السلفية المختصة •

٤ ـ اعتماد التفكير العلمي والقدرة على مواجهة ما يعترضه من مشكلات وما يواجهه من تحديات •

٥ ـ تنمية روح الثقة بالنفس لدى الانسان العربي لتحل محل التواكل •

٦ ـ تنمية القدرات والمهارات لدى الفرد وتكوين اتجاهات ايجابية مثل العمل بروح الفريق وتغليب المصلحة المشتركة •

ان مثل هذه الاهداف ممكن ان تكون صالحة في مسعى المعنيين بالتربية وبالتعليم العالي بصورة خاصة نحو اعادة صياغة الشخصية العربية والانسان العربي •

أن السعي لوضع فلسفة تربوية عربية تأخذ في الاعتبار الماضي والواقع والمستقبل لن تكون اطاراً للجهد التربوي في مؤسسات التعليم فحسب بل تكون اطاراً وموجهاً لمناشط التربية في المجتمع كافة ، ولكننا يجب ان نؤمن بأن اسهام النظام التعليمي النمطي (كالتعليم العالي) في خلق الشخصية العربية للانسان العربي هو اوفر واعمق من اسهام اي نظام اجتماعي آخر •

وان مفتاح نجاح التعليم العالي في هذه المهمة هو في ضرورة توفر المعلم او

الاستاذ المؤمن بقوميته ورسالته والقادر على تنفيذ تلك المهمة الشاقة عن ايمان وقناعة وحماسة .

ولعل من اهم المعضلات التي تصادف المربين والمهتمين بنظم التعليم واهدافه ومناهجه هي تلك الحيرة وذلك التردد في تربيتنا العربية بين الاصالة والاقتباس فالتربية العربية (في الواقع) تأخذ من العالم الغربي الكثير من مناهجه وطرائقه وأساليبه بلا محاولة تطويعها لخصائص الشعب العربي وحاجات المجتمع ، فضلا عن ان التربية العربية عادة ما تنمو نحو الابقاء على بعض القيم الثابتة والمستخلصة من تراثنا من دون ان توفق بين حاجاتها وحاجات العصر .

ولذلك يبدو ان لدينا في الوقت الحاضر نمطين اساسيين للتربية في مجتمعنا العربي تربية تقليدية تمعن في المحافظة على القديم تؤكده ولا تحاول الاخذ بالجديد بحجة ان في ذلك تهديداً لكياننا العربي ، وتربية حديثة تعتمد بصورة تكاد تكون كلية على محاكاة طرائق التربية المتبعة في المجتمعات الغربية وأساليبها متجاهلة مدى ملائمتها للمقومات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشخصية العربية .

ومما يلاحظ على هذين النمطين معا افتقارهما الى الارتباط بحاجاتنا التنموية والاقتصادية والى الانسجام مع اهدافنا الاجتماعية والسياسية ، وليس ادل على ذلك من فقدان التوازن ــ في الوطن العربي ــ بين التعليم النظري والتعليم الفني ، والفجوة بين التعليم في الريف والحضر ، وبين تعليم البنين والبنات الى غير ذلك من الثنائيات التي اعاقت التربية في الوطن العربي وساعدت على تخلفه ومن هنا نجد ان احد ابرز عوامل القصور في التربية العربية يعزى الى عدم الملائمة بين مناهجنا وحاجاتنا . والتي تؤدي بديمومتها واستمرارها الى نوع من الاغتراب المعرفي لدى الطالب الجامعي الذي يتم تأهيله بمناهج لا تصب في حاجات المجتمع ، ولا يصعب ادراك المشكلات التي

تبرز من جراء ذلك في المستوى الاجتماعي والاقتصادي ان عدم الملائمة بين المناهج التعليمية والظروف الاجتماعية وبين الغايات والوسائل ادى الى كثير من السلبيات في ناتج العملية التربوية ، كما تعكسه بعض السمات السلبية للمتعلمين •

وهكذا نجد ان امام التعليم العالي مهمات كبيرة في انتشال التربية العربية من رقدتها وبعث الروح فيها لتكون اداة لصياغة الانسان العربي الجديد ، ولكي لا تبقى دفين الكتب والابحاث ومناظرات المشاركين في المؤتمرات التخصصية •

ولعل سائلاً يسأل : اين الجهود التربوية المبذولة في هذا المجال ؟ وهل محاولات الاصلاح المستمرة والمستديمة لم تعد صالحة ؟

وللاجابة عن هذا السؤال يمكننا القول :

اذا كانت محاولات الاصلاح عموماً والاصلاح التربوي بوجه خاص لم تؤت أكلها بعد ، فأن مرد ذلك الى ان المجتمع العربي لايزال في مستهل حياته يسعى الى تحقيق التنمية والديمقراطية ، ولكنه بالرغم من تلك المحاولات لايزال مجتمعاً قلقاً تحيط به الاخطار الخارجية وتتوزعه التحديات الاستعمارية والاختلافات السياسية ، فضلا عن كونه مازال حائرا بين تراثه القديم والمدنية الحديثة ، فهو يعتز بماضيه ويفاخر الامم بحضارته القديمة ويعمل على احيائها ثم يجد نفسه امام حضارة غربية تستهويه عجائبها وتفتنه مظاهرها ، فيبقى مضطربا حائرا • ولو ان ما حل بالمجتمع العربي من نكبات حل بغيره من المجتمعات ، ما فقد حريته وابداعه فحسب ، بل لدكت معالمه وانعدم وجوده فلا عجب اذن لحيرته بين الاصالة والاقتباس وهو لايزال يتلمس طريقه للنهوض من جديد وهذا الامر يضيف الى التعليم العالي مسؤولية كبيرة فضلا عن مسؤولية التربية العربية في بناء الجيل العربي •

وهكذا نجد ان التعليم العالي ازاء تحديات في اهدافه ومناهجه ليكـــون تعليماً عالياً يليق بالاضطلاع بمهمة صياغة الانسان العربي وبعث الشــــخصية العربية المتميزة .

التربية العربية ومستقبل الامة

لكل امة سند ، ولكل سند مقومات ، والحضارة العربية سند اصـــيل للامة العربية ، مقومات هذا السند بارزة وشاخصة للعامل كله حاضره وماضيه متقدمة ومتخلفة ، المؤمن به وناكره . وهي ليست حضارة مندثرة لكي يكـــون التفاخر بها ضرباً من ضروب النفخ في تربة مثقوبة . بل هي حضارة حقة لهـــا ابعادها الشاملة في مفاصل الحياة كافة ، وليست الحياة حضارة جزئية او وقتية او مجزأة ، فهي شاملة ودائمة ومتكاملة .

ولذلك فأن احدى اهم مقوماتها وهي (التربية) لابد ان تكون بمستوى هذه المواصفات اصيلة وشاملة ومتكاملة ، تستمد من الماضي ما يحيا بــــه الحاضر ويزكي به المستقبل وليس هذا كلاما ادبيا بقدر ما هو تصوير لواقـــع ينبغي ان يكون .

وحيث ان هذا الواقع مازال غير قائم . فأن مســـتقبل الامة مقـــرون بأقامته وديمومته .

اما في المستوى التطبيقي فأن الاخذ بالعلم والتقنية يأتي تالياً للتخطيـــط وارساء الاسس والمبادىء والاهداف ، فهو امر ان لم يكن واقعاً فأنه سيقع .

ولذلك فأن التربية العربية ما لم تنشط لتواكب العصر فأنها ستدمر نفسها بنفسها بالتقولب والجمود من ناحية ، وبالغناء النظري والفكري مـــن دون الحيوية العلمية والاخذ باسباب الحياة .

ولو آمنا بأن التربية ليست عملية اجتماعية فحسب بل هي الحياة نفسها ،

فأن المسألة تبدو اكثر وضوحاً عندما يقترن مستقبل الامة بحياتها اي (بتربيتها) .

ومن هنا كانت التربية العربية مفتاحاً حقيقياً لمستقبل عربي اصيل للامة العربية .

وان التربية العربية يتم تدعيم اسسها وركائزها بالنظم التربوية ، وهذه النظم التربوية بالتقابل تحفظ التربية العربية اصالتها وديمومتها .

ان نظمنا التربوية في حركتها نحو المستقبل ، تحتاج الى اكثر من نظرية عربية ، بحسب الموضوع الجزئي او الكلي الذي تركز عليه هذه النظرية ، فنحن بحاجة الى نظرية او نظريات عربية في التعلم يكون موضوعها الموقف التعليمي داخل المدرسة وخارجها في افكارنا العربية بظروفها واوضاعها الثقافية وامكانيتها المادية وعناصرها البشرية المختلفة نسبياً عن تلك التي توجد في الشرق او الغرب . كذلك نحن بحاجة الى نظرية او نظريات عربية في علم النفس التكويني (تكوين الفرد ونمو الشخصية) تنبثق من واقع حياتنا وقيمنا وتأخذ في الاعتبار خصائص الشخصية العربية الاصيلة بكرامتها ونخوتها ، وجهادها واجتهادها وزهدها وبساطتها ، وتقشفها ديمقراطياً وتماسكها مع غيرها ، وايمانها العميق ـ اولا واخيرا ـ بالله وكتبه ورسله واليوم الاخر . ومثل هذا يقال عن حاجتنا الى نظرية او نظريات عربية في ديناميات الجماعة والعلاقات الانسانية نستقري عناصرها الاولى من واقع حياتنا في القرية العربية والحي في المدينة ، كذلك نحن في حاجة الى نظريات عربية في الادارة التعليمية وفي علاقات المدرسة بالبيئة والمحيط وفي اقتصاديات التعليم ، وكلها تشتق من صميم واقعنا وآمال مستقبلنا .

ان هذه النظريات وغيرها مما يمكن تسميته بنظريات فرعية لا تقوم وتستقيم الا بالبحث العلمي في مؤسسات قادرة على البحث المتقدم داخل الجامعات العربية وخارجها ، على الصعيد القطري وعلى الصعيد القومي ، وتنمية هذه النظريات وانضاجها يحتاج الى وقت يمتد الى عقود ، ولا يفوتنا ان التوصل الى نظريات من هذا القبيل يعني ان [علوماً تربوية عربية عصرية قد قامت بالفعل] ، وانه بقيام هذه العلوم نكون قد بلغنا مرحلة الفطام والاستقلال الفكري في مجال التربية وصناعة الانسان العربي •

المراجـع والمصـادر المعتمـدة

اولا : العربيـة :

١ ـ باسكال بون فاس ١٩٩٤

التحديات الداخلية التي يواجهها العالم العربي من وجهة النظر الاوربيـة في « تحديات العالم العربي في ظل المتغيرات الدولية » المؤتمر الدولي الثاني لمركز الدراسات العربي ـ الاوربي ، القاهرة ١٩٩٤ ص (٨٤) .

٢ ـ الدكتور رياض حامد الدباغ ، ١٩٩٧

التحدي الحضاري ودور الجامعة في الحفاظ على مقومات الشـخصية ، مجلة اتحاد الجامعات العربية ، عدد خاص ١٩٩٧ .

٣ ـ لايموند وليامز ، ١٩٨٨ .

الثقافة والمجتمع ـ ترجمة وجيه سـمعان ، دار الشـؤون الثقافيـة العامة ـ بغداد .

٤ ـ الدكتور عبدالجبار توفيق ، ١٩٨١

التعليم العالي والتنمية في اقطار الخليج العربي ، مكتب التربية العربـي لدول الخليج ، كانون الاول ١٩٨١ .

٥ ـ عبدالله عبد الدايم ، ١٩٨٧

التربية وتنمية الموارد البشرية ، ندوة تنمية الموارد البشرية في الوطـن العربي ، الكويت ٢٨ـ٢٩ تشرين الثاني ١٩٨٧ .

٦ ـ اليونسـكو ، ١٩٩٣

تقرير ستراتيجيات تطوير التعليم العالي ، تشرين الاول ١٩٩٢ .

٧ ـ محمود عبدالفضيل ، ١٩٨٨

نظرات وهواجس مستقبلية ، مجلة المسـتقبل العـربي العـدد ١١٧ ، تشرين الثاني ١٩٨٨ .

ثانيا : الأجنبيـــة :

1- Ahmat, S. "1980" , Nation Building and The University In Developing Countries : Journal of Higher Education and Ed. Planning , Vol. 9. No. 6. 1980

2- Giles , C. "1995" , The Training of School Principles , Emerging Themes in England and Wales , Annual Meeting of the A.E.R.A, 1995.

3- Kobayashi , T. "1980" , The University and the Technical Revolution In Japan , J.H.E.P , Vol. 9 , No. 6.

4- Luthans , F. "1989" , Organization Behavior - 5th ed. McGraw Hill International Editions.

5- Malan , T. "1987" , Educational Planning as sa Social Process , Unesco .

6- Raheef, A.H. "1992" , Improving the Quality of University Teaching by Applying CEA Approach , Journal of College of Education , No. 1 , Vol. 7- 1992

7- Raheef, A.H. "1997" , Constructing Model for Increasing Scientific Performance of teaching Staff Working at Al-Mustansiriyah University. Journal of the College of Teachers , No. 7, 1997

8- Schramme , J. "1980" , Development of Higher Education and Employment in the federal Republic of Germany , Journal of the Higher Education , Vol. 9 , No. 5

9- World Bank , "1995" , Priorities and Strategies for Education , A World Bank Review , Washington , D.C.

قراءة جديدة في طبيعة الهجرة في عصر الرسالة

ا.د. هاشم يحيى الملاح
عضو المجمع العلمي
استاذ التاريخ الاسلامي – كلية الآداب
جامعة الموصل

الملخص

يعالج البحث طبيعة الهجرة في عصر الرسالة : هل كانت خروجاً طوعياً من مكة ام كانت إخراجاً قسرياً منها ؟.. لقد توصل البحث الى ان هجرة المسلمين من مكة كانت هجرة قسرية دفعهم اليها قومهم دفعاً بعد ان تخلوا عن واجباتهم في حمايتهم والدفاع عنهم ، وفضلا عن ذلك فقد قاموا بظلمهم وفتنتهم عن دينهم .

تمهيـــد :ـ

كانت هجرة المسلمين من مكة الى الحبشة ثم الى المدينة المنورة في عصر الرسالة ، تعبيراً عن استحالة التعايش السلمي بين المسلمين والمشركين في مكان واحد ، ففي الوقت الذي حرص فيه الرسول محمد بن عبدالله ـ صلى الله عليه وسلم ـ على هداية قومه الى الاسلام ، وبذل اقصى ما يستطيع من جهـد لإقناعهم للايمان بهذا الدين الجديد لان في ذلك خيرهم في الدنيا والآخرة[1] ، كان زعماء المشركين يرفضون الاستجابة لهذه الدعوة ويؤكدون تمسـكهم الشديد بما كان يعبد آباؤهم وأجدادهم حتى ولو كان آباؤهم على خطـأ او ضلال مبين[2]•

وكان من الطبيعي في ضوء ما تقدم ، أن تتعارض وجهات النظر وتتناقض بين المشركين والمسلمين ويستحيل التفاهم بينهم •

وهكذا فقد نظر المشركون الى دعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قومه الى الاسلام بأنها دعوة تسعى الى تسفيه تقاليد الآباء والاجداد ، وتمزيق وحدة الجماعة ، وقطع الارحام التي أمر الله بها أن توصل • ومن ثم فقـد

---

(١) القرآن الكريم ، سورة التوبة : ١٢٨ ، سورة الكهف : ٦ ، سورة الشعراء: ٣ ، سورة الانعام : ٣٥ ، سورة يونس : ٩٩ .

(٢) سورة سبأ : ٤٣ـ٤٩ ، الزخرف : ٢٢ـ٢٤ ، وللمزيد من التفاصـيل يراجع كتابنا : الملاح ، د. هاشم الوسيط في السيرة النبوية والخلافـة الراشدة : الموصل ١٩٩١م ، ص ١٢٣ـ١٢٧ .

أطلقوا على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصف (القاطع) أي قاطع الرحم[٣].

أما المسلمون فإنهم قد نظروا الى موقف المشركين بأنه كفر وجحود ، وخروج عما يأمر به العقل السليم ، ورفض لطريق الحق والهدى[٤].

وقد أدى هذا التناقض الحاد في مواقف الطرفين الى قيام المشركين ، وكانوا ذوي قوة وسلطان الى التضييق على المسلمين واضطهادهم ، تعذيب المستضعفين منهم حتى الجأوهم الى الهجرة في خاتمة المطاف . أفكانت هجرة المسلمين من مكة نوعاً من مهاجرة المسلمين لقومهم وقطعاً لصلات الرحم التي كانت تربطهم بهم ، كما كان يزعم المشركون ، أم أنها هجرة اضطرارية ألجأهم اليها الاضطهاد والاذى كما تؤكد ذلك المصادر الاسلامية ؟

إن الاجابة عن هذا التساؤل تتطلب التعرف على مفهوم الهجرة عند العرب ، ودراسة الظروف والملابسات التي احاطت بعملية هجرة المسلمين من مكة الى الحبشة والمدينة المنورة.

مفهوم الهجرة :ـ

إن معنى الهجرة في معاجم اللغة هو « الخروج من أرض الى اخرى ... قال الازهري : وأصل المهاجرة عند العرب ، خروج البدوي من باديته الى

---

(٣) ابن اسحاق ، محمد ، المغازي والسير ، الرباط ١٩٧٦م ، ص ١٣٣ ، الواقدي ، محمد بن عمر ، كتاب المغازي ، تحقيق مارسدن جونز ، بيروت ١٩٦٤م ، ج١ ص ٧٠ ، ج٢ ص ٧٠٢ .

(٤) سورة البقرة : ١٧٠ ، الرمز : ٢٢ـ٢٤ ، لقمان : ٢١ ، يونس : ٤٢ـ٤٣ ، الملاح ، الوسيط ، ص ١٣٤ .

المدن ، يُقال : هاجر الرجل ، اذا فعل ذلك ، وكذلك كل مخل بمسكنه منتقل الى قوم آخرين بسكناه ، فقد هاجر قومه »[٥].

يظهر مما تقدم ، أن للهجرة معنيين ، معنى خاص ، ومعنى عام ، فأما المعنى الخاص ، فهو أن يخرج البدوي من باديته للاقامة في المدن . واما المعنى العام ، فيشمل كل من ترك مسكنه وقومه وانتقل للاقامة مع قوم آخرين ، « فكل من فارق بلده من بدوي او حضري او سكن بلداً آخر فهو مهاجر »[٦].

والهجرة اسم مشتق من « الهجر » ومعناه القطع البائن والترك . « والهجر ضد الوصل ، وهجر الشيء يهجره هجراً ، تركه وأغفله وأعرض عنه »[٧] « والهجرة ترك ما يلزمك تعاهده »[٨] . لذا فان الهجرة بدون مبرر قوي تبدو أمراً مذموماً عند العرب ، لان من شأنها ان تؤدي بالمرء الى ترك ما يلزمه تعاهده من الولاء والاخلاص لقومه وموطنه والتحول الى قوم آخرين.

ويبدو ان الهجرة كانت عملا استثنائياً لا يقع عند العرب إلاّ في حالة حصول اسباب وظروف قاهرة ، كاضطرار البدوي الى هجرة حياة البداوة والاستقرار في القرى والمدن لطلب الرزق عند جفاف المرعى وانعدام سبل العيش . او عند حصول نزاع خطير بين المرء وقومه تتعذر تسويته فيضطر عند ذلك الى مهاجرة قومه وتركهم على الرغم من إرادتهم ورغبتهم .

ويظهر من استقراء احداث السيرة النبوية أن هجرة المسلمين من مكة ترجع الى النوع الاخير من الاسباب ، فقد وصف القرآن الكريم خروج المسلم من مكة مهاجراً بأنه « مراغمة » فقال : « وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فِي الأرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً »[٩].

---

(٥) الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبدالعليم الطحاوي ، ج١٤ ص ٣٩٧ .
(٦) المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٣٩٧ .
(٧) المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٣٩٦ .
(٨) المصدر نفسه ، ج١٤ ، ص ٤٠٩ .
(٩) سورة النساء : ١٠٠ .

يقول القرطبي في تفسير هذه الآيـة ان المراغم إسم « مشتق من الرَّغام ، ورَغِم أنف فلان أي لَصِق بالتراب ، وراغمت فلاناً هجرته وعاديته ، ولم أبال ان رغِم انفه ، وقيل : إنما سمي مهاجراً او مراغماً لان الرجل كان إذا أسلم عادى قومه وهجرهم ، فسمي خروجه مُراغماً ، وسُمي مصيره الى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هجرة ..... »[10].

لقد كانت الهجرة (تتطلب من المهاجر أن يترك دياره وما يملك فيها . فيروى أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لاحد المهاجرين « تهاجر وتدع أرضك وسماءك » جواباً على قوله « تركت أهلي ومالي مهاجراً الى الله »* ، وكانت الهجرة تقطع صلة المهاجر بأهله الباقين على الشرك « فلا يرث من اهله ولا يرثون منه » ... ولعل هذا بعض ما كان وراء قول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ « إن أمر الهجرة لشديد »**)[11].

إن صعوبة الهجرة ، وما يترتب عليها من أعباء مادية ونفسية شديدة على المهاجر وهو يهجر قومه ويقطع صلته بهم تفرض على الباحث مناقشة طبيعة هجرة المسلمين من مكة في عصر الرسالة هل كانت هجرة اختيارية طوعية كما يُفهم من المعنى اللغوي لكلمة هجرة ومن سياق عدد من الاخبار التي اوردتها المصادر عنها ، أم أنها كانت هجرة إضطرارية قسرية كما يفهم من حوالي سبعة عشر آية من آيات القرآن الكريم التي وصفت هجرة المسلمين من مكة بأنها « إخراج » نحو قوله تعالى : « فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ » (آل عمران ٣ : ١٩٥) .

---

(١٠) القرطبي ، محمد بن احمد الانصاري ، الجامع لاحكام القرآن ، مصر ١٩٥٨ ، ج٥ لاص ٣٤٧-٣٤٨ .

* اخرجه النسائي كتاب الجهاد ١٩ .

** لم نجده بهذه الصيغة وانما وجدناه في البخاري كتاب الادب ٩٥ بصيغة « إن شأن الهجرة شديد » .

(١١) العلي ، د. صالح احمد العلي ، الدولة في عهد الرسول ، بغداد ١٩٨٨ ، ص ٢٨٤ .

سيحاول هذا البحث معالجة هذه الاشكالية من خلال دراسة تطور الاحداث في مكة والمدينة في عصر الرسالة ، وبيان مدى الارتباط بين « الهجرة » و « الفتنة في الدين » التي تعرض لها المسلمون في مكة على يد المشركين ، ثم ايضاح مدى العلاقة بين هذه « الفتنة » وتشريع الجهاد في سبيل الله •

الفتنة في الدين :ـ

من المعروف أن مكة كانت حرماً آمناً يقصدها الناس من انحاء شبه الجزيرة العربية كافة لاغراض الحج والعبادة والتجارة • وكان من الطبيعي أن تتسم الحياة الثقافية والدينية فيها بقدر من التسامح يفسح المجال امام تعدد الافكار والمعتقدات •

وقد استفاد الرسول محمد بن عبدالله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من هذا الواقع فشرع بعد نزول الوحي عليه من السماء في حوالي سنة ٦٠٩م بالدعوة الى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، فاستجاب لدعوته عدد من ابناء المجتمع المكي ولاسيما الشباب والمستضعفين حتى لم تبق عشيرة من العشائر المكية إلا وقد دخل فرد او اكثر من افرادها في الاسلام(١٢)•

عند ذاك ، وجد الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ان الوقت قد اصبح ملائماً لتوجيه الدعوة الى الناس كافة في مكة لدخول الاسلام وترك ما كان يعبد آباؤهم من اوثان واصنام وكان ذلك في اواخر السنة الثالثة للبعثة(١٣)•

وقد وجد الملأ ، وهم زعماء مكة وأشرافها ، في دعوة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى التوحيد وترك عبادة الاصنام ما يهدد مصالحهم السياسية

---

(١٢) ابن سعد ، محمد ، الطبقات الكبرى ، بيروت (دار راصد) ١٩٦٠ ، ج١ ، ص ١٩٩ •

(١٣) ابن اسحاق ، محمد ، كتاب السير والمغازي ، تحقيق سهيل زكار ، دار الفكر ، ١٩٧٨م ، ص ١٤٥ــ١٤٨ •

والاقتصادية والاجتماعية[١٤]، فشرعوا في مقاومة الاسلام وممارسة الضغط والتهديد والاضطهاد والتعذيب ضد المسلمين، وبحسب مكانة كل واحد منهم في المجتمع، ومدى قوة عشيرته وموقفها منه[١٥].

وقد قدمت لنا المصادر التاريخية مجموعة من النصوص التي توضح تطور موقف المشركين في مكة من الدعوة الاسلامية، فأورد ابن سعد رواية عن الزهري جاء فيها أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دعا قومه الى الاسلام « سراً وجهراً فاستجاب لله من شاء من احداث الرجال، وضعفاء الناس، حتى كثر من آمن به، وكفار قريش غير منكرين لما يقول، فكان إذا مر عليهم في مجالسهم يشيرون اليه أن غلام بني عبدالمطلب ليكلم من السماء، فكان ذلك حتى عاب آلهتهم التي يعبدونها دونه وذكر هلاك آبائهم الذين ماتوا على الكفر، فشنفوا لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند ذلك وعادوه »[١٦]، شرعوا في اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم.

لقد اطلق القرآن الكريم على وسائل الضغط والارهاب والتعذيب التي استخدمها المشركون ضد المسلمين في مكة من أجل حملهم على التخلي عن عقيدتهم والعودة الى الشرك، عقيدة آبائهم واجدادهم، وصف « الفتنة في الدين » فقال: « إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عذاب جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ » وقال تعالى: في بيان مخاطر الفتنة في الدين « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ »[١٨].

(١٤) الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، مصر ١٩٦٨، ج٢، ص ٣٢٨، وللمزيد من التفصيل، يراجع الملاح، د. هاشم، الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة، الموصل ١٩٩١، ص ١٢٥-١٢٨.
(١٥) ابن اسحاق، كتاب السير والمغازي، ص ١٥٤-١٥٥، ص ١٦٤، ١٧٤؛ الطبري، تاريخ، ج٢ ص ٣٢٨.
(١٦) ابن سعد، الطبقات، ج١، ص ١٩٩.
(١٧) القرآن الكريم، سورة البروج: ١٠.
(١٨) القرآن الكريم، البقرة: ٢١٧.

كما قال تعالى : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ »[19].

ويظهر من مراجعة معاجم اللغة ان لكلمة « فتنة » اكثر من معنى ، فهي تعني « الخبرة » و « المحنة » والضلال والاثم والكفر والفضيحة والعذاب وغير ذلك[20].

وقد اوضح القرطبي أن أصل معنى الفتنة الاختبار ثم يختلف معناها بحسب سياق الجملة ، فقوله تعالى : « وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ »[21] معناه يصدونك ويردونك ، وتكون الفتنة بمعنى الشرك ، ومنه قوله تعالى : « وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ »[22] ، وتكون الفتنة بمعنى العبرة ، كقوله تعالى : « رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا »[23].

وقد ذكرت المصادر أن أشد من تعرض للفتنة في الدين في مكة « المستضعفون » من أصحاب رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من امثال عمار بن ياسر ، خباب بن الارت ، وصهيب بن سنان ، وبلال بن رباح ، وأبو فكيهة ، وعامر بن فهيرة وأشباههم ... وكان هؤلاء « قوما لا عشارُ لهم ولا منعة ، فكانت قريش تعذبهم في الرمضاء أنصاف النهار ، ليرجعوا الى دينهم »[24] . وقد ذكرت بعض الروايات ان تعذيب المستضعفين كان يبلغ من

---

(١٩) القرآن الكريم ، الانفال : ٣٩ .
(٢٠) الفيروزآبادي ، محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، بيروت ١٩٨٣ ، ج٤ ، ص ٢٥٤—٢٥٥ .
(٢١) القرآن الكريم ، المائدة : ٤٩ .
(٢٢) القرآن الكريم ، البقرة : ٢١٧ .
(٢٣) القرآن الكريم ، الممتحنة : ٥ ، للتفصيل يراجع : القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج٦ ، ص ٢١٣ .
(٢٤) البلاذري ، أحمد بن يحيى ، أنساب الاشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، مصر ١٩٥٩ ، ج١ ، ص ١٥٦ .

الشدة بحيث يؤدي الى موت من يتعرض له كما حصل بالنسبة لِسُمية ام عمار بن ياسر ، او يضطره الى قول كلمة الكفر وقلبه مطمئن للايمان لتفادي المزيد من التعذيب كما حصل مع عمار بن ياسر(٢٥).

وقد ذكر ابن اسحاق أن ابن عباس سُئل : « أكان المشركون يبلغون من المسلمين في العذاب ما يقدرون به في ترك دينهم ؟ فقال : نعم والله ، إن كانوا ليضربون احدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر ان يستوي جالساً من شدة الضر الذي به حتى انه ليعطيهم ما سألوه من الفتنة ، وحتى يقولوا : اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، وحتى ان الجُعل ليمر بهم فيقولون أهذا الجُعل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، إفتداء منهم لما يبلغون من جهده »(٢٦).

ولم تقتصر المحنة في الدين على هؤلاء المستضعفين وكانوا من الرقيق والموالي الذين لا عشائر لهم ولا منعة ، وإنما شملت المسلمين من ابناء العشائر المكية ، وإن كان ما تعرضوا له من الاذى والتعذيب أقل شدة .

فقد ذكر ابن اسحاق أن قريشاً عدت « على من اسلم منهم فأوثقوه وآذوه واشتد البلاء عليهم وعظمت الفتنة فيهم ، وزلزلوا زلزالا شديداً »(٢٧). كما اورد الطبري رواية عن عروة بن الزبير تقول : « ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم ، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أهل الاسلام »(٢٨).

ويبدو ان زعماء المشركين كانوا يتعاملون بحذر في اثناء تعذيب المسلمين من اهل مكة خشية ان يؤدي ذلك الى موتهم ، مما قد يدفع اهلهم الى محاولة

(٢٥) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ١٩٢ .
(٢٦) المصدر نفسه ، ص ١٩٢–١٩٣ .
(٢٧) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
(٢٨) الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

الثأر لمقتلهم ، فقد ذكر ابن اسحاق أن رجالا من بني مخزوم مشوا الى هشام بن الوليد حين أسلم اخوه الوليد بن الوليد بن المغيرة طالبين منـــه تسليمه اليهم من اجل حمله على الرجوع عن دينه مع بقية الفتية الذين اسلموا من بني مخزوم مثل سلمة بن هشام ، وعياش بن ربيعة ، فوافق على تسليمه بعـد ان حذرهم من عواقب تجاوز الحدود في ايذائه ، فقال لهم : « هذا فعليكم بـه ، فعاتبوه ، واياكم ونفسه ، إحذروا على نفسه ، فأقسم بالله لئن قتلمتوه لاقتلن اشرفكم رجلا »[٢٩].

ولم تحفظ لنا المصادر أسماء من تعرض للفتنة في الدين من ابناء العشائر المكية ولكنها اشارت الى عدد منهم ، وكان ابرزهم ، من ورد ذكرهم آنفـاً ، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار[٣٠] ، وعثمان بن مظعون ، من بني جمح[٣١] وهشام بن العاص ، من بني سهم[٣٢].

ويبدو أن عدد من تعرض للاذى والتعذيب كان يفوق بكثير عدد مـــن ذكرتهم المصادر بدليل ان من هاجروا الى الحبشة فراراً بدينهم وتفادياً للفتنـــة قد بلغ حوالي مائة مهاجر من الرجال والنساء وهم يتوزعون على العشـــائر المكية كافة[٣٣].

إن ما تقدم ، لا يعني ان هؤلاء جميعاً قد تعرضـــوا للتعذيـــب والاذى الجسدي بسبب عقيدتهم ، وإنما يعني أنه قد اصابهم نوع من الاذى المـــادي او الادبي او الاجتماعي بحيث اضطرهم الى الهجرة . فقد ذكر ابن اسحاق ان

(٢٩) ابن هشام ، عبدالملك ، السيرة النبوية ، مصر ١٩٥٥ ، تحقيق مصطفى السقا وآخرون ، ق١ ، ص ٣٢١ .
(٣٠) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ١٩٣ .
(٣١) المصدر نفسه ، ص ١٦٤ .
(٣٢) البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ١٩٧ .
(٣٣) ابن اسحاق . كتاب المغازي والسير ، ص ٢١٣ ، ٣٢٨ . وللمزيد مـــن التفاصيل يراجع : الملاح ، الوسيط في السيرة النبوية ، ص ١٤١ـ١٥٠.

أبا جهل كان « أذا سمع بالرجل قد أسلم ، له شرف ومنعة ، أنبه وأخزاه ، وقال : تركت دين ابيك وهو خير منك ، لنسفهن حلمك ولنفيلن رأيك — اي لنقبحنه ونخطئه — ، ولنضعن شرفك ، وإن كان تاجراً قال : والله لنكسدن تجارتك ولنهلكن مالك ، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به »(٣٤).

وقد حاول زعماء المشركين في مكة ان يقنعوا ابا طالب وكان رئيساً لعشيرة بني هاشم أن يتخلى عن حمايته للرسول — صلى الله عليه وسلم — كي يتولوا فتنته واضطهاده(٣٥) ، إلا انه رفض ذلك ، وتضامن معه بقية افراد عشيرته ما عدا أبا لهب ، لانهم « أنفوا أن يستذلوا ، ويسلموا أخاهم لمن فارقه من قومه »(٣٦).

لقد شعر الرسول — صلى الله عليه وسلم — بخطورة ما يتعرض له أصحابه من الفتنة في الدين على مستقبل الدعوة الاسلامية ولاسيما ان عدداً منهم قد انصاع لما طلب منه المشركون تحت وطأة التعذيب والاذى . وقد قدم لنا البلاذري رواية عن ابن الكلبي تصور لنا ابعاد هذا الخطر جاء فيها « عُذب قوم لا عشائر لهم ولا مانع ، فبعضهم ارتد ، وبعضهم أقام على الاسلام ، وبعضهم اعطى ما اريد منه من غير اعتقاد منه للكفر . وكان قوم من الاشراف قد أسلموا ، ثم فتنوا ، منهم سلمة بن هشام بن المغيرة ، والوليد بن الوليد بن المغيرة وعياش بن ابي ربيعة ، وهشام بن العاص السهمي »(٣٧).

ومما يجدر ذكره في هذا المجال ان رجال الملأ — وهم زعماء مكة وأشرافها — قد استخدموا سلطة رؤساء الاسر والعشائر في اضطهاد ابناء عشائرهم (المسلمين) وفتنتهم عن دينهم بسبب غياب المؤسسات التي تقوم

---

(٣٤) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٣٢٠ ، البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ١٩٨ .
(٣٥) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ١٥٤ .
(٣٦) المصدر نفسه ، ص ١٥٦ .
(٣٧) البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ١٩٧ .

بواجب التنظيم والردع في الدولة الحديثة (الشرطة) في مجتمعهم . وقد ادى هذا التصرف الى تمزيق وحدة المجتمع المكي والاضرار بروح التكافل والتضامن بين ابناء العشيرة الواحدة . وهكذا فقد اخذ المسلمون يشعرون بالظلم والوحشة وراحوا يبحثون عن الامن والحماية خارج إطار أُسرهم وعشائرهم.

الهجرة الى الحبشة :ـ

لقد توصل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في ضوء ما تقدم الى ان المخرج الوحيد من الفتنة التي يتعرض لها اصحابه هي الهجرة ، وهي هنا عمل اضطراري ، دفاعي ، يلجأ اليه الفرد لحماية نفسه وعقيدته ، بعد ان تخلت عنه عشيرته ، واخذت تتصرف على الضد مما تفرضه عليها الاعراف والتقاليد العربية في حماية ابنائها والدفاع عنهم . وإذا كانت التقاليد العربية تسمح للعشيرة بأن تخلع إبنها إذا أساء التصرف والسيرة كي لا تؤخذ بجريرة افعاله(٣٨) ، فإنه كان من حق الفرد ان يهجر عشيرته إذا أساءت التصرف في معاملته فيهاجر عنها الى قوم آخرين(٣٩).

يقول ابن اسحاق : « لما رأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه وما يصيبهم من البلاء والشدة ، وان الله تعالى قد اعفاه من ذلك ، وأنه لا يقدر على ان يمنعهم من قومهم ، وأنه ليس في قومهم من يمنعهم كما منعه عمه ابو طالب، أمرهم بالهجرة الىأرض الحبشة ، وقال لهم:إن بها ملكاً لا يظلم الناس ببلاده في ارض صدق فتحرزوا عنده يأتيكم الله عز وجل بفرج منه ، ويجعل لي ولكم مخرجاً ، فهاجر رجال من اصحابه الى ارض الحبشة مخافة للفتنة ، وفروا الى الله عز وجل بدينهم ، واستخفى آخرون باسلامهم »(٤٠).

---

(٣٨) الفيروزآبادي ، القاموس المحيط ، ج٣ ، ص ١٩ .

(٣٩) الشريف ، احمد ابراهيم ، الدولة الاسلامية الاولى ، مصر ١٩٦٥ ، ص٤٦

(٤٠) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ١٧٤ .

يظهر مما تقدم ، أن السبب الرئيس للهجرة الى الحبشة كان الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون في مكة على ايدي المشركين وتخوف الرسول – صلى الله عليه وسلم – من ان يفتن المسلمون عن دينهم بسبب ذلك . وقد اجمعت المصادر التي بين أيدينا على ذلك . فذكر البلاذري ان المسلمين هاجروا الى الحبشة في السنة الخامسة من المبعث « هرباً بأديانهم من مشركي قريش بإذن النبي – صلى الله عليهم وسلم »[٤١] . وذكر الطبري رواية عن عروة بن الزبير أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – امر اصحابه بان يخرجوا الى ارض الحبشة « لما قهروا بمكة وخاف عليهم الفتن »[٤٢] . كما ذكر ابن سعد استناداً الى رواية الزهري ان الرسول – صلى الله عليه وسلم – أشار على اصحابه ان يهاجروا الى الحبشة حين عذبهم كفار قريش « وسجنوهم وارادوا فتنتهم عن دينهم »[٤٣] .

لقد حاول احد المستشرقين البارزين وهو « مونتغمري وات » ان يثبت أن الاضطهاد والفتنة في الدين لم يكونا هما السببين الرئيسين للهجرة الى الحبشة ، لان ما تعرض له المسلمون على ايدي المشركين كان اضطهاداً خفيفاً ، وان الفتنة التي تعرضوا لها لم تكن فتنة قاسية ، وان الشواهد التي قدمها ابن هشام ، والطبري ، وابن سعد عن الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون كانت بلا شك افظع الشواهد بحسب تعبير « وات »[٤٤] .

إن التأمل فيما ذكره « وات » يشير الى انه قد توسع كثيراً في استخدام رأيه وتجاهل ما تقرره النصوص التاريخية التي اشرنا اليها . فاذا كانت النصوص ، وعلى رأسها القرآن الكريم تقرر ان الاضطهاد والتعذيب قد وصل

---

(٤١) البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ١٩٨ .
(٤٢) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٣٢١ .
(٤٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٠٣ .
(٤٤) وات ، محمد في مكة (تعريب شعبان بركات) ، بيروت منشورات المكتبة العصرية ، بلا تاريخ ، ص ١٩٠–١٩١ .

الى الحد الذي يعذر فيه المسلم بأن ينطق بكلمة الكفر وقلبه مطئمن للايمان[٤٥] فهل يجوز لمؤرخ ان يقول استناداً الى رأيه بأن ذلك الاضطهاد والتعذيب كان خفيفاً ؟ وما معايير الشدة والخفة في هذا المجال ؟.. أليس هذا الامر ذا طبيعة نسبية يختلف بحسب الاشخاص والظروف والزمان والمكان .. ثم ما الادلة التي استند إليها « وات » حين اتهم المؤرخين المسلمين (جميعاً) بأنهم قد بالغوا في الحديث عن الاضطهاد الذي تعرض له المسلمون من اجل « محاولة نفي تهمة الارتداد عن شخص من الاشخاص » ؟[٤٦].. لقد كان المفروض فيه ان يبين لنا من هذا الشخص ، وما مصلحة كل هذا العدد من المؤرخين في « المبالغة » من اجله ؟

وإذا جاز ان يبالغ المؤرخون لسبب من الاسباب في الحديث عن الاضطهاد والفتنة في الدين التي تعرض لها المسلمون ، فهل يجوز ذلك بالنسبة لآيات القرآن الكريم وهي قد نزلت في عصر الرسالة وعرفها انصار الاسلام وخصومه ؟

وربما كان من اوضح الآيات دلالة على ان الاضطهاد والفتنة كانا هما السببين في الهجرة الى الحبشة قوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ »[٤٧] وقوله : « وَالَّذِين هَاجَرُوا في اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ »[٤٨].

---

(٤٥) القرآن الكريم ، النحل : ١٠٦ ، راجع ايضا البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ١٥٩-١٦٠ .
(٤٦) وات ، محمد في مكة ، ص ١٩١ .
(٤٧) القرآن الكريم ، النحل : ١١٠ .
(٤٨) القرآن الكريم ، النحل : ٤١ ، راجع ايضا : القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج١٠ ، ١٠٧ ، ١٩٢ .

إن ما تقدم لا ينفي احتمال وجود اسباب ثانوية للهجرة الى الحبشة كرغبة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في توثيق علاقاته السياسية مع ملك الحبشة او ايجاد مصدر للرزق والتجارة للمهاجرين الى الحبشة او الضغط على قريش لتغيير موقفها من المسلمين او غير ذلك ... إلا ان السبب الاساسي للهجرة الى الحبشة كان الاضطهاد والفتنة في الدين[٤٩].

ويلاحظ ان المسلمين قد هاجروا من مكة « متسللين سراً »[٥٠] على الرغم من إرادة عشائرهم ، فلما علموا بذلك خرجوا « في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم احداً »[٥١].

وقد ذكر ابن سعد ان المسلمين قد هاجروا الى الحبشة على مرحلتين ، فكانت الهجرة الاولى في رجب من السنة الخامسة من البعثة ، وقد بلغ عدد المهاجرين فيها احد عشر رجلا واربع نسوة[٥٢] . اما المرحلة الثانية فقد حصلت بعد ذلك « وكانت اعظمها مشقة ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ونالوهم بالاذى ... وكان عدد من خرج في هذه الهجرة من الرجال ثلاثة وثمانين رجلا ، ومن النساء إحدى عشرة أمرأة قرشية وسبع غرائب ، فأقام المهاجرون بأرض الحبشة عند النجاشي بأحسن جوار »[٥٣].

غير أن ابن اسحاق يذكر ان المهاجرين الى الحبشة قد خرجوا اليها « ارسالا » حتى اجتمعوا بها[٥٤] ، مما يوحي بأن المهاجرين قد خرجوا على هيئة مجاميع صغيرة وعلى مراحل زمنية متعاقبة ، وان الهجرة قد استغرقت مدة طويلة ... ويبدو من المعلومات التي قدمها ابن اسحاق وغيره عن الهجرة الى

---

(٤٩) للمزيد من التفاصيل حول الهجرة الى الحبشة يراجع : الملاح ، د. هاشم الوسيط في السيرة ، ص ١٤١ـ١٥٠ .
(٥٠) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٣٢٩ .
(٥١) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٩ .
(٥٢) ابن سعد ، الطبقات ، ج٢ ، ص ٢٠٤ .
(٥٣) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٢٠٧ .
(٥٤) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ٢١٣ .

الحبشة ان هذه الهجرة لم تكن هجرتين منفصلتين ، وإنما هي هجرة واحدة تمت تدريجياً على شكل مجموعات متعاقبة(٥٥).

وقد عدت قريش هجرة المسلمين الى ارض الحبشة تحدياً لها وخافت من النتائج التي قد تنشأ عنها ، فأرسلت عنها مبعوثين لإقناع النجاشي ، ملك الحبشة لإعادة المهاجرين اليها ؛ إلا ان النجاشي رفض الطلب فعاد المبعوثون الى مكة خائبين(٥٦).

وهكذا نلاحظ ان قريشاً كانت تضطهد المسلمين وتفتنهم عن دينهم حتى تضطرهم الى ترك الاهل والعشيرة والهجرة الى موطن آخر فراراً بدينهم ومن أجل الحصول على الامن والاطمئنان . ثم لا تلبث ان تقف في وجه هجرتهم وتحاول منعهم من اكمالها واستعادة من هاجر منهم الى موطنهم بالنظر لتخوفها من عواقب هذه الهجرة .

ويبدو ان قريشاً قد عدت هجرة المسلمين الى الحبشة خلافاً لرغبتها خروجاً منهم على إرادتها وإرادة عشائرهم ، وبذلك يكونون قد خلعوا انفسهم منها وفقدوا حقهم في حمايتها . لذا فإنه حين عاد عدد من المهاجرين الى مكة بعد أن بلغهم خطأً ان قريشاً قد اسلمت « تخوفوا أن يدخلوا مكة بغير جوار ، فمكثوا على ذلك حتى دخل كل رجل منهم بجوار من بعض اهل مكة »(٥٧) .

وقد حاولت قريش التعويض عن خيبتها في استرجاع المهاجرين من الحبشة ، فأتجهت الى بني هاشم طالبة منهم تسليمها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ لفتنته عن دينه او قتله ، إلا ان بني هاشم رفضوا ذلك وأصروا على

---

(٥٥) المصدر نفسه ، ص ٢١٣ــ٢٢٨ ، وللمزيد من التفاصيل يراجع : وات ، محمد في مكة ، ص ١٧٨ــ١٨٢ ، العلي ، د. صالح ، محاضرات في تاريخ العرب ، بغداد ١٩٥٥ ، ص ٣٢٠ــ٣٢٣ ، الملاح ، د. هاشم ، الوسيط في السيرة ، ص ١٤٤ــ١٤٦ .

(٥٦) ابن أسحاق ، كتاب المغازي ، ص ٢١٣ــ٢١٤ .

(٥٧) المصدر نفسه ، ١٧٨ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

موقفهم في حماية الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ والدفاع عنه ، فقررت قريش مقاطعة بني هاشم وبني المطلب مقاطعة اقتصادية واجتماعية ... وقد استمرت المقاطعة ثلاث سنوات « من سنة ٧ــ١٠ من البعثة » عانى فيها الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ وقومه مسلمهم وكافرهم معاناة شديدة(٥٨).

وبعد انتهاء المقاطعة بقليل توفي أبو طالب ، فانتقلت زعامة بني هاشم الى أبي لهب الذي كان شديد العداء للرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ودعوته . ومن ثم فقد استطاع ان يقنع عشيرته بالتخلي عن حمايتها للرسول عليه السلام(٥٩) . وهكذا اخذ الرسول يتعرض لانواع الاذى والاضطهاد الذي كان يتعرض له بقية المسلمين . لذا اخذ يفكر جدياً في البحث لنفسه عن حماية وملجأ آمن(٦٠).

خروج الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ الى الطائف :ــ

لقد كانت الطائف اقرب مدن الحجاز الى مكة من حيث الموقع الجغرافي ، كما كانت تربطها بأهل مكة روابط وثيقة . لذا فقد فكر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في الخروج اليها ومحاولة استمالة اهلها الى الاسلام . إلا ان سعيه في هذا المجال قد عاد عليه بعكس ما كان يأمل ، فكذبه اهل الطائف « وأغروا به سفهاءهم ، فجعلوا يرمونه بالحجارة ... فانصرف رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ من الطائف راجعاً الى مكة وهو محزون لم يستجب له رجل واحد ولا امرأة »(٦١).

---

(٥٨) ابن اسحاق ، كتاب المغازي والسير ، ص ١٥٤ــ١٧٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٠٨ــ٢١٠ ، وللمزيد من التفاصيل يراجع الملاح ، د. هاشم يحيى ، الوسيط ـ السيرة ، ص ١٥٠ــ١٦١ .

(٥٩) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢١١ .

(٦٠) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢١١ .

(٦١) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢١٢ ، راجع ايضا ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ٣٤٧ــ٣٤٨ .

وقد واجهته ــ عليه الصلاة والسلام ــ عند وصوله اطراف مكة مشكلة تأمين الحماية والامن له بعد ان فقد حماية عشيرته بسبب هجرته عن مكة • وقد اورد ابن سعد نصاً يوضح ابعاد هذه المشكلة وكيف تمكن الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ من حلها • يقول ابن سعد ان الرسول حينما وصل نخلة ، وهو موضع قريب من مكة ، اقام فيها اياماً « فقال له زيد بن حارثة ــ الذي صحبه الى الطائف ــ : كيف تدخل عليهم ، يعني قريشاً ، وهم اخرجوك ؟ ــ ربما بسبب تخلي عشيرته عن حمايته واضطهاد قريش له ، فقال : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ••• ثم انتهى الى حراء ، فارسل رجلا من خزاعة الى مطعم بن عدي : أدخل في جوارك ؟ فقال : نعم ، ودعا بنيه وقومه فقال : تلبسوا السلاح وكونوا عند اركان البيت فاني قد اجرت محمداً ، فدخل رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى الى المسجد الحرام ، فقام مطعم بن عدي على راحلته فنادى : يا معشر قريش إني قد أجرت محمداً فلا يَهْجِه احد منكم •• »[٦٢]•

يبدو مما تقدم ان مركز الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ في مكة ، قد غدا بعد عودته من الطائف أضعف مما كان في السابق ، لانه فقد حماية عشيرته واصبح يعيش في حماية رجل من عشيرة اخرى ، فكأنه اصبح حليفاً بعد ان كان ابن عشيرة صميم • فلا عجب ان يضاعف جهوده بحثاً عن الحماية والنصرة في خارج مكة •

وهنا قد يتبادر الى الذهن تساؤل : لماذا لم يهاجر الى الحبشة أُسوة بأصحابه ؟•• إن استقراء ما ورد في القرآن الكريم من آيات وما ورد في كتب السيرة من اخبار يوصلنا الى ان الدعوة الاسلامية قد جاءت الى قوم الرسول خاصة ، من قريش والعرب ، والى الناس عامة[٦٢] ، ومن ثم ، فإن هجرة

(٦٢) القرآن الكريم ، الشعراء : ٢١٤ ، الزخرف : ٤٤ ، الانعام : ٩٢ ، الشورى : ٧ ، الشعراء : ١٩٥ ، مريم : ٩٧ ، هود : ١١٤ ، الانعام : ٩٠ ، التكوير : ٢٧ ؛ ويراجع ايضا : ابن اسحاق ، كتاب المغازي ، ص ١٤٥ــ ١٤٦ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ١٩٩ــ٢٠٠ •

الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ الى الحبشة قد تقطع صلته بقاعدة الدعوة الرئيسة ، وهي شبه جزيرة العرب ، وهذا يناقض الهدف المركزي للدعوة •

وفضلا عما تقدم ، فإن الهجرة الى الحبشة لم تؤد الى انتشار الاسلام في تلك البلاد على الرغم من مضي خمس سنوات على بدءها ، واقتصر اثرها على توفير الامن والحماية للمهاجرين •

ويلاحظ انه كان من عادة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان يستغل قدوم ابناء القبائل العربية الى اسواق مكة في مواسم الحج فـ « يدعوهم الى ان يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة فلا يجد احداً ينصره ولا يجيبه •• » ، وكان مما يمنع العرب من الاستجابة لدعوة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن عمه أبا لهب كان يتبعه ويحذر العرب منه ، فيقول لهم : « لا تطيعوه فانه صابىء كاذب » ، فيقوه له العرب عند ذلك : « أسرتك وعشيرتك اعلم بك حيث لم يتبعوك »[٦٣]•

وقد استمر الرسول في دعوة الناس الى الاسلام حتى لقي نفراً من اهل يثرب وجد لديهم استعداداً للاصغاء له وقبول دعوته ••[٦٤] وهكذا بدأ الاسلام في الانتشار في هذه المدينة المهمة ، واخذ الرسول ـ عليه السلام ـ في توثيق صلاته مع من اسلم من اهلها من خلال ما عرف ببيعة العقبة الاولى والثانية تمهيداً للهجرة اليها واتخاذها قاعدة للدعوة • فما تفاصيل ذلك ؟

مبايعة اهل المدينة للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الهجرة :ـ

اجتمع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عند العقبة بثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من مسلمي اهل المدينة بحسب رواية ابن اسحاق ، بسرية تامة ، وكان ذلك في موسم الحج في سنة ١٢ من البعثة الموافقة سنة ٦٢٢م • وقد

---

(٦٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢١٦ .
(٦٤) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢١٧ــ٢١٨ .

عُرف الاتفاق الذي تم بين الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبين من حضر عند العقبة بـ « بيعة العقبة الثانية »(٦٥).

وقد تضمن هذا الاتفاق ان يهاجر الرسول واصحابه الى المدينة مقابل تعهد اهل المدينة بحمايتهم والدفاع عنهم بعد وصولهم اليها(٦٦).

ويفهم من مضمون الحوار الذي دار بينه وبين اهل المدينة انه سيصبح بعد هجرته من مكة الى المدينة واحداً من اهلها ، له ما لهم ، وعليه ما عليهم ، او على حد قوله لهم : « أنا منكم وأنتم مني ، أُحارب من حاربتم ، واسالم من سالمتم »(٦٧).

ويبدو ان اهل المدينة الذين حضروا هذا الاجتماع كانوا يدركون ان مبايعتهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الهجرة الى مدينتهم على الرغم من إرادة قومه قد تؤدي الى نشوب حرب بينهم وبين قومه من قريش او بينهم وبين حلفائهم من اليهود ... ومع ذلك فإنهم لم يترددوا عن مبايعته وأعلنوا استعدادهم لتحمل كل النتائج التي تنشأ عن ذلك . لذا فقد عُرفت هذه البيعة بـ « بيعة الحرب »(٦٨).

ويظهر من مضمون بيعة العقبة الثانية والطريقة التي تصرف بها الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد البيعة ان المسلمين من أهل المدينة كانوا قد سلموا قيادتهم له ، لذا فانه قام بتعيين إثنى عشر نقيباً عليهم « ليكونوا على قومهم بما فيهم »(٦٩).

---

(٦٥) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ق١ ، ص ٤٤١ ، وللمزيد من التفاصيل يراجع : الملاح ، د. هاشم ، الوسيط في السيرة ، ص ١٧٧–١٨٢ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤٢ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ٣٦٦ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤٢ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤٢ . ٤٤٦–٤٤٨ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤٣ .

لقد اوردت المصادر ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ قد حضر اجتماع العقبة بصحبة عمه العباس بن عبدالمطلب[٧٠] ، « وهو يومئذ على دين قومه ، إلا انه احب ان يحضر امر ابن اخيه ويتوثق له »[٧١] . وقد تحدث العباس في بداية الاجتماع مخاطباً اهل المدينة قائلا ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ هو « في عز من قومه ومنعة في بلده . وانه قد ابى إلا الانحياز اليكم واللحوق بكم فإن كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك .. »[٧٢].

إن مضمون هذا النص يتعارض مع سياق الاحداث وموقف بني هاشم من الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ بعد خروجه الى الطائف ، وذلك لان رئاسة عشيرة بني هاشم قد انتقلت بعد وفاة أبي طالب الى ابي لهب الذي اتخذ موقفاً مناوئاً من الرسول ــ عليه السلام ــ وتخلى عن حمايته ، ولم ينقل لنا اي خبر يشير الى معارضة افراد عشيرته له في هذا المجال . كما ان الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ حينما عاد من الطائف لم يستطع دخول مكة في حماية عشيرته وإنما دخلها في حماية وجوار مطعم ابن عدي سيد عشيرة نوفل بن عبد مناف . ومن ثم فإن العباس لم يكن في مركز يسمح له بالتحدث امام الانصار بمثل الحديث الذي نسب اليه .

إن ما تقدم يحملنا على التردد في قبول هذا الخبر ولاسيما ان العباس كان حينذاك على دين قومه « مشركاً » وانه قد اسهم معهم في قتال المسلمين في معركة بدر ، وقد اخذه المسلمون اسيراً في هذه المعركة ولم يوافق الرسول

---

(٧٠) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤١ ، الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢ ، ص ٣٦٢ ؛ ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٢١ــ٢٢٢ ، البلاذري ، انساب الاشراف ، ج١ ، ص ٢٥٤ .

(٧١) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٤١ .

(٧٢) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤١ــ٤٤٢ .

ـ صلى الله عليه وسلم ـ على إطلاق سراحه إلا لقاء فدية مناسبة من المال[٧٣].
لذا ، فان من المحتمل ان يكون هذا الخبر قد وضع من قبل انصار العباسيين لتحسين صورة العباس في نظر الناس بسبب انتساب خلفاء بني العباس اليه[٧٤].

أما في حالة صحة هذا الخبر ـ وهو ليس امراً مستحيلا ـ فربما كان سببه ان العباس لم يكن يشارك اخاه ابا لهب رأيه ، وقد دفعته العصبية لان يقف الى جانب ابن اخيه وهو يستعد للهجرة من اجل تقوية مركزه امام اهل المدينة وكي لا يظهر بمظهر المنقطع الذي لا اهل له ولا عشيرة تحميه وتدافع عنه .

الهجرة الى المدينة :ـ

حينما تسرب خبر بيعة العقبة الثانية الى مشركي مكة قام وفد منهم بزيارة أهل المدينة الذين كانوا في مكة لاداء مناسك الحج ، فقالوا لهم : « إنه قد بلغنا أنكم جئتم الى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا ، وتبايعونه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا ان تنشب الحرب بيننا وبينهم ، منكم ... » فانبعث من هناك من مشركي ـ اهل المدينة ـ ، يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علموه كان ، وكانوا صادقين لانهم لم يحضروا بيعة العقبة ولم يعلموا بخبرها[٧٥].

ولم يكن امام ملأ مكة ما يستطيعون فعله لمعاقبة اهل المدينة بعد ان تأكد لهم خبر مبايعتهم للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ سوى إلقاء القبض على أحد النقباء ، وهو سعد بن معاذ وضربه .. ثم لم يلبثوا ان اطلقوا سراحه بعد

(٧٣) ابن سعد ، الطبقات ، ج٤ ، ص ١٣ـ١٦ ، الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٤٦٥ـ٤٦٦ .

(٧٤) وات ، محمد في مكة ، ص ٢٣٢ـ٢٣٣ .

(٧٥) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٤٨ .

ان تذكروا مدى حاجتهم الى اهل المدينة لحماية قوافلهم التجارية التي تمر بالمدينة متجهة الى الشام او عائدة منها[٧٦].

وقد حاولت قريش فتنة المسلمين في مكة كما فتنتهم قبل هجرتهم الى الحبشة ، فقد اورد الطبري رواية عن عروة ابن الزبير جاء فيها انه بعد بيعة العقبة الثانية قررت قريش اضطهاد المسلمين وفتنتهم عن دينهم « فأخذوهم وحرصوا على ان يفتنوهم ، فاصابهم جهد شديد ، وكانت الفتنة الآخرة »[٧٧]. ولم تقدم لنا هذه الرواية تفصيلات عن المسلمين الذين تعرضوا لهذه الفتنة ولم تشر الى الاساليب التي اتبعها المشركون ضدهم ، غير ان ابن سعد يورد رواية عن عروة بن الزبير ايضا تشير الى ان المشركين حين علموا بعزم المسلمين على الهجرة ، ضيقوا عليهم « ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والاذى ، فشكا ذلك اصحاب رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ واستأذنوه في الهجرة .. »[٧٨].

إن ما تقدم يشير الى ان « الفتنة الثانية » كانت فتنة خفيفة بالقياس الى الفتنة الاولى ، ولم تكن هي السبب المباشر لهجرة المسلمين الى المدينة ، وإنما كان سبب الهجرة هو تطلعهم الى العيش في المدينة في امان وعز بعد انتشار الاسلام فيها[٧٩].

وهكذا فقد امر الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اصحابه بالهجرة الى المدينة لان الله قد جعل لهم فيها إخواناً وداراً يأمنون فيها « فخرجوا ارسالا »[٨٠] ، اي جماعة في إثر جماعة ، وقد حرصوا على ان يخفوا امر خروجهم عن انظار المشركين[٨١].

---

(٧٦) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٤٩ــ٤٥٠ .
(٧٧) الطبري ، تاريخ ، ج٢ ، ص ٣٦٦ .
(٧٨) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٢٦ .
(٧٩) وات ، محمد في مكة ، ص ٢٣٠ــ٢٣١ ، ٢٣٥ .
(٨٠) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٦٨ .
(٨١) ابن سعد ، الطبقات ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

وقد نجح غالبية المسلمين في مغادرة مكة بسلام إما بسبب نجاحهم في إخفاء امر هجرتهم عن قومهم ، او بسبب عدم حرص عشائرهم على بقائهم في مكة لانهم كانوا قد تخلوا عنها منذ ان هاجروا الى الحبشة ثم عادوا الى مكة مؤقتاً قبل هجرتهم النهائية للمدينة . غير ان عدداً من المسلمين لم يستطيعوا الهجرة إما بسبب حبس عشائرهم لهم او بسبب ضعفهم او عجزهم عن الهجرة . يقول ابن سعد انه قد عاد الى مكة من الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلا وثماني نسوة بعد سماعهم ببيعة العقبة الثانية لغرض الهجرة معه الى المدينة « فمات منهم رجلان بمكة ، وحبس بمكة سبعة نفر ، وشهد بدراً منهم اربعة وعشرون »[٨٢]. ويظهر ان عدد الذين عجزوا عن الهجرة الى المدينة لم يقتصر على هؤلاء السبعة فقط ، بل انه شمل اخرين لان ابن سعد يشير الى ثلاث فئات تخلفوا عن الهجرة وهم على حد قوله : « مفتون محبوس ، او مريض ، او ضعيف عن الخروج »[٨٣].

ويبدو ان القرآن الكريم قد ادان موقف الفئة الاخيرة وعدّ عدم خروجهم من مكة بحجة أنهم كانوا مستضعفين في الارض مجرد ذريعة لإخفاء ضعف إيمانهم فقال : إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيراً * إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُولَئِكَ عَسَى اللهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً * »[٨٤].

---

(٨٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٠٦ .

(٨٣) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٢٢٦ .

(٨٤) القرآن الكريم ، سورة النساء : ٩٧-٩٩ .

ولم تقدم لنا المصادر معلومات كافية تساعدنا على تقدير عدد المسلمين الذين تخلفوا عن الهجرة من كل فئة من الفئات الثلاث ، إلا أن إشارة القرآن الكريم اليهم تدل على ان عددهم لم يكن قليلا . وقد بلغ عدد المسلمين الذين هاجروا الى المدينة في هذه المرحلة حوالي سبعين مسلماً[٨٥] . واستمر واجب الهجرة مفروضاً على المسلمين حتى فتح مكة في سنة ٨ من الهجرة / ٦٣٠م .

مكث الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في مكة بعد بيعة العقبة الثانية بقية ذي الحجة وشهري محرم وصفر ، تمت خلالها هجرة جميع اصحابه الى المدينة عدا من حبس او افتتن او تخلف لسبب من الاسباب ، ولم يبق معه في مكة سوى علي بن ابي طالب وابي بكر الصديق بناءً على طلبه .

وقد ادرك زعماء المشركين في مكة خلال هذه المدة مخاطر هجرة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ واصحابه على مصالحهم ، فاجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيما يجب عليهم عمله لمواجهة الموقف . وقد وصف ابن اسحاق ذلك بقوله : « لما رأت قريش ان رسول لله ـ عليه السلام ـ قد صارت له شيعة واصحاب من غير بلدهم ، ورأوا خروج اصحابه من المهاجرين اليهم ، عرفوا انهم قد نزلوا داراً ، واصابوا منهم منعة ، فحذروا خروج رسول الله اليهم ، وعرفوا ـ انه ـ قد اجمع لحربهم ، فاجتمعوا له في دار الندوة ... يتشاورون فيها ما يصنعون في امر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم حين خافوه »[٨٦].

وقد اشير الى انه حضر اجتماع الندوة عدد من زعماء قريش الذين يمثلون عشائر نوفل وعبد شمس وعبدالدار واسد ومخزوم وسهم وجمع . ويلاحظ ان هذه العشائر كانت قد اتخذت موقفاً مناوئاً للعشائر المكية التي

---

(٨٥) المنذري ، الحافظ زكي الدين عبدالعظيم ، مختصر صحيح مسلم تحقيق محمد ناصر الالباني ، الكويت ، ص ٨٣ .

(٨٦) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٨٠ .

(٨٦) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٨٠ .

اسهمت في حلف الفضول والتي كانت بضمنها عشيرة الرسول ـ عليه السلام ـ فلا عجب ان تعمل على اتخاذ موقف شديد من رسول الله[٨٧].

لقد ذكر ابن اسحاق ان زعماء المشركين تداولوا في حبس الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ او نفيه خارج مكة ، او قتله ، وقد اتفق رأي المجتمعين على قتله استناداً الى خطة قدمها ابو جهل المخزومي . وهي حسب قوله : « تأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا ، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا اليه ، فيضربوه بها ضربة رجل واحد ، فيقتلوه »[٨٨] ، وبذلك يتفرق دمه في العشائر جميعا ، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم فيرضون بأخذ الدية[٨٩].

ويبدو أنه قد تغيب عن حضور هذا الاجتماع ممثلو عشائر بني هاشم ، وبني عدي ، وبني تميم ، وبني زهرة[٩٠] ، مما يدل على انهم لم يكونوا موافقين على سياسة الملأ تجاه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبذلك تعذر حصول الاجماع الذي كان ضرورياً لتنفيذ مثل هذا القرار الخطير . وربما كان ذلك هو سر عدم إقدام زعماء المشركين على محاولة قتل الرسول ـ عليه السلام ـ وهو في مكة . ومن ثم فقد انتظروا حتى قام نفسه بصحبة ابي بكر الصديق بمغادرة مكة مهاجراً فجدوا في البحث عنهما من اجل قتلهما في الطريق بعد ان فقدوا الحماية العشائرية بهجرتهما عن مكة ، وقبل ان يدخلا في حماية اهل المدينة بمجرد وصولهما اليهم[٩١].

وقد تمكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مغادرة مكة بصحبة ابي بكر الصديق بسرية تامة ، ولم تفلح قريش في العثور عليهما في الطريق

---

(٨٧) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٨١ ، وات ، محمد في مكة ، ص ٢٣٦ـ٢٣٧ .
(٨٨) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٨٢ .
(٨٩) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٨٢ ، القرآن الكريم ، سورة الانفال : ٣٠ .
(٩٠) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٤٨١ .
(٩١) وات ، محمد في مكة ، ص ٢٣٧ .

حتى وصلا الى المدينة في سلام في ١٢ ربيع الاول من عام ١٣ من البعثة المصادف ٢٤ أيلول سنة ٦٢٢م بعد رحلة شاقة استغرقت ثمانية ايام(٩٢).

هل كانت الهجرة خروجا او إخراجا ؟ :-

يبدو من سياق الاحداث التاريخية ان هجرة المسلمين الى الحبشة او المدينة كانت في الظاهر خروجاً طوعياً من مكة بحثاً عن ملاذ آمن ولم تكن إخراجاً قسرياً ينفي حريتهم نفياً كاملا في إرادة الفعل . وقد استخدم القرآن الكريم مصطلح « الهجرة » في وصف هذا الفعل في حوالي ٢٤ آية من آياته(٩٣).

غير أن القرآن الكريم قد اوضح في آيات عدة ، أن هجرة المسلمين من مكة لم تكن في الحقيقة هجرة طوعية تمت بمحض إرادتهم واختيارهم ، بل إنهم هاجروا بعد ما ظلموا ، او فتنوا في دينهم . قال تعالى : « وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا ... »(٩٤) ، وقال : « ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ... »(٩٥).

فهجرة المسلمين من مكة لم تكن إذاً هجرة طوعية فيها إخلال بالتزاماتهم تجاه قومهم وموطنهم ، وإنما هي هجرة قسرية دفعهم إليها قومهم دفعاً بعد أن تخلوا عن واجباتهم في حمايتهم والدفاع عنهم ، وفضلا عن ذلك ، فقد قاموا بظلمهم وفتنتهم عن دينهم .

لقد وصف القرآن الكريم هجرة المسلمين عن موطنهم مكة بانها كانت

---

(٩٢) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٨٧ ، ٤٩١-٤٩٢ ، ابن سعد ، الطبقات، ج١ ، ص ٢٣٢-٢٣٣ ، وات ، محمد في مكة ، ص ٢٣٨ .

(٩٣) عبدالباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، مصر ١٣٧٨هـ ، ص ٧٣٠-٧٣١ .

(٩٤) القرآن الكريم ، النحل : ٤١ .

(٩٥) القرآن الكريم ، النحل : ١١٠ .

« إخراجاً » في حوالي ١٧ آية[٩٦] ، نحو قوله تعالى : « الَّذين أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلاَّ أنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ »[٩٧] ، « إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا »[٩٨] « وَإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذين كفروا لِيُثْبِتُوكَ أوْ يَقْتُلُوكَ أوْ يُخْرِجُوكَ .. »[٩٩] ، « فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ .. »[١٠٠].

لقد أوضح القرطبي في تفسير هذه الآيات ان هجرة المسلمين عن مكة قد تمت بالاكراه نتيجة لما تعرض له المسلمون من الاضطهاد والفتنة في الدين على ايدي المشركين ، فنسب سبب الهجرة او الخروج اليهم لانهم الجئوا المسلمين على ذلك الفعل[١٠١] . يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى : « إذْ أخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا .. » : « وهو خرج بنفسه فاراً ، لكن بالجائهم الى ذلك حتى فعله ، فنسب الفعل اليهم ، ورتب الحكم فيه عليهم ، فلهذا يُقتل المُكْرِهُ على القتل ، ويضمن المال المتلف بالإكراه لا لجائه القاتل والمتلف الى القتل والاتلاف »[١٠٢].

وقد ورد في كتب السنة النبوية أحاديث تصف هجرة المسلمين من مكة بالاخراج ، فقد روى ابن عباس ان الرسول — صلى الله عليه وسلم — قال مخاطباً مكة : « ما أطيبك من بلدٍ ، وأحبك إليَّ ، ولولا ان قومي اخرجوني

(٩٦) عبدالباقي ، محمد فؤاد ، المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم ، مصر ١٣٧٨هـ ، ص ٢٢٧—٢٣٠ .
(٩٧) القرآن الكريم ، الحج : ٤٠ .
(٩٨) القرآن الكريم ، التوبة : ٤٠ .
(٩٩) القرآن الكريم ، الانفال : ٣٠ .
(١٠٠) القرآن الكريم ، آل عمران : ١٩٥ .
(١٠١) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج٧ ، ص ٣٩٧ ، ج٨ ، ص ٨٦ ، ١٤٣ ، ج١٠ ، ص ٣٠١ ، ج١٢ ، ص ٦٩ ، ج١٨ ، ص ٦٠ .
(١٠٢) المصدر نفسه ، ج٨ ، ص ١٤٣ .

منك ما سكنت غيرك » أخرجه الترمذي[١٠٣] . وقد روى البخاري ان عـدداً من المهاجرين قد اصيبوا بالحمى بعيد هجرتهم الى المدينة ، وكان من ضمنهم ابو بكر الصديق وبلال الحبشي ، فكان بلال يدعو على المشركين الذين الجأوه للهجرة بقوله : « اللهم العن شيبة بن ربيعة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف ، كما اخرجونا من أرضنا الى ارض الوباء .. ــ فلما سمع الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ذلك قال : اللهم حبب الينا المدينة كحبنا مكة او اشد .. »[١٠٤].

ويلاحظ ان المسلمين قد عدوا اضطهاد المشركين لهم في مكة وفتنتهم عن دينهم إنتهاكاً لحرمة هذه المدينة التي تقضي التقاليد العربية بان ينعم كل من يعيش فيها او يدخل اليها بالامن والسلام ، بل إن حرمة مكة قد شملت حتى الحيوان والنبات ، فلا يجوز صيد حيواناتها ولا قطع نباتاتها[١٠٥] . وقد اكد القرآن الكريم حرمة مكة في آيات عدة نحو قوله تعالى : « وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً .. »[١٠٦] ، « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً .. »[١٠٧] « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سبيل الله وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ »[١٠٨].

في ضوء ما تقدم ، فقد عد القرآن ما قام به المشركون تجاه المسلمين في مكة ظلماً ، وعدواناً ، ومن ثم ، فقد سمح لهم ، ربما وهم يهاجرون من مكة

(١٠٣) الشيباني ، ابن ابي الربيع عبدالرحمن بن علي ، تيسير الوصول الى جامع الاصول من حديث الرسول ، مصر ١٩٣٤م ، ج٣ ، ص ٢٧٨ .
(١٠٤) ابن المبارك ، زين الدين أحمد ، التجريد الصريح لاحاديث الجامع الصحيح ، بيروت (دار الارشاد) بلا تاريخ ، ج١ ص ١٢٠-١٢١ .
(١٠٥) العلي ، د. صالح احمد ، محاضرات في تاريخ العرب ، ص ١٧٣ .
(١٠٦) القرآن الكريم ، البقرة : ١٢٥ .
(١٠٧) القرآن الكريم ، القصص : ٥٧ .
(١٠٨) القرآن الكريم ، الحج : ٢٥ .

الى المدينة بأن يقاتلوا مشركي مكة[109] ، « فكانت اول آية نزلت في إذنه ـ للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم »[110] كما يذكر ابن اسحاق ، قوله تعالى : « أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الذينَ أُخْرِجوا من ديارهم بِغَيرِ حَقٍّ إلاَّ أن يقولوا ربنا الله ولولا دَفْعُ الله النَّاس بَعْضَهُم ببعض لَهُدِمَتْ صَوَامِعُ وبِيَعٌ وصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فيها اسم الله كثيراً ولَيَنصُرَنَّ الله مَنْ ينصُره إنَّ الله لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ »[111].

وعلى الرغم مما تقدم ، فإن المسلمين الذين هاجروا لم يتخلوا عن انتسابهم الى قومهم من قريش ، وتعاملوا مع اهل المدينة بصفتهم « مهاجرين من قريش » كما هو واضح من نصوص الصحيفة[112] ، مما يدل على انهم كانوا ينظرون الى الهجرة بصفتها قطيعة مؤقتة وليست باتة ، فرضها عليهم مشركو قومهم بسبب اضطهادهم لهم وفتنتهم عن دينهم ، وان هذه القطيعة لابد ان تزول بعد انتصار المسلمين على اعدائهم ، وهداية قومهم الى الاسلام.

وانسجاماً مع هذا المنظور للهجرة ، فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يرتض لنفسه ولا لاصحابه المهاجرين ان يعيشوا في حماية الاوس والخزرج وكأنهم حلفاء او موال لا عشائر لهم ، لان ذلك يحط من قدرهم ويجعل منزلتهم في المدينة دون منزلة اهلها . لذا فقد قام بالمؤاخاة بين المهاجرين والانصار ليؤكد مبدأ المساواة في الحقوق والواجبات بين الطرفين ،

(١٠٩) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج١٢ ، ص ٦٨ .
(١١٠) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٤٦٧ .
(١١١) القرآن الكريم ، الحج : ٣٩ـ٤٠ .
(١١٢) ابن هشام ، السيرة ، ق١ ، ص ٥٠١ .

ومن اجل تقوية روح التكافل والتعاون بينهما في إطار « الامة » الاسلامية الناشئة(١١٣)٠

إلا ان القرآن الكريم قد اعاد حق التوارث بين الاقارب احتراماً لرابطة النسب بعد ان تقدمت عليها مدة وجيزة رابطة العقيدة بموجب عقد المؤاخاة فنزل قوله تعالى في سورة الانفال آية ٧٥ « وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ » وكان ذلك بعد معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة ٠

ويلاحظ ان الهجرة الى المدينة لم تعد بعد هجرة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ اليها مسألة اختيارية يقررها المسلم الذي يتعرض للاضطهاد والاذى بمحض إرادته ، وإنما اصبحت واجباً شرعياً على كل مسلم قادر على الهجرة ، وذلك من اجل تمكين المسلمين من الحياة على وفق المنهج الاسلامي بعيداً عن اذى المشركين واستضعافهم ، ومن اجل التضامن مع بعضهم بعضا في الدفاع عن الاسلام ومحاربة الاعداء(١١٤)٠

وقد توعد القرآن الكريم المسلمين الذين يحجمون عن الهجرة بغير عذر مشروع ، بالعذاب الشديد يوم القيامة(١١٥) ، كما اكد انه ليس من حق المسلم ان يطلب من المسلمين في المدينة موالاته ونصرته مالم يهاجر الى المدينة(١١٦)٠

في ضوء ما تقدم ، فقد اتخذ المسلمون مدينة يثرب (دار هجرة) واخذوا يتوافدون اليها للعيش والاقامة الدائمة مع اخوانهم المسلمين فرادا وجماعات وكان المهاجرون من قريش هم اكثر المهاجرين عددا في المدينة ٠ ولم تزودنا المصادر بمعلومات مفصلة عن المهاجرين من ابناء القبائل الاخرى ٠ « ويبدو

---

(١١٣) المصدر نفسه ، ق١ ، ص ٥٠٤ ، للمزيد من التفاصيل يراجع كتابنا الوسيط في السيرة النبوية والخلافة الراشدة ، ص ١٩٥ــ١٩٩ .
(١١٤) القرطبي ، الجامع لاحكام القرآن ، ج٥ ، ص ٣٠٨ .
(١١٥) القرآن الكريم ، النساء : ٩٧ــ٩٩ .
(١١٦) القرآن الكريم ، النساء : ٨٩ ، الانفال : ٧٢ .

أن هجرة أهل الحجاز كانت في اوائل العهود فردية ، وقليل منها شملت عشائر، او مجموعات كثيرة العدد ، ثم تزايد عددها وخاصة بعد معركة الخندق ، غير انه يصعب تتبع خطوات نموها نظرا لقلة المعلومات عنها »(١١٧).

ويظهر مما اوردته المصادر ان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ اخذ يتسامح في مسألة اشتراط الهجرة الى المدينة منذ السنة الخامسة من الهجرة ولاسيما مع المجموعات القبلية الكبيرة ، لان من شأن هجرتها الى المدينة ان تخلق ازمة سكانية في المدينة ، وذلك لضيق مساحة المدينة وقلة موارده‍ا . وهكذا فقد اخذ الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بمبايعة القبائل العربية على الاسلام والنصرة والجهاد من غير اشتراط هجرتها الى المدينة وعدهم « مهاجرون حيث كانوا » . وعلى سبيل المثال فقد كتب كتاباً لقبيلة اسلم جاء فيه : « لأسلم من خزاعة : لمن آمن منهم ، واقام الصلاة ، وآتى الزكاة وناصح في دين الله ، ان لهم النصر على من دهمهم بظلم ، وعليهم نصر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا دعاهم ، ولاهل باديتهم ما لاهل حاضرتهم ، إنهم مهاجرون حيث كانوا »(١١٨).

وقد ذهب الاستاذ الدكتور صالح احمد العلي الى ان من « الراجح ان معظم القبائل التي اسلمت قبيل الفتح ابيح لها البقاء في ديارهم ، وبذلك اصبحت الهجرة صنفين : هجرة إقامة ، وهجرة رجعة وتسمى ايضا هجرة تالة ، وهجرة البادي ، وكانت هجرة البادي ان يرجع الى باديته ، وعليه الطاعة في عسره ويسره ، ومنشطه ومكرهه ، غير انه لم يستحب من المهاجر الى المدينة

---

(١١٧) العلي ، د. صالح أحمد ، الدولة في عهد الرسول ، ص ٢٨١ .

(١١٨) الحيدر آبادي ، محمد حميدالله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٩١–١٩٢ .

•• ان يعود الى البادية ، وقد اعتبر هؤلاء (المهاجرون الاولون) من صلى القبلتين ، وحضر بيعة الرضوان ، وفتح مكة »[119].

لقد كان فتح المسلمين لمكة في سنة ٨ من الهجرة نقطة التحول الكبرى في سياسة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ تجاه مسألة الهجرة ، فأعلن في يوم الفتح ان واجب الهجرة بمعناه الاصطلاحي قد توقف ، وانه سيستمر بمعناه الروحي والجهادي فقال : « لا هجرة بعد الفتح ، ولكن جهاد ونية ، واذا استنفرتم فانفروا » ، أخرجه الخمسة الا الترمذي[120].

---

(١١٩) العلي ، الدولة في عهد الرسول ، ص ٢٩٩ .

(١٢٠) ابن ابي الربيع الشيباني ، تيسير الوصول الى جامع الاصول من احاديث الرسول ، ج٣ ، ص ٢٧٨ ، راجع ايضا ج٤ ، ص ٢٥٣ .

العلـم والدراسات الانسانية*

ا.د. علي محمد الميـاح
عضو شرف/المجمع العلمي

الملخـص

يتناول البحث مفاهيم العلم وأبعاده وتكامله . وينصّ على ان تقسيم العلم الى فروع عبارة عن شيء اصطلاحي اقتضته ضرورات تقسيم العمل . وان وحدة العلم تتحقق بطريقته لا ، بمادته ، ولا يخرج تعريفه حالياً عمّا ذكره الجرجاني : من ان العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع . لذا فان ميدان العلم لا حدود له ويشمل كل ظواهر البيئة ، وكل جانب من جوانب الحياة الاجتماعية ، وكل مرحلة تطور في الماضي والحاضر . وقد استخدم علماء العرب منذ قرون خلت طرق البحث العلمي والتحليل الرياضي لحلّ مشاكل في اللغة والشعر والجغرافيا وعلم الفلك وغير ذلك من حقول المعرفة . وتستخدم طرق البحث العلمي في يومنا هذا لدراسة مشاكل الاجتماع والاقتصاد وعلم النفس والتاريخ وغيرها من فروع المعرفة الانسانية .

---

* محاضرة القيت في المجمع العلمي يوم الاثنين ١٩٩٩/٢/١م (دائرة التراث العربي والاسلامي) .

توطئة

يعرض هذا البحث تجربة يقدم من خلالها فلسفة العلوم ضمن سياقات فلسفية واسعة ، محاولا ان يبين فيها مشاكل تبدو خاصة بالعلم ، بينما هي في واقع الامر نوع من قضايا فلسفية ذات مجال اوسع . ان فلسفة العلوم بهذا المعنى تناقش مكانة الجهود العلمية في انماط الحياة وأشكالها . وهو امر لابد لطالب العلم من الاحاطة به حتى تكتمل جوانب معارفه العلمية . اذ يبدو التناقض واضحاً بين عالم متميز يحتل مكانة علمية مرموقة في حقل تخصصه ، وبين عدم وضوح افكاره النظرية التي يستخدمها ، او منطق البحث الذي يزاوله . فقد يفتقر أمثال هذا الى معرفة كنه العمل العلمي لانهم أعِدّوا لمهنة البحث على وفق عادات ممارسة متكررة اكثر من تعلمهم اصول البحث من خلال دستور منظم القواعد . ويمكن ان تظهر صحة هذا القول من نصيحة (أنشتاين) حيث قال : (اذا أراد احد ان يتعلم ما هي طرق الفيزياء النظرية المستخدمة فعليه ان لا يصغي الى كلمات الباحثين وانما عليه ان يركز عنايته على أفعالهم)[1] ، ان لغة الفيزياء النظرية لغة مجردة ومع ذلك فانها استعارت مصطلحات الكلام اليومية حتى بعد أن أخذت هذه معاني تقنية جديدة . فان كلمات مثل : (السبب والقوة والطاقة والكتلة) قد استخدمت منذ قرون في سياق السلوك الانساني . ومع انها اصبحت ترد اليوم في مضمون النظريات الفيزياوية فأن كثيراً من العلماء مازال يحتفظ بدلالتها الانسانية الاصلية . وقد

---

1) **Karl Pearson, The Grammar of Science, Meridian Books, Inc., U.S.A., 1957, P.V.**

ترتب على ذلك انهم غالباً ما يفسرون نظرياتهم تفسيراً يضلل غير المحترفين من الناس ويعيق إعاقة جدية مسيرة التقدم الفكري .[٢]

من هذا يتضح ان العلم علمان : نظري وعملي ولكل منهما من الاهمية ما للاخر ، فالعلم العملي لابد ان تسبقه معرفة نظرية .[٣] والعلم كل متكامل ، اما العلوم فكلمة تعني مركباً من الحقائق والفروض يكون فيه العنصر النظري عادة قابلا للاثبات . وفي نطاق هذا المفهوم تشمل هذه الكلمة الحقائق والظواهر الاجتماعية .[٤] ويفهم من هذا التعريف ان تقسيم العلم الى فروع هو شيء اصطلاحي اقتضته ضرورات تقسيم العمل وحدث نتيجة مصادفة تاريخية . فأي خط من خطوط البحث يقود الى خط جديد . وهذا بدوره يحال الى ذلك الفرع من العلم الذي تولى دراسته اول مرة من دون ان تكون لمثل هذه الاحالة قاعدة شكلية تبرر ذلك . وهكذا تشعبت فروع العلم واتخذت لها تسميات مختلفة . ولكن على الرغم من اختلاف مادة موضوعاتها فان اهداف العلم ومنهجيته توحّد بينها وتجعل كل فرع يرفد الاخر ويستمد منه تطوره وتقدمه لبلوغ غاية العلم في الابتكار والابداع وحسن التقدير .

ويبدو من هذا القول ان التأكيد ينصب على طريقة البحث العلمي ومنهجيته على حساب مادته . وهنا تبرز غرابة الطريقة العلمية اذ عندما تصبح هذه عادة للعقل ، فان العلم يحول جميع الحقائق أياً كانت الى مادة علمية . فميدان العلم ليست له حدود ولا توجد نهاية لمادته ، كل مجموعة من الظواهر الطبيعية ، كل مرحلة من مراحل الحياة الاجتماعية ، كل طور من الماضي او

---

(٢) Ibid., P. Vi

(٣) Norman Campbell, What is Science, Dover Publications ، Inc., New York. 1952, P.9.

(٤) Ibid., P. 53

الحاضر مادة للعلم • ان وحدة جميع العلوم تتحقق بطريقته فقط لا بمادته •[٥]
فالتقنية ، فضلا عن كونها علماً وممارسة وخبرة وفناً فهي بالمقام الاول عقلية وعلاقات ، عقلية الفرد وعقلية المجتمع ، وعلاقات موضوعها الفرد والمجتمع وهي فضلا عن ذلك مفاهيم وطموحات جديدة •[٦]

ان هذا الحديث الموجز ينقلنا الى بداية جديدة تحتمها ضرورات البحث ومتطلبات الدراسة ، تتصل بمعنى العلم ودلالته •

العلم دلالته ومعناه

العلم والمعرفة كلمتان مترادفتان في معناهما ودلالتهما وما خرج على العلم ليس من المعرفة • وقد سبق العرب غيرهم من الناس في هذا المضمار • كيف لا وقد نصّ القرآن المجيد في محكم آياته على ذكر العلم ثمانين مرة • قال سبحانه وتعالى : « نَرْفَعُ درجات مَنْ نشاءُ وفوقَ كلِ ذي عِلْمٍ عليم »[٧] وقال عزّ من قائل « وقُلْ رَبِّ زِدني عِلماً »[٨] • والحكمة تعني الكلام الموافق للحق وصواب الامر وسداده ، العدل والعلم • والحكيم هو صاحب الحكمة ، اي العالم • وقد ورد ذكر الحكمة في القرآن الكريم في سبع وتسعين آية • قال تعالى : « ولقد آتينا لقمان الحِكمَةَ ان اشكر لله »[٩] • وقد جعل الرسول الكريم ــ صلى الله عليه وسلم ــ العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة • وحثهم على طلبه من المهد الى اللحد • فلا غرو ان تدافع العرب الى طلب العلم والتزوّد منه حتى أصبح ثراء العربي يقاس بسعة خزانة كتبه ومقدار ما فيها من كتب ومجلدات • يقول الجرجاني : ان العلم هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع • وقيل هو ادراك الشيء على ما هو

(٥) Karl Pearson, Grammar of Science, OP.Cit., P. 12

(٦) عدنان بدران ، العلم والتكنولوجيا في الوطن العربي ، اتحاد مجالس البحث العلمي العربية ، مطبعة عصام بغداد ، ١٩٨٢ ، ص ٢٠ .

(٧) سورة يوسف : ٧٦ .

(٨) سورة طه : ١١٤ .

(٩) سورة لقمان : ١٢ .

به وقيل زوال الخفاء عن المعلوم .[10] والتعريف الاول يتفق وطبيعة العلم ، فالاعتقاد الجازم معناه مجموعة القضايا التي تتميز بانها اكيدة . ولم يترك التعريف ضرورة تحديد الاعتقاد الجازم بالموضوع فقال بانه المطابق للواقع . وبذلك وضع التعريف معيار المطابقة موضعاً اساسياً من العلم .[11] ومن التعاريف المعاصرة قولهم ان العلم يدرس علاقات معينة بين احداث خاصة . وهذه العلاقة غالباً ما تسمى سبباً وتتيجة ، كقولنا ان الحديد يصدأ اذا تعرض لهواء رطب .[12] ويذهب آخر الى ان العلم يُعنى قطعاً باختبار العلاقة المتبادلة بين موضوعات محددة ، محاولا فهم علاقاتها الفعلية حسبما تقتضيه الضرورة المنطقية والرياضية .[13] ويعرّف خبراء اليونسكو بشيء من التفصيل العلم على النحو الاتي :

« تعني كلمة العلم الجهد الذي يقوم به البشر أفراداً أو جماعات صغيرة أو كبيرة ، بمحاولة منظمة عن طريق الدراسة الموضوعية لظواهر لاحظوها لاكتشاف سلسلة الاسباب والمسببات التي تتحكم فيها ، ويجمعون ما ينتج عن ذلك من نظم فرعية للمعرفة بصورة منسّقة من خلال تفكير وتصور منهجيين يعبرون عنهما عادة برموز رياضية ، مهيئين لانفسهم بذلك فرصة استغلال فهمهم للعمليات والظواهر التي تجري في الطبيعة والمجتمع لمنفعتهم وصالحهم » .[14]

---

(١٠) علي بن محمد الشريف الجرجاني ، (ت/٨١٦هـ) التعريفات ، مكتبة لبنان ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٤١ .

(١١) ياسين خليل ، منطق البحث العلمي ، مطبعة دار الكتب ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ٣٣٣ .

(١٢) **Norman Campbell, What is Science, OP. Cit., P. 39.**

(١٣) **Alfred Stern, "Science And The Philosopher, American Scientist, Vol. 44, 1956, PP. 285-86.**

(١٤) منظمة الامم المتحدة للتربية والثقافة والعلوم ، المؤتمر العام ، الدورة الثامنة عشرة ، باريس ، ٢٠ تشرين الثاني ، ١٩٧٤ .

ان الحديث عن تعريف العلم ومضمونه يقودنا الى خطوة ضرورية اخرى تتعلق بماهيّة القوانين العلمية التي تكوّن اللبنات الاساسية في بناء العلم وتركيبه. ويذكر (پيرسون) بان القانون العلمي عبارة عن مجمل او تعبير لعلاقات ونتائج مجموعات معينة من الادراك والتصور ولا يتحقق هذا الا عندما يعمل الانسان على صياغته.[١٥] ولكن القوانين العلمية لا تأتي على نمط رتيب وانما هناك انواع من القوانين لا تهتم بالنتائج الثابتة invirant التي تتضمن سبباً ونتيجة كما هي حال القوانين العددية التي تفيد بأن حجماً واحداً يتناسب مع الاخر. ومثال ذلك قانون (أوم) الذي ينص على ان التيار الكهربائي، من خلال موصل، يتناسب مع الضغط الكهربائي بين طرفيه، فاذا تضاعف الضغط تضاعف التيار.[١٦] ففي هذا القانون لا نجد علاقة زمنية ولا توجد فكرة عن واحد يسبق الاخر، أو يأتي بعده. كما ان هناك قوانين تؤكد خواص نظام معيّن، وهذه هي مميزات القوانين التصنيفية مثل علم النبات والحيوان والمعادن. فالتمييز بين البقرة والخروف والبحث عن الاختلاف بين الكوارتز وحجر الملح كلها دراسات تكشف عن قوانين لها اهمية اساسية.[١٧]

ان الاسس التي يقوم عليها إكتشاف القوانين العلمية هي :

١ ــ الملاحظة (الافادة المفردة) **observation**

٢ ــ الاستقراء (القوانين) **induction**

٣ ــ الاستنتاج (طرق جمع قوانين أخرى) **deduction**

وتؤدي الملاحظة دوراً أساسياً في عملية الاستنتاج. والمقصود منها ترتيب الظروف بصورة تساعد على تحديد العناصر الاساسية في موضوع الدراسة.

---

(١٥) **Karl Pearson, The Grammar of Science. OP. Cit., P. 82**

(١٦) **Norman Campbell, OP. Cit., P. 53**

(١٧) **Ibid., P. 56**

وكان العرب اول من ابتدع طريقة الملاحظة الدقيقة المنظمة وتحت شروط صناعية تتكرر في كل وقت وتتغير وتراقب . اما الاستقراء فهو وسيلة يتم بها التوصل الى الحقائق العلمية (القوانين) في حين يعد الاستنتاج محاكاة عقلية. ولكن الوصول الى اكتشاف قوانين العلم ليس بهذا اليسر . وهي ليست مجرد عمل مرتب فحسب ، بل انها عمل رجل موهوب له تصور مبدع . انها تفسيرات فكرية ومعادلة موجزة تحل في عقولنا محل علاقات بين ظواهر منعزلة واسعة المدى . مثل هذا القانون يريح ذاكرتنا من حمل تتابع فردي ، يساعدنا بأقل جهد فكري إدراك ظواهر طبيعية واجتماعية واسعة التعقيد . وبعبارة اخرى ان اكتشاف قوانين العلم هي وظيفة غريبة ينهض بها تصور عقل مبدع بقدر ما هي عمل على مقاعد المختبر . اي انها تقترن بتصور او ظن إنسان مبدع اكثر مما ترتبط بالعالم الطبيعي خارجه .[١٨]

ان الحديث عن القوانين العلمية ينقل البحث الى مستويات اخرى في معارج التركيب العلمي الا وهو النظرية العلمية . فقد تبين ان كل قانون يكشف العلاقة بين ظاهرتين ، اما النظرية فانها توضح القوانين وتتنبأ وتوضح مسبقاً قوانين معروفة . اي انه يمكن ان نستنتج منها قوانين جديدة فضلا عن القديمة . فهي بمثابة قانون من مرتبة عليا يمكن ان تشتق منه قوانين لايضاح العديد من الظواهر . فقانون (نيوتن) العام المعروف بقانون الجذب مثلا لم يقتصر على قوانين (يوهان كبلر) (١٥٧١–١٦٣٠) التي توضح شكل افلاك الكواكب السيارة وحركاتها بل ان اشتقاق قوانين جديدة منه ساعدت على ايضاح كثير من الظواهر وعززت صحة النظرية . فقد تمّ اكتشاف الكوكب السيّار (بلوتو) وحدد موقعه ومداره رياضياً في ضوء قوانينها مما عُدّ في حينه إنتصاراً لها . وعلى هذا الاساس يمكن ان تُعرّف النظرية بانها مجموعة إفادات تحققت على درجة من الثقة ، ونتيجة ترسي اساساً للبحث

(١٨) R. Harre, The Philosophies of Science, Oxford University Press, London, 1974, P. 23

مستقبلا • ويمكن إختبار النظرية ، نقدا او تعديلا ، تبعاً لقواعد البحث العلمي • ويستحيل ، على المدى البعيد ، ان يتحقق ايضاح مرض من دون نظرية .• وخلاصة القول ان العلم سلاسل متداخلة من المفاهيم والمناهج تطورت نتيجة الملاحظة والتجربة • ولهذه السلاسل فائدتها للقيام بتجارب وملاحظات اخرى طالما بقي الانسان يحاول اكتشاف عالمه .• ان ابعاد هذه المناقشة لا تتضح ما لم نعرف دخائل البحث العلمي •

ماهيـة البحث العلمي

تعني عبارة البحث العلمي عمليات الدراسة والتجربة وصياغة المفاهيم واختبار النظريات التي لها صلة بتوليد المعرفة العلمية طبقاً لما نص عليه تعريف العلم • وفي ضوء هذا يمكن ان نجمل القول بان البحث العلمي في جوهره محاولة لتحقيق تساؤل منطقي مبني على معرفة علمية او ظواهر عرفت اسسها واسبابها الى حد كبير • أما الغرض منه فايجاد معلومات اساسية جديدة ومساهمة في تطور المعرفة العلمية •

ويتنوع البحث العلمي طبقاً لاغراضه فقد يُعنى بالناحية النظرية وفي هذه الحالة ينحصر غرضه في تطوير العلم وتوسيع دائرة المعارف الاساسية • وقد يكون تطبيقاً عندما تكرّس الجهود لتطبيق المعارف الاساسية في مجال معين إلتماساً لنفع إقتصادي يتحقق مردوده في وقت قصير • ويلاقي هذا النوع من البحث العلمي إهتماماً كبيراً في الاقطار العربية مقارنة بالبحث العلمي الاساسي او النظري لارتباطه بصورة وثيقة بخطط التنمية القومية • ولهذا يسمى هذا النوع احيانا بالبحث الهادف أو البحث الموجّه او الميداني • وذلك لانه يعمل على حل مشاكل زراعية او صناعية وغيرها ، مما يتطلب حلولا سريعة يترتب عليها مردود إقتصادي مفيد او خدمات سريعة •

ولا تقتصر ممارسة البحث العلمي على مختبرات الجامعات ، بل انه يعمّ في يومنا هذا ، معظم مرافق الانتاج والادارة والخدمات . كما انه لا يقتصر على العلوم الصرف فقط بل يشمل العلوم الانسانية كافة .

خطـوات البحـث العلمـي

تختلف مفاهيم البحث العلمي من زمن لاخر الا ان الاستقراء والاستنتاج وتوخي الدقة هي السبل التي لا يتخلى عنها كل باحث علمي في يومنا هـذا . وهي في جملتها تشكل منهجاً تحققت بفضله منجزات العلم . وقد سبق العرب غيرهم في وضع اسس منهج البحث العلمي وهم الذين ابتدعوا طريقته الحقّـة القائمة على التجربة . وتقول (زيغريد هونكة) ان العرب لم ينقذوا الحضارة الاغريقية من الزوال ونظّموها ورتّبوها ثم اهدوها الى الغرب فحسب . بـل انهم مؤسسو الطرق التجريبية في الكيمياء والفيزياء والحساب والجبر وحساب المثلثات وعلم الاجتماع .. لقد قدم العرب اثمن هدية هي طريقة البحـث العلمي الصحيح التي مهدّت امام الغرب طريقة لمعرفة اسرار الطبيعة وتسـلطه عليها اليوم .[١٩] فلا غرو ان نجد مذهب (جابر بن حيان) في البحث العلمي لا يخرج في جوهره عما نتبعه اليوم ويتحدد بما يأتي :

١ ـ التجربة والقياس ولا تتحقق المعرفة بدونهما .
٢ ـ تحديد هدف التجربة قبل البدء باجرائها .
٣ ـ عدم البحث في المستحيل .
٤ ـ الصبر والتأنيّ والمثابرة في استنباط النتائج .

ويمكن ان نجمل خطوات البحث العلمي على النحو الاتي :

١ ـ لابد لكل بحث من مشكلة يبدأ فيها ويهدف للوصول الى حلها .

---

(١٩) زيغريد هونكة . شمس العرب تسطع على الغرب ، ترجمة فاروق بيضوني وكمال دسوقي . المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر ، بيروت ، ط ٣ ، ١٩٧٩ ، ص ٤٠١ .

والمشكلة العلمية عبارة عن سؤال جوهري لا يمكن الوصول الى حلّه الا باتباع خطوات منسقة او اجراء تجارب في المختبر •

٢ ـ وضع فرضية عامة تعطي تصوراً عاماً وحلا مبدئياً لمشكلة البحث •

٣ ـ ولما كانت الفرضية العامة لا يمكن قياسها بصورة مباشرة ، لذلك يصار الى طرح مجموعة فرضيات ثانوية لا تتناقض فيما بينها وتتبلور حول مجموعة متغيرات بحيث تقترح كل فرضية منها حلا جزئياً من حلول المشكلة •

٤ ـ تطبيق قواعد علمية رصينة تفي بغرض البحث •

وتتحقق علمية البحث عندما تتكرر نتائجه مهما تكررت التجربة أو اعيدت المحاولة •

وفي ضوء ما تقدم يمكن ان نتبين ان طريقة البحث العلمي تحاول تجاوز العقبات والصعوبات التي تعرقل اصدار احكام موضوعية • وقد يصدق هذا القول على بعض الظواهر ، ولكن ما يكون الحال عندما نحاول دراسة احصاءات مدننا العظيمة او نتوصل الى قوانين خاصة بالتطور التاريخي او السلوك الجمعي واوجه النشاط الزراعي والصناعي وحالات التوتر او الانشراح النفسي ؟ هذه مهمة صعبة لايزال الانسان يخطو بطيئاً في مضمارها • ولعل هذه المحاولة تلقي ضوءاً على ما نحن بصدده •

الدراسات الانسانية

بين قوانين العلوم الصرفة ونظرياتها الصارمة ، وبين الوصف والشرح والايضاح اللفظي تقف الدراسات الانسانية على عتبة منعطف علمي جديد • ولكن السؤال الذي لابد منه هو ما هي الدراسات الانسانية ؟ بعضهم يرى أنها تتناول الظواهر التي للانسان دخل فيها من الفنون والاداب الى الاقتصاد والاجتماع وعلم النفس • ومنهم من يقسم هذه المجموعة الكبيرة الى قسمين رئيسيين هما :

١ ـ العلوم السلوكية ، وتشمل الجغرافيا والاجتماع والاقتصاد وعلم النفس وما ماثلها .

٢ ـ العلوم الانسانية ، ويقصرونها على التاريخ والفلسفة والاداب على اساس انمادة هذه الموضوعات لايمكن اخضاعها للقياس والتجربة.

ولكن الشواهد العلمية تدل على وجود صلة وثيقة بين هذه الدراسات واساليب البحث العلمي السليم . فقد كشف احد الباحثين المعاصرين عن ارتباط موازين الشعر العربي التي وضعها العبقري العربي الخليل بن احمد الفراهيدي بالرياضيات لانها مبنية على اساس حركة الحروف او سكونها ؛ وهي بالتالي تماثل طريقة الحاسوب بمرور التيار فيها او عدمه ، مما اصبح بالامكان تطبيق احدث الاساليب العلمية الرياضية في دراسة علم العروض .[٢٠] وقد مكنت هذه الطريقة إعداد جداول لموازين الشعر العربي بالارقام العشرية بشكل يسهل استعماله لكل من يدرس علم العروض . كما اظهرت هذه الطريقة وزن عبيد بن الابرص لمعلقته العاشرة . وهي طريقة اخرى لميزان الشعر العربي غير اوزان الخليل تتقبله الاذن العربية المرهفة الحس بالايقاع الرقيق الموجود فيه .[٢١] واتضح من دراسة اخرى ان كتاب (العين) للخليل بن احمد الفراهيدي يقوم على اساس ما يعرف اليوم بتحليل التوافيق (harmonic analysis) . اي ان استعمال هذا التحليل لم يقتصر على علماء الجبر فحسب ، بل استفاد منه علماء اللغة العربية واستغلوه في وضع معاجمهم ابتداء من الخليل حين وضع نظام التراكيب العربية على ادق وجه واثبته . وتخطى بذلك صعوبتين ،احداهما حصر اللغة العربية والاخرى كيفية ترتيبها . وهذا التحليل عبارة عن تحليل سلسلة قيم بصورة تكون وحدات دورية محددة.

---

(٢٠) محمد طارق الكاتب ، موازين الشعر العربي باستعمال الارقام الثنائية ، مطبعة مصلحة الموانىء العراقية ، البصرة ، ١٩٧١ ، ص ٢٠ .

(٢١) المصدر نفسه ، ص ٢٣٣ ـ ٢٣٤ .

وهكذا لم يكن النتاج العلمي العربي يعيش بمعزل عن الحيـاة العلمية ، وانما اصبح مادة تطبيقية ترفد تلك الحياة باسباب نهضتها وتقدمها .

واختبر احد الباحثين في اللغة صحة إطّراد فعول مصدراً لِفَعَلَ اللازم على هدي نظرية الاحتمال الاحصائي بعد ان تناقل النحاة منذ ظهور علم النحو ان (فُعُول) يطّرد مصدراً لـ (فَعَلَ) اللازم ، مع استثناءات معينـة . واعتمد لذلك مثالا عشوائياً مؤلفاً من ١٦٦ ثلاثياً لازماً مفتوح عين الماضـي في مجموعة افعال المعجم المشابهة لها والمقدرة ما بين ٤٠٠٠ ـ ٥٠٠٠ . وخرج من ذلك الى ان ما زنة مصدره فَعْل من هذه الافعال اغلب مما زنة مصدره فُعُول ، بل في حدود ما يربو على ضعفيه .[٢٢] وتوصل علماء اللغة في الجزائر الى معرفة لهجات العرب قبل الاسلام بعد ان برمجوا الشعر العربي في تلـك المرحلة .[٢٣] وعلى غرار ذلك توصل اساتذة اللغة في جامعة محمد الخامس بالمغرب الى كثير من حقائق النحو مما يتعلق بجملة الحـال والافعال المتعديـة واللازمة .[٢٤] وهكذا اظهرت هذه الدراسات العلمية بان النحو العربي لـم يحترق بعد وان مجال الدراسة فيه واستنباط حقائق جديدة لايزال مفتوحا .

واستعمل الفقهاء الجبر الحسابي وأطلقوا عليه اسم (حساب الفرائض) بعد أن طبقوه في حل المسائل القانونية الخاصة بالمواريث والوصايا وما الـى ذلك وطبقاً لاحكام القرآن الكريم .[٢٥]

---

(٢٢) جميل الملائكة ، اصحيح إطّراد فعول مصدرا لفعل اللازم ؟ ، مجلـة المجمع العلمي العراقي ، مطبعة المجمع ، بغداد ، المجلد التاسع والعشرون ، ١٩٧٨ ، ص ٣ ـ ٢٦ .

(٢٣) عبدالرحمن الحاج صالح ، رئيس معهد العلوم اللسـانية والصـوتية في الجزائر ، محاضرة القاها في رحاب المجمع العلمي العراقي .

(٢٤) حديث شخصي مع الدكتور حسن الشاد . كلية الاداب ، جامعة محمـد الخامس .

(٢٥) رشدي راشد ، « الاسلام وازدهار العلوم الرياضية » في كتاب الاسـلام والفلسفة والعلوم . اليونسكو ، باريس ، ١٩٨٣ ، ص ١٦٠ .

واستخدم العرب الاسس الرياضية لمعرفة كثير من الحقائق الجغرافيـة في القرنين الثالث والرابع الهجريين ، مثل تعيين عروض المكان لتحديد مواقع المدن والظواهر الاخرى ، وقياس درجة نصف النهار وابعاد الكرة الارضية وتقسيم الاقاليم وغير ذلك •

وللتاريخ جوانبه التطبيقية العلمية إذ بالامكان ، مثلا ، تطبيق طرائـق العلم على احداثه والتوصل الى قوانين خاصة بالتطور التاريخي يمكن بها ان نقول ان ظواهر تأريخية معينة تسببها ظواهر معينة اخرى • ولكن الحاجـة تقتضي ، لتحقيق ذلك ، فهم دور الافكار في التاريخ وفهم الطرق التي تؤثـر فيها هذه الافكار بعضها على بعض • فضلا عن فهم الطرق التي تؤثر فيها على الانتاج المادي والتنظيم الاجتماعي •

ولهذا فالتوجه العلمي نحو التاريخ غير كاف بحد ذاته على الرغم مـن انه يشكل منطلقاً نظرياً مفيداً جداً ، فالتاريخ بكل وضـوح اكثر تعقيـداً وتشعباً من العمليات الطبيعية الفيزياوية او الحياتية من نواح مختلفة • إذ من الصعب استخلاص عنصر واحد فقط من واجهة التجارب التاريخية والقـول بانه يسبب ، بشكل او آخر ، العناصر الاخرى كافة • ان مجال التاريخ يختلف عن مجال العلوم الطبيعية ، وهذا يعني ان ليس بمقدورنا ان نتجنب كافـة تأملات التاريخ • كما اننا لا نستطيع وضع نظرية تأريخية ينسجم فيها كـل شيء ، فالتاريخ مملوء جدلا ونظريات مختلفة تتصارع فيما بينها لانها تنبـع من فلسفات سياسية مختلفة • ولاننا ، من ناحية اخرى ، نسـتعمل التاريـخ بطريقة تختلف عن طريقة استعمال العلم •[٢٦] فاهتمامنا بالتاريخ ينبع مـن اسباب تختلف عن اسباب اهتمامنا بالعلوم الطبيعية • ومع ذلك فقد عصفت رياح التغيير بمناهج البحث التاريخي ولم تعد مجرد سرد احداث تبعاً لتسلسلها الزمني • فقد برزت دراسات تاريخية تأخذ بمناهج البحث العلمي وتسير على

---

(٢٦) **Karl Pearson, The Grammar of Science, OP. Cit., PP. 19-30**

وفق مقتضياتها • واصبحت التاريخ مجلة تنشر ابحاثاً احصائية رياضية تعنى باحداثه • وكشفت احدى الدراسات عن حقائق ترتبط بمجيء كرو مويل الى الحكم في انجلترا تختلف تماما عمّا كان شائعا بين الناس .• فقد اعتمد الباحث سلوك الناخبين ونسبتهم في كل مقاطعة ادارية وعاملها طبقاً لقانون (مربع كاي) وهو قانون احصائي رياضي يستخدم لاختبار تجانس توزيع ظاهرة في عدة مجتمعات •

وتناول احد الباحثين دراسة اعتناق الاسلام في العصور الوسطى دراسة احصائية رياضية • فقد اخذ عن شذرات الذهب في اخبار من ذهب (١٠) الاف شخصية اسلامية وتتبع تسلسل اسمائهم حتى جدهم السابع • زاعماً ان هذا النهج يؤكد الفكرة القائلة ان هناك علاقة اساسية مباشرة بين اعتناق الاسلام وتطور ما يمكن ان يسمى بالمجتمع الاسلامي • واراد ان يبين ما يأتي :

١ ــ ان تغيرات أنماط الاسماء تعكس بدقة الاتجاه العام للتحول الديني• فقد لاحظ ان اسماء هؤلاء في ايران قد تغيرت من محمد واحمد وامثالها مما كان شائعا بين العرب في العصر الاموي الى اسماء قرآنية في العصر العباسي الاول بعد ان خفت حدة الفصل الاجتماعي بين العرب والاعاجم ، الى اسماء وصفية لا يقبل عليها العرب مثل الربيع والفضل في حقبة لاحقة ، واخيرا تحولت الى اسماء فارسية في عصر عباسي متأخر عندما قويت شوكة الاعاجم في المجتمع وكثر عددهم • وعلى العكس من ذلك بقيت اسماء الناس في العراق محتفظة بطابعها العربي الاصيل على الرغم من تغير العصر •

٢ ــ ان النتائج التي توصل اليها لا يمكن بلوغها وفق نهج رياضي آخر •[٢٧] ومهما آلت اليه نتائج هذا البحث فانها تحفّز الباحثين الى متابعة بحث الموضوع لان ارقامها واشكالها بعثت على ظهور افكار جديدة جديرة

---

(٢٧) **Richard W. Bulliet, Conversion To Islam in The Medieval Period, Harvard University Press. Cambridge, Mass., U.S.A. 1974**

بالمتابعة • فقد صاحب تغير الاسماء الى الفارسية ان بدأ الحديث باللغة (الدّرية) بدلا من العربية ومنع القاء الشعر العربي في مجالس الامراء ولباس القلادة الفارسية •

وقطعت العلوم السلوكية شوطاً بعيداً في ميادين دراستها حتى اصبحت تقدم حلول مشكلاتها في هدي صيغ رياضية • بل ان دراسة رياضيات معمّقة مثل حساب التفاضل والتكامل اضحى من متطلبات إعداد طلبة الدراسات العليا في هذه العلوم • وقد يطول البحث ويخرج عن مقاصده إن حاولنا عرض المناهج والطرق العلمية التي استخدمت في هذه الميادين •

الخاتمة :

ان الانسان الذي يصنفّ الحقائق مهما كان نوعها ، ويرى علاقاتها المتبادلة ويصف تتابعها ، ويطبق الطريقة العلمية ، هو انسان علم • وقد تكون هذه الحقائق ذات صلة بماضي تاريخ البشرية او الاحصاءات الاجتماعية لمدننا العظيمة ، او جو النجوم البعيدة جداً ، او جهاز هضم الدودة ، او حياة عصيات تندر رؤيتها • ان الحقائق نفسها لا تصنع العلم ، ولكن الطريقة التي يتم بها التعامل معها • ان مادة العلم تتسع اتساع الكون ولا يقتصر ذلك على العالم كما هو عليه الان بل يشمل تاريخه الماضي وتاريخ ماضي جميع اشكال الحياة • وعندما تختبر كل ظاهرة ، حاضرة وماضية ، كل طور من اطوار الحياة الحاضرة او الماضية ، وتصنّف وتنسق مع البقية عندئذ تكتمل رسالة العلم • ومعنى هذا القول ان مهمة العلم لا تنتهي ومادته لا تقتصر على مجموعة ظواهر دون اخرى • ومن اراد ان يسير في ركاب العلم عليه ان يحيط بفلسفته ومنهجه وطرق بحثه •••

والله من وراء القصد ••

تجاوزات على حقوق الطفولة (*)

ا. د. ابراهيم الكناني

الملخـــص

تعد مشكلة انتهاك حرمة الطفل واهمالـــه من المشاكل المســتعصية التي تتطلب البحث • فهي منتشرة في معظم المجتمعات ، وتتخـذ مدى واسعاً مـــن الممارسات القصدية ، وغير القصدية احياناً ، من قبل احد الوالدين او كليهمـــا والتي تؤدي الى الحاق الاذى بالطفل ومسببة اضطرابات سلوكية له • واشكال الانتهاك تمارس سوياً ، كممارسة الانتهاك الجسمي واللفظي والنفسي • بـــدأ الاهتمام بدراسة هذه الظاهرة منذ بداية الستينات ، ونالت اهتماماً متزايـــداً من العاملين في الميدان النفسي •

وتشير الدراسات المعمقة ان هناك اسباباً عدة للانتهاك . فبعضها تؤكـــد على ضغوط الحياة على الوالدين ، وبعضها عزته الى اسباب اجتماعية مثـــل الفقر والكثافة السكانية وعدم توفر الظروف الانسانية للعيش • واكـــدت دراسات اخرى على الاسرة وطبيعة التفاعل فيما بين افرادها ، إن جدية هـــذه الظاهرة تكمن في خطورة نتائجها على الطفل في الحاضر والمستقبل ، والتـــي تصيب التطور النفسي له ، والناجمة عن العلاقة المضطربة بين الطفل ووالديه • ان الوالدين يقعان في قلب مشكلة الانتهاك ، وان إقناعهما بخطورة ما يقترفونه بحق اولادهم هو من المسؤوليات الاساسية لذوي الشأن •

---

* محاضرة القيت في المجمع العلمي يوم الاثنين ١٩٩٧/٤/١٤ (دائرة العلوم الانسانيـــة) .

قال الامام ابو حامد الغزالي رحمه الله :

« الصبي امانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة ، خالية من كل نقش وصورة . وهو قابل لكل ما ينقش عليه ، ومائل الى كل ما يمال اليه ، فإن ما عود الخير وعلمه نشأ عليه ، وسعد في الدنيا والاخرة ، وشاركه في ثوابه ابوه وكل معلم له ومؤدب . ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل وفعل محمود فينبغي ان يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين اظهر الناس . فان خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة ، فينبغي ان يتغافل عنه . ولا يهتك ستره ، ولا يكاشفه الاب به ولا يظهر له انه يتصور ان يتجاسر احد على فعله ، ولاسيما إذا ستره الصبي ، واجتهد في إخفائه ، فان إظهار ذلك عليه ربما يزيده جسارة ، حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك ان عاد ثانية فينبغي ان يعاقب سراً ، ويعظم الامر فيه ، ويقال له اياك ان تعود بعد ذلك لمثل هذا واياك ان يطلع عليك في مثل هذا فتفضح بين الناس . ولا تكثر القول عليه بالعقاب في كل حين ، فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه » .

استهل المحاضرة بطرح تساؤلات تتطلب الجواب :

(١) ما مكمن الخلاف بين الانتهاك والعقوبة ؟

(٢) أقدر دورة تاريخ هو الانتهاك ، ام قدر « ثقافة » ، ام قدر اسرة ، ام قدر منتهِك ومنتهَك ؟

(٣) أتفضي الضغوط الى الانتهاك ، ام الامر يتعلق باضطراب سلوك لدى الوالدين يدفعهم الى ذلك ، ام ان الضغوط هي التي تقود الى اضطراب الوالدين فيميلون كل الميل الى إنتهاك اولادهم ؟

(٤) أيكون الانتهاك ما تواصلت جوانبه ام ما انفصلت ؟

(٥) هل نحن ننتهك اطفالنا ؟ وما آثاره وكيف يواجه ؟

مكمن الخلاف بين الانتهاك والعقاب ، هو ان الانتهاك ما تكرر ، وما اتصل زمانا وما اشتد قسوة ، وكان سببه اقل بكثير مما يتطلبه الانتهاك . ويخبره الطفل بشكل صدمة تقود الى اشكال من الاضطراب السلوكي الحاد والمزمن والى اضرار جسمية قد تدوم ، وقد تسبب العاهة .

واشكال الانتهاك عديدة فهناك الانتهاك الجسمي كالضرب القاسي على مناطق حساسة من جسم الطفل ، او الضرب باشياء صلبة على الرأس ، او الرج بشدة ، او حبس الطفل حيث لا يَرى ولا يُرى ، او التعرض للحرارة او البرودة العاليتين ، او الخنق ، او حلق الرأس ، او جر الشعر ، او الحرمان من الطعام ، او العض . وهناك الانتهاك الجنسي للطفل والذي يتصف بالممارسة الجنسية باشكالها العديدة والتي تتسم بالقسوة قبلها او خلالها او بعدها .

اما الانتهاك النفسي فيتناول التهديد والتوبيخ او المبالغة في الاهانة او الحرمان من اللعب او التخويف او التحقير . ويتناول الاهمال حرمان الطفل من الحاجات الجسمية مثل الطعام والمأوى والملبس وحرمانه من الحاجة الى التحفيز الحسي والاتصال الاجتماعي والعاطفي . ولعل اخطر انواع الانتهاك هو الانتهاك الجنسي الذي سنورد تفاصيله لاحقاً .

أيكون الانتهاك قدر تاريخ ام قدر ثقافة ام قدر اسرة ام قدر منتهِك ومنتهَك ؟

إن عالم النفس التحليلي شأنه شأن بعض المؤرخين والفلاسفة ، يرى ان قَدَرَ الانتهاك كامن في الانسان نفسه ، فهو يعيد تاريخه المأساوي ، فكأنما التاريخ يعيد نفسه سايكولوجياً . والذين يتزعمون ذلك يرون ان الكبار الذين خبروا الشدة والصراع بسبب انتهاك آبائهم لهم ، يجدون انفسهم يعيدون التاريخ نفسه ونتيجة ذلك مزيد من الاحساس بالذنب لديهم ، والذي يضيف الى اضطرابهم وألمهم إضطراباً والماً جديدين ، ويبدأون يكررون السؤال لانفسهم : لماذا عليّ ان استمر بذلك ؟

أصحاب مدرسة التحليل النفسي يرون ان مأساة انتهاك الطفل المتكررة من جيل لآخر لا تتعلق بسوء تكيف الوالدين او سوء تكيف الطفل ، كما يبدو اول وهلة ، بل السبب ان الانسان يعيد خلق الصراعات في محاولة لحلها . فالغريزة لديه مكبوتة مقمعة لا تتحرر كي تشبع اشباعاً كاملا ، ولا يكون الشكل الاعلائي او الابدالي كافيين لازالة التوتر المستمر للغريزة المقمعة . لذلك فان الانسان قد يحل جزءاً من عصابه ، ويبقى جزء كبير مطموراً لا يستطيع حله ويبقى تاريخ الانسان دائرياً تكرارياً .

ويظهر مفهوم « التاريخ يعيد نفسه » لدى فرويد في قضية الانتهاك من خلال فكرة التوحد مع المعتدي ، والتي يقصد بها تمثل الفرد لخصائص فرد آخر تمثلا تصبح به هذه الخصائص جزءاً منه . بمعنى انه عندما يسلط الوالدان قسوتهما على الطفل ، ولكي يتخلص الطفل من مظاهر الضيق والتهديد بسبب عدم امكانيته في هذا العمر على فتح منافذ واسعة لفك اسره ، فانه يتوحد مع والديه متشرباً خصالهما الانتهاكية بسبب من مشاعر التهديد

والخوف لا الحب لهما • فالذي يحصل هو ان هناك تغيراً يطرأ على الطفل ينقله من حالة العجز والسلبية (حين يكون ضحية للانتهاك) الى حالة من النشاط الفعال فيصبح المنتهِك • وتحصل هذه الانتقالة في ادراك الطفل من حالة المنتهَك الى حالة المنتهِك عندما تستثار لديه الخبرات الصدمية السابقة من والديه احدهما او كليهما ، ولابد ان تؤدي هذه الاستثارة الى تفريغ التوتر الفسيولوجي والسيكولوجي بشكل تحول الى نشاط فعال يخلصه من هذه المحنة التي يعيشها والتي تتكرر له دائماً وبشكل مؤلم • والانتقالة الجديدة في ادراك الطفل بعد ذلك ، هو احساسه (لا شعورياً) بوجود خصائص لديه تتوفر في والديه • وهنا يقدم مسوغاً لا شعورياً لتبرير كونه منتهِكاً • ولو إنتهك الزوج زوجه بحضور الابن العاجز ، فان الذي تتوقعه هو ان الطفل إن كان توحده مع ابيه (المنتهِك) اكثر من توحده مع امه (المنتهَكة) ، فالمؤمل له ان يصبح منتهكاً كأبيه • وبذلك فان الطفل الذي ينمو وهو يلاحظ اباه (الانا الاعلى) مسيطراً او منتهكاً لامه (الهوَ) ، او العكس ، فسيصبح في مستقبله منتهِكاً ، حينما تصاب دفاعات الانا لديه بالضعف • وقد وجد في احدى الدراسات الاجنبية ان الانتهاك الشديد قد حصل لدى اربعة اجيال متعاقبة من الاسر • وفي دراسة اخرى ظهر ان الوالدين المنتهكين والمهمَلين ايام طفولتهما يميلان الى استخدام الاساليب نفسها التي تعرضا لها في طفولتهما • وعندما يمران بالازمات ويفقدان السيطرة ينتهكان اطفالهما ، وعندما يبكي الاطفال بسبب الانتهاك يستثيرون آلام طفولة والديهم والتي تسبب القلق ثم الغضب لديهم ثم الانتهاك ، الذي يؤدي بدوره الى الشعور بالذنب مما يزيد من القلق والتوتر ، ويزيد في الوقت نفسه من الميل نحو تكرار الانتهاك حتى يصبح سلوكاً تكيفياً ، وليس ممارسة عدوانية حسب • اما تأثير ذلك على الاطفال ، فأنهم ، في مقابل ذلك ، يبدأون بلوم انفسهم لما سببوه لوالديهم بحيث يدفعهم ذلك الى الاقتراب منهم لانهم يشعرون باحتمال فقدان محبتهم ، لذا فهم يفضلون الانتهاك على ابتعاد آبائهم

عنهم • الا ان الصراع لا يُحل هكذا ، بل يبدأ الاطفال باعادة تاريخ الانتهاك مجدداً ، هم المنتهِكون والاضعف منهم المنتهَكون •

وهناك موقف تحليلي نفسي آخر من قضية دورة الانتهاك الاسري ، إذ يعدونه عدواناً ، وانه اي العدوان والاعتماد على الغير امران متصلان اتصالا وثيقاً متبادلا • فكلما استمر الطفل في اعتماده على والديه زاد العدوان الكامن فيه • وقد فسروا هذه العلاقة المتعارضة بين اعتماد الطفل على والديه وعدوانه هو ، بان اعتماده يعني وقوعه تحت سيطرة ابيه وقوته لذلك يشعر ان قوة ابيه لها تأثير مقيد يحد من حريته ويجب التغلب عليه • والطفل في الوقت نفسه لا يشعر بالامن والاطمئنان مع والدين لا يُظهران قدرة على حمايته في عالم يكمن فيه الخطر ، او لم يبديا الدليل على قدرتهما على تأكيد ذاتهما بالعدوان •

ويتطلب التعبير السوي عن العدوان نوعاً من المعارضة بين الاب والابن ، فالوالد المستسلم لا يضع في طريق الطفل شيئا يعترض عليه ، ولا يُظهر له اية سلطة يثور عليها ، ولا أي مبرر للتعبير عن الحافز الفطري للاستقلال • فأن لم يوجد شخص يعارض الطفل فان عدوانه يتحول الى داخله ويوجه نحو ذاته • وشعور الطفل بضعفه إذا ما قورن مع والديه يجبره على ان ينتهز اية فرصة لاثبات قوته • لذلك فان خيال الاطفال مملوء عدواناً ، فهم يحتاجون لكل الامكانيات العدوانية التي يستطيعون استجماعها لكي يحسوا انفسهم ويؤكدوا شخصياتهم النامية • لذلك فان درجة معقولة من العدوانية تعد عنصراً مهماً في التكوين النفسي للطفل والا سيكون من المستحيل بالنسبة له ان يحطم روابط الاتكال على الوالدين والتحرك بمفرده وتشييد اسرة جديدة • ولو تحقق هذا حقاً واصبح الطفل راشداً واتخذ له في الحياة شريكة واستقل عن غيره ورفعت القيود عن حريته الشخصية او سلطة ابوية يتمرد عليها ، فان هناك مبرراً لعدوان متبادل بين الراشدين المستقلين الناضجين الذين تخلصوا

من اثقال الطفولة . ومالم تغير طفرة بيولوجية شخصية الانسان ، فلن يكـون بالمقدور قيام مجتمع يخلو من التنازع والتنافس . ولن تستطيع التربية ان تمحو أو تعدل بصورة جدية ميل الانسان الى الصراع التنافسي . ولو افترض انهـا استطاعت ذلك ، فانها قد تسبب ضرراً اكثر من النفع ، ذلك لان هذه النزعـة العدوانية التي قد تؤدي الى الصراع والعنف تحث الانسان كذلك علـى الاستقلال والانجاز .

وعلى هذا الاساس توجد في النفس الانسانية ثنائية تعايشية ، فالانسان بحاجة الى صحبة ودعم من الاخرين الذين يعيشون معه ، وهو بحاجة ايضـا الى الحفاظ على شخصيته وانه فرد مستقل ذاتياً . وكما ان الطفل لابـد ان يثور حتى على اقل الاباء تسلطاً ، فكذلك الراشد الذي يشعر بانه مقيد بقيود توحد وثيق جداً مع الاخرين يثور على تلك القيود التي يفرضها عليه ذلـك التوحد . فان لم يوجد الاعداء نكون مجبرين على خلقهم . وهكذا تستـمر دورة « التاريخ يعيد نفسه » من الطفولة وحتى الرشد ، وهذه الدورة موجودة باصرار ومستمرة وان من العسير الانفلات منها .

والتاريخ يعيد نفسه على مستوى المدرسة السلوكية ، ذلك لان هنـاك إشراطاً إجرائيا متبادلا بين الوالدين والطفل . فالوالدان ، وبصورة غـير متعمدة ، يعززان الاستجابات غير التكيفية للطفل بسلوك غير تكيفي ، ويعزز الاطفال السلوك غير التكيفي للوالدين عندما يستـجيبون ، اي الاطفـال ، بسلوك يكون مكافئاً للوالدين . ولذلك فان السلوك الانتهاكي يتكرر ويعاد لان الوالدين والطفل يخلق كل منهما للاخر دورة من التعزيـز للاستـجابات غير التكيفية .

ودورة التاريخ تَلمَح في نظرية التعلم الاجتماعي ، إذ تفسر الدورة في ان الاطفال يتعلسون من والديهم اسلوبهم في التفكير والسلوك بالنمذجـة . فالانتهاك لدى الاباء يقود الى انتهاك لدى الابناء بالنمذجة ، فالطفل في هذا

العمر المبكر يقلد كلا من السلوك التكيفي وغير التكيفي لوالديه من غير تمييز في النفع •

ويقابل مفهوم « التاريخ يعيد نفسه » مفهوم الثقافة مفسراً للانتهاك • فعندما تحبذ ثقافة ما العقاب القاسي على مستوى الجماعة كلا او الاسرة او الفرد ، فان ناتج هذا التحبيذ هو الاحباط وان ناتج الاحباط هو العدوان • لذلك يعبر الناس او الافراد بالعدوان نحو من يحول دون تحقيق اهدافهم • وحيثما يتكرر الاحباط لدى الجماعة او الفرد ، هناك احتمال بحدوث الانتهاك على مستوى الجماعة او على مستوى الفرد • فأب الاسرة يُنتَهَكُ من قبل البيئة الخارجية ، باشكال واساليب مختلفة ، وهو بدوره ينتهك اسرته • والزوج المنتهَكَةُ من قبل زوجها وبيئتها تقوم باتنهاك اطفالها • والاطفال ينتهكون بعضهم بعضا ، وقد يكونون سبباً في ايقاع الانتهاك على انفسهم احيانا اخرى .•

وإذا يممنا شطر ما يحصل في داخل الفرد، نقول إن الثقافة التي تشجع العقاب الصارم ، والتي لا تدرك الفرق الخطير بين العقوبة والانتهاك ، يحاول افرادها ممن يمتلك تقديراً واطئاً لذواتهم ان يعززوا صورهم لذواتهم وللاخرين بممارسة الانتهاك نحو اطفالهم للتعويض عن ذلك الخلل (التقدير الواطيء للذات) • ففي دراسة جرت في بريطانيا عام (١٩٨٨) ظهر ان (٩٢٪) من الاطفال الذين كانوا يعانون من الاهمال والانتهاك كان اسلوب الرعاية السائد معهم هو القسوة الشديدة •

ويرى بعض العاملين ان الثقافة التي يُعَدُّ العنف فيها طريقة ايجابية للحياة يشيع فيها الانتهاك على مستوى الجماعة والاسرة والفرد • وهناك من يرى أن الثقافة التي يشيع فيها الفقر والكثافة السكانية وعدم وجود ظروف صحية للسكن ، او البطالة ، او المجهولية ، او الثقافة القليلة ، او الوطء في الدخل ، او يشيع فيها التمايز العرقي ، يحتمل لمثل هذه الثقافات ان تظهر فيها زيادات واضحة في حوادث الانتهاك •

إن اتجاه التفسير نحو الثقافة بوصفه عاملا احاديا في حدوث الانتهاك له ما يناقضه • فمشكلة انتهاك حرمة الطفل واهماله منتشرة في معظم المجتمعات • فقد وردت دراسات عبر الثقافات من ارجاء افريقيا من مصر والسودان ، ومن تركيا والهند واليابان والصين وغينيا الجديدة وتايوان ومن اميركا الجنوبية تؤكد توفره •

الا ان الشيء الذي يثير الانتباه هو أن مشكلة انتهاك الاطفال اصبحت بارزة في المجتمعات الصناعية ، وان ما يتوفر لدينا من ارقام تكفي لتنذر بخطورة الموضوع ، على الرغم من صعوبة الحصول على احصائيات دقيقة فيه ، وذلك لعدم استعداد الوالدين للتبليغ عنه • ففي السبعينات سجلت في الولايات المتحدة الاميركية قرابة (½) نصف مليون حالة انتهاك سنويا ، ارتفعت في السنوات الاخيرة الى مليون ونصف مليون حالة انتهاك سنويا ، وفي دراسة حديثة ظهر ان طفلا واحدا من كل سبعة اطفال في اميركا يُعَدُ منتَهكاً • وظهر من دراسات مسحية في هذا البلد عام ١٩٨٧ ، ان كل فتاة من بين (٤) فتيات يُغتصبن قبل المراهقة ، وان ولداً واحداً من كل (١٠) اولاد يتعرض الى الاغتصاب • وفي سنة ١٩٨٣ ظهر ان (٤٥) ولاية اميركية اشارت الى تطور في حالات انتهاك الاطفال ، ليس في عددها فحسب بل في عدد الحالات المؤدية الى الموت • وفي دراسة جرت في مدينة سان فرنسيسكو عام ١٩٨٣ على عينة من النسوة ، ظهر ان ١٦٪ منهن قد تعرضن الى انتهاك جنسي قبل سن الثامنة عشرة • ومثل هذه النتائج تلمح في الدول الاسكندنافية • وفي دراسة جرت عام ١٩٨٢ في كندا ظهر ان ٥ر١٪ من اطفال مدينة كيوبك وانتاريو قد تعرضوا للانتهاك في تلك السنة وحدها • وظهر في احدى الدراسات في بريطانيا ان الوفيات بسبب الانتهاك والاهمال تزايدت من ٣٪ الى ٩٪ منذ عام ١٩٧٤ • وفي دراسة اجريت في نتنگهام وجدت نسبة عالية من اطفالها كانوا ينتهكون جسدياً ، وان ٧٪ منهم كانوا ينتهكون يومياً • واشارت دراسة في فرنسا الى ان عدد حالات الانتهاك تتراوح بين (١٥ــ٣٠) حالة لكل

(١٠٠٠) اسرة وحسب المستوى الاقتصادي والظروف المادية والنفسية لتلك الاسر •

ومن العاملين في هذا الميدان من لا يؤكد مفهوم « التاريخ يعيد نفسه » أو مفهوم « الثقافة » في تفسير الانتهاك ، بل يرى في الضغوط مفسراً • والمصطلح هذا يعني الموقف الذي يكون فيه الفرد واقعاً تحت إجهاد إنفعالي او جسمي ، فاذا ما استمر وشعر فيه الفرد بالشدة او المحنة ، فانه يؤدي الى اضطرابات سلوكية • والصفة المشتركة للاحداث الضاغطة انها تفوق قدرة الفرد في السيطرة عليها وتشعره بالعجز •

وهناك منظرون كثر عبروا عن ذلك بشكل صريح او ضمني • فالتحليليون الجدد يرون ان المواقف الانتهاكية في البيئة تشكل ضغوطاً على الطفل تشعره بعدم الامان ، وتشكل لديه اتجاهات يتحرك فيها اما نحو الناس او ضدهم او بعيدا عنهم • وفي كل الاحوال ، فانه يقرر شعورياً أو لا شعورياً أنه في عراك دائم • فهو لا يثق ضمنياً بمشاعر الاخرين ونواياهم تجاهه ، ولذلك يميل الى ان يصبح اقوى منهم فيهزمهم من اجل سلامته الشخصية ومن اجل الانتقام من الذين نبذوه او اساؤوا معاملته ، وربما انقلب الانتقام نحو من هم اضعف منه حين الكبر • ومن التحليليين من يرى ان هناك في تطور الشخصية حواجز اجتماعية (ضغوطاً) يواجهها الطفل عليه ان يجتازها قبل العبور الى مرحلة تالية • فإن كانت هذه الحواجز مقترنة بانتهاكات . تحددت الكيفية السيئة التي سيبصر الطفل فيها العالم ونفسه •

وتبدو دورية الضغوط واضحة على مستوى البيئة او الاسرة • فالتغير المستمر الذي يحصل في البيئة يجعل الوالدين في حالة مستمرة من التكيف واعادة تكيف جديد للمواقف المتجددة ، ويؤدي ذلك الى إنهاك دفاعات الوالدين واضعاف سيطرتهما ، مما يسهل من انتهاكهما لاطفالهما • وفي دراستين حديثتين في اميركا ظهر ان الاباء المنتهكين يعدون ضغوط الحياة عالية عليهم

ويشعرون بالعجز في معالجة الامور الصعبة • وقد وجدت بعض الدراسات علاقة وثقى بين الضغوط الاجتماعية والاقتصادية والنفسية للاسرة والاتتهاك • فكثرة عدد الاطفال وعدم الرضا عن الزواج والمجهولية والفقر والثقافة القليلة والضغوط الاقتصادية ووجود اطفال غير مرغوب فيهم والمشاحنات الزوجية ، مدعاة الى ضعف سيطرة الفرد على انفعالاته وعدم قدرته على اللجوء الى قنوات مقبولة للتخلص من وطئة الضغوط •

إن إعتماد اي مفهوم من المفاهيم الثلاثة وحده « مفهوم التاريخ يعيد نفسه » أو مفهوم « الثقافة » او مفهوم « الضغط » ، لا يستطيع الصمود كثيراً في تفسير الاتتهاك ، لكن تكاملية المفاهيم الثلاثة تعطي صورة ادق • فحيثما يشعر الوالدان باحباطات الحياة القاسية بما في ذلك ضنك العيش وتفكك الاسرة ، وفي ثقافة عامة او فرعية تسهل الاتتهاك او تجيزه ، وفي اسرة قد تكرر امر الاتتهاك لديها عبر جيل او جيلين او اكثر من ذلك ، في ابناء وآباء لديهم خصائص تهيء للانتهاك فان تكاملية ذلك كله قد يقود الى احداث الاتتهاك •

ولكي تتضح سلسلة عوامل الاتتهاك ، نبدأها بخصائص المنتهَك والمنتهِك : فالنشاط الحركي المفرط للطفل والذي لا يستقر على حال ولا يهدأ ، وولادة غير مرحب بها جاءت بعد ولادات متكررة ، وصعوبات حمل للطفل المنتهَك او صعوبات ولادة ، او جنس طفل غير مرغوب فيه ، او توفر عاهة او عوق لديه ، او كثرة صراخ او بكاء عنده ، او تجمع خصائص عدة من التي مر ذكرها في الطفل المنتهَك ، إذا ما اقترنت هذه بخصائص في احد الوالدين او كليهما ، كوجود مؤشرات اتتهاك للام من زوجها ، او تعرض احدهما او كليهما الى اتتهاك سابق في طفولتهما او توفر مشكلات في رضاعة الام لطفلها او إطعامه ، او توفر اضطراب نفسي لاحدهما او كليهما او ثلم في جدار الحياة الزوجية ، او توفر خصائص الشخصية العدوانية لدى الاب ، او تسلط ضغوط مالية او اجتماعية على الوالدين ، فهناك احتمال كبير في العودة

التلقائية لمفهوم « التاريخ يعيد نفسه » في اسرة او في ثقافة فرعية ذات خصائص معينة قد تسهل الانتهاك او تغض الطرف عنه او تعين عليه او تسكت عليه او تجد له من العذر ما يسهل عليه العودة •

تلازمية في اشكال الانتهاك ام استقلالية ؟

الانتهاك اشكاله عدة • فهناك انتهاك جسمي وانتهاك نفسي وانتهاك لفظي وانتهاك جنسي واهمال • وهذه الاشكال لا تحدث بشكل منفرد في غالب الاحيان ، بل تحدث على شكل تلازمي بين شكلين او اكثر • فالانتهاك الجسمي والنفسي يتلازمان بدرجة عالية ، ويلمح تلازم عال بين الانتهاك الجنسي والنفسي والاهمال • ووجدت تلازمية عالية بين الانتهاك الجسمي والنفسي والجنسي معاً • والانتهاك النفسي ، كما يظهر من كثير من الدراسات يصاحب اغلب اشكال الانتهاك الجسمي ، وهو موجود حتى في الاهمال • ان الصراع النفسي قد ينشأ من اي شكل من اشكال الانتهاك والاهمال ، الا ان اقصى اشكال الصراع النفسي يأتي بسبب الاهمال ، فحرمان الطفل من العناصر الاساسية لنموه وتفتحه تجعله لا يتقبل ذلك الحرمان لاحقا ، ويبقى في بحث مستمر للتعويض عما حرم منه ، وتتكرر إحباطاته ، في الغالب ، طوال حياته • إن التلازمية في اشكال الانتهاك تعزى الى ان الانتهاك الجسمي لا يلازم بالايذاء الجسمي وحده ، إذ لابد ان يقترن باستخدام الفاظ شديدة الوقع على الطفل ، ولابد ان يصاحب بالرفض والاهانة والتوبيخ الشديد والانتقاص والشتم والتخويف والاحتقار ، وهي عناصر الانتهاك النفسي • وترد هذه التلازمية الى انفلات انفعالات المنتهِك وصعوبة سيطرته عليها ، وبالتالي لابد ان يحصل تفريغ لهذه الانفعالات الحادة • والتلازمية هذه تحصل بشكل عفوي ومن دون تفكير او سيطرة من قبل المنتهِك ، وتبقى التلازمية مستمرة لديه طالما لجأ الى الانتهاك ، فهي دورية ايضا •

كيف حال الانتهاك مع اطفالنا ؟

إن دراسات عديدة جرت في بلدنا منذ السبعينات من هذا القرن اشارت الى توفر اساليب تنشئة اسرية تلحق الاذى في شخصية الاطفال • فلقد ظهر ان اساليب مثل الضرب والتوبيخ والتعنيف تقود الى حدوث السلوك العدواني لدى الابناء والى الجنوح كذلك ، والى سوء التكيف النفسي والاجتماعي • لكن الانتهاك كظاهرة متطورة للعقاب لم يدرس لدينا ، وربما يعود السبب الى توفر عوامل اجتماعية تحول دون التبليغ عنه ، وقد لا تجد الثقافة السائدة لدينا بعض جوانب الانتهاك انتهاكاً ، بل تعده جزءاً من اساليب تنشئة مقبولة الى حد ما •

إن دراسة حديثة جداً عن انتهاك الاطفال اشرفنا عليها بينت توفر انتهاك عال او متوسط عند عينة من الاطفال العراقيين في المناطق ذات المستوى الاقتصادي الاجتماعي دون المتوسط ، وان هناك علاقة ملحوظة بين شدة الانتهاك الجسمي وشدة الانتهاك النفسي والاهمال ، وان تكرار الانتهاك يلحظ كذلك لدى اباء الاطفال • وان شدة الانتهاك وتكراره يلحقان باضطرابات سلوكية لدى الاطفال اهمها الخوف والقلق والعدوان والانسحابية والسلبية •

وسواء جرى الانتهاك عندنا ام عند غيرنا في اقطار اخرى اجنبية فان اجمعها تشير الى وجود آثار نفسية تصاحبه تتمثل بالاحساس بالالم والقلق والخوف والحزن والغضب والفزع والاحساس بالوحدة • ويحقق الانتهاك اقصى قوته حين يكون شديدا ومتكررا ومتلازما ، وحيث لا يسمح للطفل بالهرب او الخلاص من الالم الذي يقع عليه • وهناك آثار لاحقة للانتهاك تلازم الطفل وتستديم عنده إن لم تعالج الظروف التي هيئت للانتهاك •وتتناول الاثار اللاحقة اضطرابات الخوف والفزع والقلق والعدوان والاتكالية الشديدة والانسحابية • ومثل هذه الاثار اللاحقة تلحق بالانتهاك عموما او بالانتهاك

الجسمي او النفسي او الجنسي • فلقد ظهر من بعض الدراسات الاجنبية الحديثة أن اثار الانتهاك الجنسي اللاحقة على الاطفال عديدة ومؤلمة • إذ تظهر لديهم اضطرابات نفسية مثل القلق الحاد وتصرفات ترمي الى تدمير الذات وفقدان الاحترام للذات وربما تظهر الكآبة ومحاولات الانتحار وانحراف السلوك نحو الاجرام ، واضطرابات الاكل والنوم ، وان هذه الاضطرابات تتضح عند الاناث اكثر منها لدى الذكور • إن معظم الاثار الصدمية للانتهاك تعد حادة في تأثيرها ، ثم تتحول تأثيراتها فتصبح مزمنة • كما وجد من بعض الدراسات الاجنبية الحديثة ان مشاهد العنف بين الزوجين التي يلحظها الاطفال تجعلهم يعانون هم ايضا من اضطرابات نفسية تتمثل بالرعب والخوف والفزع، وقد تستديم هذه الاضطرابات •

كيف يواجه الانتهاك

طالما ان الانتهاك يبدأ في الاسرة وينتهي بالمجتمع ، فإن الجهد يبذل اولا لاجل الاسرة • ويتناول الجهد امرين وقاية من احتمال حدوث الانتهاك ، وعلاج له بعد حدوثه • فكثير من الاباء عندنا يرونه إصلاحا لما اعوج ، وليس في ذلك ادنى صحة ، فما وجد في اية دراسة سابقة ان العقوبة القاسية لها اثر على السلوك ايجاباً ، بل الصحيح هو الاثر السلبي • فالانتهاك عدوى تنتقل من جيل الى جيل ، ومن اخ لاخ او لاخت • والتكرار للانتهاك وحده من دون الشدة ، ليس اقل خطورة من الشدة وحدها من دون التكرار المستمر • إذن تبدأ الوقاية في الاسرة ، وتستهل التوعية بها جنبا الى جنب مع المدرسة • فاذا يممنا شطر المجتمع دعونا الى انشاء مراكز للصحة النفسية للطفل للتشخيص وللتدخل ، ودعونا الى المطالبة بتشريع قانوني يسمح بتدخل السلطة عندما يثبت عدم اهلية الوالدين •

فاذا اتجهنا الى العلاج من امر قد حصل ، بدأنا بمراكز الصحة النفسية الخاصة بالاطفال ، فهي المؤهلة لتقديم التوجيه للوالدين عن المخاطر الوخيمة التي يمكن ان تلحق بالطفل ، اذا ما اسيء له في طفولته . وقد يتناول امر العلاج استخدام اساليب علاجية سلوكية معينة تتطلب جهدا ليس بالقليل من اجل تخفيف حدة آثار الانتهاك . وعندما اقول ان الانتهاك ينتهي بالمجتمع ، بمعنى ان آثاره تصب فيه وتلقي بتبعاته عليه .

نحن لا نريد ان نعطي إنطباعاً بان كل شر في هذا العالم هو نتيجة مباشرة لسوء معاملة الطفل ، لكننا نعتقد انه كيفما اريد لاطفالنا ان يعودوا عليه من شدة قسوة ، فذلك له تأثيره العميق على حال المجتمع فيما بعد .

*

1. Appelbaum, S. Alan : Developmental Retardation in Infants As a Concomitant of Physical Child Abuse. J. Abnormal Psychology , Vol. 5, No. 4, 1977.

2. Browne, Kevin : Mother Infant Interaction and Attachment in Physically Abusing Families. Psychological Abstract, Vol. 76, No. 10, 1989.

3. Dembo, Richard : The Relationship of Child Abuse to Future Alcoholics. Psychological Abstract, Vol. 76, No. 10, 1989.

4. Deutsch, Milton A. : Who Abuses and Who does not : A Social Competence Model of Child Abuse. Dissertation Abstract International . Vol. 41, No. 7, 1981.

5. Drowing L. Charles : Demographic Differences of Abused Children. Dissertation Abstract International.

6. Hart, E. Loorraine & Mades Lother : Effect of Sexual and Physical Abuse : A Comparison of Adolescent Impatients. Journal of Child Psychiatry and Human Development, Vol. 20, 1989.

7. Justice, Blaire : The Abusing Family. N.Y : Human Science Press, 1989.

8. Korbin, Jill . Child Abuse and Neglect, Cross Cultural Perspectives. Los Angeles : Uni . California Press, 1979.

9. McLaren, Jennifer . Childhood Problems Associated with Abuse and Neglect., J. Canada's Mental Health, 1989.

10. Ney, G. Philip . Trans generational Child Abuse . Journal of Child Psychiatry and Human Development, Vol : 18. No. 3, 1988.

11. Ney, G. Philip : Triangles of Abuse : A Model of Maltreatment. Journal of Child Abuse & Neglect, Vol. 12, 1988.

12. Ney, G. Philip : Causes of Child Abuse and Neglect. Journal Child Psychiatry, Vol. 37 No. 8, 1992.

13. Oliver, J.E. : Successive Generatins of Child Maltreatment : British Journal of Psychiatry.

14. Putnam, W. Frank : Dissociative Disorders in Children : Behavioral Profiles and Problems. J. Child Abuse and Neglect Vol. 17, 1993.

15. Raskin, Marjorie : Abuse Child and Anxiety in the Adult Psychological Abstract, Vol. 76, No. 10, 1989.

16. Stevenson. Olive : Child Abuse. England : Harvester Whechsheot, 1989.

17. Williams, J. Gertrud & Money, John : Traumatic Abuse and Neglect of Children at Home . Maryland : The John Hopkins Press, 1980.

18. Wolfe, A. David : Child Abuse and Family Violence As Determinants of Child Psychopathology. Canadian Journal of Behavioral Science , Vol. 23, No. 3 1991.

التلقي وانتاج الدلالة
قراءة في قصيدة للمتنبي

الدكتور ماجد الجعافرة
جامعة اليرموك ــ الاردن

الملخــص

يستمد النص حياته من عملية القراءة ، من التفاعل الــذي يحدث بــين القارىء الذي أنشىء النص من اجله ، ولغة النص التي يتحرك معها • تلــك اللغة التي تفجر طاقات لا حدود لها • وبما ان الشعر الغنائي صناعة من الالفاظ صوتا ودلالة فالحديــث عن إنتاج المعنى وتولــد الدلالة يستدعي مفهــوم الصورة ولفظها •

عالجت هذه الورقة دور المتلقي في إنتاج الدلالة من خلال نص للمتنبي تمثل فيه الإنشاد عاملا من عوامل التأثير، إن عن طريق المعنى او باللحن وتنويعاته• ورأينا الشاعر يتخذ من بنية التضاد مقوما اساسيــا في رؤيتــه للاشياء ، وفي التعبير عنها •

إن الشيء الاساسي في قراءة كل عمل ادبي هو التفاعل بين بنيته ومتلقيه ، لهذا السبب نبهت نظرية الفينومينولوجيا بإلحاح الى ان دراسة العمل الادبي يجب ان تهتم ليس بالنص الفعلي فحسب بل وبالدرجة نفسها بالافعال المرتبطة بالتجاوب مع ذلك النص[1] .

ويعتقد أصحاب نظرية جمالية التلقي ان العمل الادبي يتشكل من خلال فعل القراءة وان جوهره ومعناه لا ينتميان الى النص . بل الى العملية التي تتفاعل فيها الوحدات البنائية النصية مع تصور القارىء ، ومن خلال اشتغال القارىء به[2].

إن نظرية جمالية التلقي تولي القارىء عناية كبيرة ، وتجعله عنصراً مؤثراً في إنتاج النص الادبي إذ لم يكن دور القارىء في صلته دوراً استهلاكياً فقط ، ولم يكن يقتصر على الاستجابة للنص استجابة حرة ترضي ظمأه الجمالي ، وتشبع فيه وهو في عزلته البهيجة تلك نزوعه الى التلقي الشخصي المعن في كثافته وفرديته ، بل اصبح هذا القارىء طاغية جديداً ، تشكل استجابته للنص نسيج الموقف النقدي برمته[3].

---

(1) فولفغانغ إيزر : « فعل القراءة : نظرية جمالية التجارب » ، ترجمة د. حميد الحمداني . ود. الجلالي الكدية ، منشورات مكتبة المناهل ، فاس ، ١٩٩٥م ، ص ١٢ .

(2) روبرت هولب : « نظرية التلقي » ، ترجمة عز الدين اسماعيل ، جدة ، النادي الادبي الثقافي بجدة ، ١٩٩٤م ، ص ١٤٤ .

(3) د. علي جعفر العلاق : « الشعر والتلقي » ، دار الشروق ، عمان ، ١٩٩٧م ، ص ٦٤ .

وقراءة النص تستحيل الى كتابة اخرى ؛ فتكون كتابة ، او كتابة تتولد عن كتابة ، او نص ينشأ عن نص ؛ فتتلاحم النصوص وتتضافر وتتناتج ، فإذا القراءة تحليل ، واذا التحليل تأويل ؛ واذا التأويل ينزلق الى شبكة من المعطيات والمنافذ التي لا تكاد توصد ابوابها ؛ فاذا تأويل النص قد يفضي الى استعمال النص ، كما يومىء الى بعض ذلك « امبرتو إيكو » ؛ واذا استعمال النص قد يفضي الى تأويل النص ؛ واذا التأويل قد لا يفضي إلا الى نفسه ؛ واذا الاستعمال قد لا يفضي إلا لذاته ؛ واذا مسألة المقصديّة تطفر الى الذهن ؛ واذا قارىء النص يقرؤه إن شاء في حل من مقصدية كتابه ؛ كما كان كاتبه كتبه في حل من مقصدية متلقية ؛ واذا النص مؤسسة ادبية معقدة تجسّد ملحمة الدلالة ، وتناغم الإبداع الاروع[٤].

ويستمد النص حياته من عملية القراءة التي يقوم بها الافراد ، ويفترض في ذلك ان التقاء النص مع القارىء هو الذي يمنح النص الحياة[٥].

ويرى بعضهم : أن القراءة لا تخرج من مأزقها إلا اذا توقفنا عن النظر الى النص بوصفه احادي المعنى والى القراءة بوصفها تتطابق مع النص ، وبدلا من ذلك ، علينا ان ننظر الى القراءة بوصفها اختلافاً عن النص لا تماهيا معه ، ونهتم بما تظهر قراءة النص من التعدد والتنوع ، والتفاضل والترجح ، والاختلاف والتعارض ، والتراتب والتنضد ، والتراكم والترسب[٦].

ركزت الدراسات في الاونة الاخيرة على التفاعل الذي يحدث بين القارىء الذي انشىء النص من اجله ، ولغة النص التي يتحرك معها . فالنص عالم

---

(٤) د. عبدالملك مرتاض : « النص الادبي : إشكالية الماهية ؛ زئبقية المفهوم » بحث مقدم الى مؤتمر النقد الادبي السابع في جامعة اليرموك ، ١٩٩٨م .

(٥) د. يوسف نور عوض : « نظرية النقد الادبي الحديث » ط١ ، ص ١٠١ ، ١٩٩٤م .

(٦) علي حرب : « قراءة مالم يقرا . نقد القراءة » ، مجلة الفكر العربي المعاصر ، العدد ٦٠ ـ ٦١ ، ١٩٨٩م ، ص ٤٧ .

دلالات وبنيات يتم إنتاجها من خلال ذات النص ، كما تتجلى من خلال الكاتب والقارىء . ولا شك في ان انتاج النص مرتبط بزمن محدد . اما تلقيه او التأثير الذي يحدثه فلا يرتبط بزمان بعينه . بل تحدث تلك العملية في ازمنة عدة ، وتظل تنتج تفسيرات تتعدد بتعدد القراءات . وينغلق حين يعجز القارىء عن النفاذ الى داخله ويظل عند السطح(٧) .

وينطلق المرء من اللغة في اية صورة قد تشكلت منها ، فهي التي تفجر طاقات لا حدود لها ؛ ومن ثم لا جدوى من وضع حدود او قيود او ضوابط صارمة لهذه الطاقات . إن المعاني تتحرك داخل النص في اتجاهات متباينة ، تشكل نسيجاً متشابكاً معقداً ، يصعب تفكيك اجزائها من دون اتصال مباشر في اثناء هذه العملية بمفاهيم جامعة تقوم بالحفاظ على التكوين الموحد . ولذلك فقد عني علماء النص بالمستوى الدلالي عناية كبيرة ؛ حيث انه يسهم في تلك الاستمرارية إسهاماً فعالا .

ويتبين ذلك بوضوح في المبدأ الذي حرص فندايك عليه حين قال : « على أن فهم المتتاليات اللغوية والجمل النصية المركبة يقتضي عددا من الملامح البارزة ويأتي في مقدمتها ــ طبقا لاراء علماء النص المحدثين ــ ان عمليات التكوين تتجه بصفة خاصة الى الجانب الدلالي . أي أن المتحدث يريد ان يسجل في ذاكرته قبل كل شيء المعلومات المتصلة بالمضمون المأخوذة من الجمل والمتتاليات لا تلك المعلومات الصوتية او الصرفية او المعجمية او النحوية . وان كانت هذه الاخيرة بطبيعة الحال ادوات يتم عن طريقها تكوين البيانات الدلالية والتعبير عنها(٨) .

---

(٧) د. سعيد حسن بحيري : « علم لغة النص » ، الشركة المصرية العالمية للنشر ــ لونجمان . ١٩٩٧م ، ص ١٦٨ .

(٨) نفسه ص ١٧٤ .

وللقارىء دور فعال في عملية إنتاج النص ذاتها • وترى نظرية الإتصال والتأثير لدى إيرز : ان عملية القراءة تسير في اتجاهين متباينين ، من النص الى القارىء ومن القارىء الى النص .• فبقدر ما يقدم النص للقارىء ، يضفي القارىء على النص ابعادا جديدة ، قد لا يكون لها وجود في النص • وعندما تنتهي العملية باحساس القارىء بالاشباع النفسي والنصي . تتلاقى وجهات النظر بين القارىء والنص • عندئذٍ تكون عملية القراءة قد ادت دورها — لا من حيث ان النص قد استقبل ، بل من حيث انه قد اثر في القارىء وتأثر به على حدٍّ سواء(٩) •

ويصيب النص قارئه بعدوى المشاعر والعواطف التي يحسّ بها المبدع(١٠) •

إن النص معقد متشابك لا يمنح معناه بسهولة ، ولا يهب نفسه في يسر ، بل لا تستنفذ معانيه تفاسير عدّة ، وهو متمثل في كل تفسير غير انه غير متضمن فيه بدرجة تحول دون إعادة القراءة • إن كل قراءة تشكل جزءا من المعنى اللانهائي وتعكس قدرة القارىء على النفاذ الى عالمه(١١) • وبعد ذلك نتساءل أنريد من تحليل النص الوصول الى معناه او ما قصد إليه مؤلفه حين انتجه . أم أن قراءة النص تتحول الى عملية حوار مستمر بين نص وقارىء سواء انتهى هذا الحوار الى صياغة للمعنى ام الى تفكيك اجزاء معقدة تحقق اقترابا اليه ؟ أيمكن ان يوفق ذلك القارىء الخاص الى ما يسمى بالمعنى او الدلالة الكلية للنص ، ام ان تفسير النص غير منوط بقارىء بعينه ، يشترك فيه قراء كثيرون يختلفون في نتائجهم ظاهريا ولكنهم متفقون في الحقيقة •

إن نظرية الاتصال والتأثير تنظر الى المعنى على انه عملية مستمرة ومصاحبة لتجربة القارىء المتطورة مع تطور النص • وهي عملية لا يمكن

---

(٩) نفسه ص ١٧٨ .
(١٠) نفسه ص ١٧٩ .
(١١) نفسه .

للقارىء الفرد ان يقطع بنتائجها • ذلك ان تفسيره للنص ليس سوى مظهر لتفسير جماعي للنص ، لان المعنى لا يرتبط بشيء حقيقي ، بل بمشكلة توضح في محاور مختلفة • وبناء على هذا فإن القارىء لا يبحث عن معنى ، بل عن تفسير موجه للمعنى •

ومن هنا يرى بارت ان القارىء يتحرك في ثورته على التقاليد الموروثة في عملية التعامل مع النص ، حيث لا يثبت على تعليل او توجيه او وصف بل انه يهدم ليبني ، ثم يهدم ليبني ، في حركة متمردة لا تهدأ مع النص من دون التوقف عند دلالة واحدة ثابتة ، مما يجعل للنص قراءات لا نهائية .• وكل هذا يجعلنا نقول : ان النص الادبي ليست وظيفته تحريك المشاعر ، بل إن وظيفته الاولى إنتاج المعرفة[١٢] • ولا تعني استمرارية القراءة — في رأي إيزر — مع تتابع الجمل ان المعنى يكون منسابا بحيث لا يتوقف القارىء ، بل ان القارىء لابد ان يتوقف مع النص الجيد الذي لا يستهلك نفسه ، وذلك عن طريق ترك فراغات على نحو متعمد لكي يملأها القارىء • وعادة ما تنجم الفراغات من حيل اسلوبية ، لا يكتشفها ويفهم ابعادها ودلالاتها إلا قارىء متمرس .••

وكل قراءة اخرى للنص من القارىء نفسه قد تجد معنى آخر وتفسيرا آخر وهذا كله يدل على مدى الثراء الذي يكتسبه النص من خلال القراءات المتعددة حتى من قبل القارىء الواحد[١٣] • وهكذا فالعلاقة بين القارىء والنص تأخذ اشكالا عدة : مثل التلاقي والتداخل والتفاعل والحوار والجدل[١٤] • ويجب الالتفات الى ان الشعر الغنائي صناعة من الالفاظ صوتاً ودلالة ابتداء من أصغر وحدة جملية الى اطول القصائد ، ولذلك ما انفك

---

(١٢) نفسه ص ١٨٤ .

(١٣) نفسه ص ١٨٤ .

(١٤) د. محمد العمري : « القارىء وإنتاج النص » بحث مقدم الى مؤتمر النقد السابع في جامعة اليرموك .

الحديث عن المعنى الشعري يستدعي مفهوم الصورة ولفظها . والفرق بين الشاعر وصانع الالغاز هو : أن صانع الالغاز يحاول إخفاء معنى معروف لديه سلفاً في حين ان الشاعر يبذل جهداً للاقتراب من معنى ممكن لا يدري اين سيوصل مسلسله ، لو استمر الى نهايته إن كانت له نهاية اصلا . ثم يأتي القارىء يحاول في البداية السير في الطريق نفسه مع ترك ما يمكن من المعالم خلفه عله يتمكن من وصف الطريق ، او العودة بسلام ، ولكن هيهات فحتى الشاعر ليس في وسعه ان يسير مرة اخرى في نفس الطريق .

والنص : هو سمات لحظة شعرية أفلتت ، يسعى القارىء جاهدا لإعادة تمثلها وتمثيلها(١٥).

الدراسة التطبيقية :

اتخذت الدراسة مجالا تطبيقيا في قراءة قصيدة للمتنبي في مدح كافور تسير على هذا النحو :(١٦)

١ ـ من الجآذر في زي الاعاريب حمر الحلى والمطايا والجلابيب
٢ ـ إن كنت تسأل شكاً في معارفها فمن بلاك بتسهيد وتعذيب
٣ ـ لا تجزني بضنىً بي بعدها بقرٌ تجري دموعي مسكوباً بمسكوب
٤ ـ سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعونٍ ومضروب
٥ ـ وربما وخدت أيدي المطى بها على نجيع من الفرسان مصبوب
٦ ـ كم زورةٍ لك في الاعراب خافية أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
٧ ـ !زورهم وسواد الليل يشفع لي وأنثني وبياض الصبح يغري بي

(١٥) العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب ، للشيخ ناصيف اليازجي . ص ٤٨٠ .

(١٦) علي الجندي : « الشعراء وإنشاء الشعر » ؛ دار المعارف ١٩٦٩ ، ص ٨٨.

٨ــ قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب
٩ــ جيرانها وهم شر الجوار لها وصحبها وهم شرّ الاصاحيب
١٠ــ فؤاد كلِّ محبٍّ في بيوتهم ومال كل أخيذ المال محروب
١١ــ ما اوجه الحضر المستحسنات به كأوجه البدويات الرّعابيب
١٢ــ حسن الحضارة مجلوب" بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب
١٣ــ أين المعيز من الآرام ناظرة وغير ناظرة في الحسن والطّيب
١٤ــ أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
١٥ــ ولا برزن من الحمام ماثلة اوراكهن صقيلات العراقيب
١٦ــ ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
١٧ــ ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب
١٨ــ ليت الحوادث باعتني الذي اخذت مني بحلمي الذي اعطت وتجريبي
١٩ــ فما الحداثة من حلم بمانعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب

* * *

٢٠ــ ترعرع الملك الاستاذ مكتهلا قبل اكتهال ، أديبا قبل تأديب
٢١ــ مجربا فهما من قبل تجربة مهذبا كرما من غير تهذيب
٢٢ــ حتى أصاب من الدنيا نهايتها وهمه في ابتداءات وتشبيب
٢٣ــ يدبر الملك من مصر الى عدن الى العراق فأرض الروم فالنوب
٢٤ــ إذا أتتها الرياح النكب من بلد فما تهب بها إلا بترتيب
٢٥ــ ولا تجاوزها شمس اذا شرقت إلا ومنه لها إذن بتغريب
٢٦ــ يصرّف الامر فيها طين خاتمه ولو تطلّس منه كلّ مكتوب
٢٧ــ يحطّ كلّ طويل الرمح حامله من سرج كلّ طويل الباع يعبوب
٢٨ــ كأن كل سؤالٍ في مسامعه قميص يوسف في أجفان يعقوب
٢٩ــ إذا غزته أعاديه بمسألةٍ فقد غزته بجيشٍ غير مغلوب

٣٠ـ أو حاربته فما تنجو بتقدمةٍ ممّا اراد ولا تنجو بتجبيب
٣١ـ أضرت شجاعته أقصى كتائبه على الحمام فما موت" بمرهوب
٣٢ـ قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم الى غيوث يديه والشآبيب
٣٣ـ الى الذي تهب الدولات راحته ولا يمنّ على آثار موهوب
٣٤ـ ولا يروع بمغدورٍ به احداً ولا يفزّع موفوراً بمنكوب
٣٥ـ بلى يروع بذي جيشٍ يجدّله ذا مثله في احمّ النقع غربيب
٣٦ـ وجدت أنفع مالٍ كنت أذخره ما في السوابق من جريٍ وتقريب
٣٧ـ لما رأين صروف الدّهر تغدر بي وفين لي ووفت صمّ الانابيب
٣٨ـ فتن المهالك حتى قال قائلها ماذا لقينا من الجرد السرّاحيب
٣٩ـ تهوي بمنجردٍ ليست مذاهبه للبس ثوبٍ ومأكولٍ ومشروب
٤٠ـ يرى النجوم بعيني من يحاولها كأنها سلب" في عين مسلوب
٤١ـ حتى وصلت الى نفسٍ محجّبةٍ تلقى النفوس بفضلٍ غير محجوب
٤٢ـ في جسم اروع صافي العقل تضحكه خلائق الناس إضحاك الاعاجيب
٤٣ـ فالحمد قبل له والحمد بعد له وللقنا ولإدلاجي وتأويبي
٤٤ـ وكيف اكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بي يا كل مطلوبي
٤٥ـ يا ايها الملك الغاني بتسميةٍ في الشرق والغرب عن وصفٍ وتلقيب
٤٦ـ أنت الحبيب ولكني اعوذ به من ان اكون محباً غير محبوب

المقطع الاول

« المقـدمــة »

علينا ان ننتبه في اثناء قراءتنا للشعر القديم الى عملية الإنشاء والاداء في المقام الاول ، ومن ثم نلتفت الى المكونات الاستعارية والمجازية • ذلك لان الشعر القديم قام على الإنشاد ، ومعنى هذا ان الشاعر كان يقف حيث ينتهي المعنى ، وقد يكرر ويعيد ويوصل ، فالفصل والوصل مهمان في توليد الدلالة وتأكيدها •

ويعد الإنشاد صفة للقول الجميل في الشعر وهو ليس إلا ضرب من الغناء ، والغناء يعتمد اساساً على جمال الصوت ورقّته ورخامته[17]•

والإنشاد في الشعر ، عامل من عوامل التأثير ، إن عن طريق المعنى او باللحن وتنويعاته ، والصوت وطبقاته والإيقاع ودرجاته ، وقد اختلف الشعراء الفطاحل في هذه الصفة فمنهم من كان يجيد الإلقاء والعرض وإخراج الاصوات إخراجاً حسناً ، وإيتاء البلاغة في التنغيم والترنيم ، ومنهم من كان يخطىء السبيل الى سمع المتلقي بصوته الاجش وسوء الدراية بأداء الصوت تضخيماً وترقيقاً ، رفعاً وخفضاً ، إنكساراً وامتداداً[18]•

فالمتنبي حينما ينشد : من الجآذر ؟ نعتقد أنه وقف هنا لان المعنى تم من خلال هذه الجملة الاسمية الاستفهامية • وتركت طبيعة الإنشاد الوقفية هنا المتلقي في حيرة لبعض الوقت كي يتخيل الإجابة ، او يتوقعها ، ويتساءل

---

(١٧) د. خالد الغريبي : « الشعر ومستويات التلقي » ، بحث مقدم الى المؤتمر السابع للنقد الادبي في جامعة اليرموك ، ص ٤ .

(١٨) د. محمد فتوح : « شعر المتنبي قراءة اخرى » ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٨٨ ، ص ٧٩ .

هل الشاعر يسأل عن معنى الجآذر ؟ وما علاقة هذا بموقفه المدحي ؟ ويقوده السؤال الى الإجابة . فالجآذر هي مفرد جؤذر والجؤذر ولد البقرة الوحشية ، ولكن يخيب توقع المتلقي حينما يعيد الشاعر إنشاده من جديد موصلا الجملة الاستفهامية بشبه الجملة بعدها : من الجآذر في زي الاعاريب .

فإذا الإجابة عن الجآذر تختلف ، إذ هي النساء الاعرابيات ثم يوقف على نهاية الشطر ، وبعد ذلك يستأنف النشيد بشكلٍ فيه وقفات ايضا يتيحها توالي المعطوفات على هذا النحو :

حمر الحلى ، والمطايا ، والجلابيب

إن القراءة الإنشادية على هذا النحو تتيح للمتلقي أن يسترجع ما هو محذوف من البيت ويؤثر على الدلالة والمعنى . فحمر الحلى = انتجت دلالة اللون أنهن منغمسات في الذهب أو الياقوت .

وحمر المطايا = أن ابلهن كريمة

وحمر الجلابيب = دلالة على لبس المعصفرات وثياب الملوك .

وأول ما يسترعى نظر القارىء في بيت المطلع دالّ الاعاريب . وإثارته للقارىء ناجمة عن كونه قليل الاستعمال ، فالمستعمل الاعراب ، فالاعاريب جمع لاعراب وفي هذا تعمد للجمع الثاني ودلالته توكيدية وذات بعد متعمق ومتجذر في العروبة . يوحي بان الشاعر يركز عليه بكل عمق وكل هذا ناتج عن استخدامه لجمع الجمع ، وليس هذا وحسب ، بل انه جعله مصرعا مع نهاية البيت كي يبشر بالقافية التي بدورها تتكرر في القصيدة لتبشر هي الاخرى بميلاد القصيدة ككل . إن اختيار هذا الدال الاعاريب لبناء القافية عليه يدلل على مدى اهميته في بناء القصيدة لان تكرار القافية سيظل يذكر به إيقاعيا ، وكأنه يفرض سلطته لا على البيت الاول من خلال التصريع وإنما على القصيدة كلها .

ومن هنا لا نعتقد أن تكرره في القصيدة بأنماط مختلفة جاء اعتباطا ، فقد تكرر بمادته في البيت السادس « الاعراب » ثم بمعناه في البيت الحادي عشر « البدويات » •

إن دالّ « الاعاريب » يشكل مثيرا اصليا في الصورة الشعرية ويمكننا من خلال تتبعه في حركة القصيدة أن نفك مغاليقها وان نصل الى تفسير قد يوجهنا الى المعنى او الدلالة الكلية للقصيدة •

إن هذا المثير الاصلي يختلط ويمتزج بمستشار إضافي يتمثل في دال « الجآذر » ويتكرر هو الاخر في أبيات كثيرة متخذا صورا مختلفة ، إذ يذكر في البيت الثالث في دال : البقر وفي البيت السادس في صورة متوحش هو الذئب ، وفي البيتين السابع والثامن بلفظة « الوحش » وفي البيتين الثالث عشر والرابع عشر بدوال : الارام ، والظباء •

إن التشابه القائم بين المثير الاصلي « الاعاريب » والمستشار الاضافي يكمن في ان الطرفين يسكنان البادية ، يقول :

قد وافقوا الوحش في سكنى مراتعها وخالفوها بتقويض وتطنيب

وتربطهما علائق الجوار من جهة والصحبة والمعايشة من جهة اخرى •

إن صورة الاعاريب تستدعي صورة وحش البادية وحيوانها ، وما تتميز به هذه الحيوانات من معاني التأبد والافتراس وأصالة الطبيعة ، وهي معاني تتشابك وتمتزج بصفات الاعاريب « حمر الحلى والمطايا والجلابيب » وتختلط بمنعتهم ومحافظتهم على كرامتهم •

يقول :

سوائر ربما سارت هوادجها منيعة بين مطعونٍ ومضروب
وربما وخدت أيدي المطى بها على نجيع من الفرسان مصبوب

إن هذا المستوى من القراءة يولد دلالة : معناها ان الطبيعة تحتضن الاعراب والوحش ، مستأنسين بمنعتها وخلقها ، وأصالتها وقيمها ، لم تلوث ولم تخدش اصالتها .

وهذا التوقع من القراءة يقودنا الى توقع آخر يستخدم بنية التضاد ، حينما يوازن الشاعر بين جمال البدو الطبيعي وجمال الحضر الصناعي بين الاصالة والزيف .

بين الكلام الفصيح والتفاصح في الكلام ، بين الزينة الطبيعية والزينة الصناعية بين المشية المقتصدة والمشية المصطنعة .

وكل هذه المفارقات جاءت بشكل مباشر لتنبىء وترهص بولادة معنى مفاده ان الصدق مع النفس امر سامٍ ، به قوام المرء واستواء شخصيته ، إذ راحت القصيدة توجهنا الى أن الامر لم يكن حضارة وبداوة فحسب وإنما هي في التحليل الاخير « قضية الاصالة المنشودة في كل شيء ، وبلا حدود ، قضية الصدق مع النفس حتى لو ابتعثت صراحة هذا الصدق من المرارة ما تبتعثه صراحة المشيب »[19].

ومن هوى كل من ليست مموهة تركت لون مشيبي غير مخضوب
ومن هوى الصدق في قولي وعادته رغبت عن شعر في الوجه مكذوب

إن القارىء الضمني الذي يرافق النص منذ بنائه، بل من مبتدئه تمثل في استدعاءات الاعاريب لما هو اقرب اليهم في طباعهم وسكناهم وبيئتهم وهذا استدعى من القارىء ان يتحسس صفاتهم ومميزاتهم القائمة على الفطرة والعفوية والمنعة والصدق ، وهي بنية ظلت محايثة للنص الاصلي الذي يمثل في الكشف عن هوية الاعاريب من خلال تلك البنية فتحققت لدى السامع

---

(١٩) فاضل ثامر : « مدارات نقدية في اشكالية النقد والحداثة والابداع » ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية ص ٢٣١ .

والقارىء أن مرجعية النص تدور حول الصدق مع النفس ونبذ الكذب والزيف .

فانظر الى قوله :

أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفنّ بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

إن البدويات مطبوعات على حسن الكلام وحسن الحواجب ، فلا يصبغن حواجبهن بالسواد ، ولا يمضغن الكلام لان كلامهن فيه غنة فلا يحتجن الى تكلفها ، بينما غيرهن يتفاصحن بكلامهن ويصطنعن زينتهن اصطناعا .

إن ذكر الشاعر للاعاريب يستلزم ذكر الضد وهو العجم ، وما العربي الاصيل النقي سوى الشاعر ، والاعجمي المزيف الكذاب سوى كافور ممدوحه ، ومن هنا استطاع النص ان يقوم على متواليات لغوية كثيرة من خلال بنية المفارقة الصريحة عبر هذا السيل المتدفق من البنى ليخبىء في داخلها بنية قوية الدلالة على ان ما اراده هو كافور حينما قال :

ما عرفن بها مضغ الكلام

فمضغ الكلام يعني التفاصح وتكلف الفصاحة وهذه سمة الاعجمي .

المقطع الثاني

حاول الشاعر في المقطع الاول من القصيدة ان يظهر لممدوحه بمظهر الاعرابي الاصيل الذي يهوى الصدق ويتخذه عادة له ، ويتمنى ان تصل عدوى الصدق هذه الى الاخر « الممدوح » وهذا يظهر جليا من خلال الصور التقابلية التي امتلأ بها المقطع الاول وهو يوازن بين البداوة والحضارة ، على مثل هذا النحو المتعاكس :

حسن الحضارة	حسن البداوة
بالزيف	بالفطرة
بالتطرية	بالاصالة
بالتمويه	بالبساطة
بالكذب	بالصدق

إن الرؤية التي يريد الشاعر الوصول اليها عن طريق هـذه المفارقة في الصورة هي الصدق مع النفس والانسجام مع الذات ولو كلفه ذلك غاليـا ، كما تكلف صورة المشيب صاحبها غاليا •

إن هذه الصورة التقابلية تجعل « الممدوح » ينتمي الى الدائرة الاولى ، وتجعل الشاعر ينتمي الى الدائرة الثانية •

ومن هنا نلاحظ الشاعر يستمر في مثل هذه المقابلات في المقطع الثانـي الذي وصل فيه الى الممدوح ، ومن هذه الصور التقابل بين الشباب والشـيب على هذا النحو :

الممدوح	الشاعر
الشباب	الشيب
الحداثة	التجربة

ولكنه يقوم بعملية إذابة لهذا التناقض بينه وبين الممدوح بشكل تدريجي إذ بدا في الصورة التقابلية الاولى على النقيض تماما مع الممدوح ولكنـه في الصورة الجديدة يخفف من غلواء التناقض يقول : « قد يوجد الحلـم في الشبان والشيب » •

إن الشاعر من خلال متابعتنا لصوره المختلفة نجده يتجه نحو مصالحـة مع الممدوح فإذا هو يقوم بعملية نقض للصورة الاصلية التي ركز عليهـا في

المقطع الاول ، صورة الصدق في مواجهة الكذب ، صورة الفطرة والطبع في مقابل التكلف والتصنع ، متخذا من الجناس والطباق والتوازي عناصر في الصورة على هذا النحو :

ترعرع الملك الاستاذ (الممدوح) :

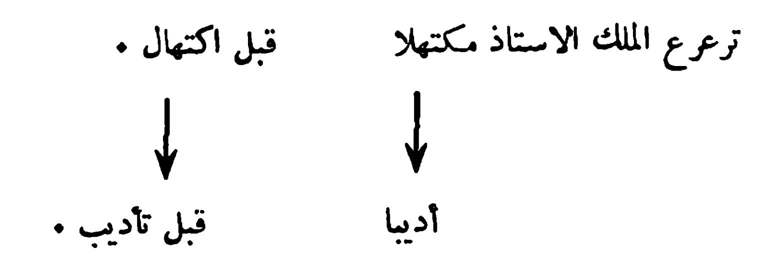
مكتهلا	قبل اكتهال
أديبا	قبل تأديب

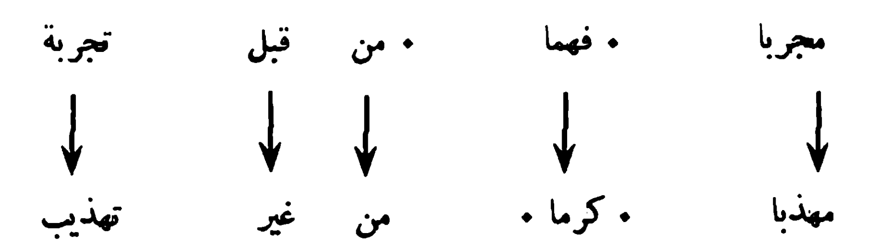
ويتوسع في رسم الصورة على هذا النحو ايضا :

مجربا فهما	من قبل تجربة
مهذبا كرما	من غير تهذيب

فالممدوح مفطور على الادب والحلم والتجربة والفهم والتهذيب والكرم من دون ان يكتسب هذه الصفات اكتسابا ، وهذه صورة تنقض الصورة الاولى التي رسمها له في المقطع الاول ، إذ إن الاستقرار في صورة التضاد لا يدوم للشاعر ، لان المعنى سرعان ما يتغير .

والتقسيم الموسيقي الذي اوجده الشاعر في الصورة السابقة يساعده في عملية الوقف وهو ينشد وهذا بدوره يؤثر في المتلقي إذ يمكننا ان نقرأ البيتين هكذا :





إن الذي يساعد على هذه القراءة الإنشادية هو بنية التوازن التي اشتملت عليها الابيات ، إذ إن فاعلية التوازي ماثلة في تصاعد الصفات الممنوحة الى الممدوح ، والدلالة المتولدة عن هذا اللون من التوازي تكمن في تقوية الفكرة التي يريد الشاعر تقديمها ولتكوين تأثير مباشر على الاذن[٢٠] . مما يسهم في ترسيخ المعنى في نفس المتلقي . ويبرز في هذه الابيات عنصر من العناصر الاساسية التي تمنح التوازي بعدا إيحائيا يسعى الى تعميق الفكرة من خلال تكرارها ؛ وإن تكرار البناء ليس هو المظهر الوحيد من مظاهر التوازي ، وإنما يقوم التوازي ايضا على تكرار الفكرة الذي يوفر إنشادا إيقاعيا او يخلق أسلوبا غنائيا[٢١].

إن تغني الشاعر بهذه الصفات على هذا النحو المتكرر الذي تفرضه بنية التوازي من جهة وبنية الجناس الاشتقاقي والتماثل في التركيب النحوي يجعلنا نحس ان الشاعر يتماهى مع شخصية ممدوحه الذي يملك مثل هذه الصفات .

وإذا كان الشاعر الحديث قد تصرف في البياض ، ولعب بالوقف مشكلا فضاءات ملموسة معبرة ، فإن الشاعر القديم قد استعمل الوسائل السمعية الترصيعية داخل البيت ، على مثل هذا النحو الذي رأينا وهي قائمة على

---

(٢٠) المصدر السابق ص ٢٣٤ ، وانظر ظاهرة التوازي في قصيدة الخنساء ، د. موسى ربابعة ، مجلة دراسات ، مجلد ٢٢ ، العدد ٥ ، ١٩٩٥م .

(٢١) د. محمد العمري : « القارىء وانتاج المعنى » بحث مقدم الى مؤتمر النقد الادبي السابع في جامعة اليرموك .

توازنات شتى تشعر بحركية النظم ، كما تشعر العلاقات النحوية والمنطقيـــة بحركة الدلالة[٢٢].

ويسبغ الشاعر على ممدوحه صفات اقرب الى صفات الإله ، لانه ينشد لمدوحه الكمال ، إن صورة الممـــدوح تنطلق من حالــة تشــابه مع النــاس والموجودات إلا ان الشاعر لا يرضى لمدوحه بالمشابهة إلا مع الاشياء المكتملة والمطلقة في فعلها او في صفتها . فصفة الكمال كافية في عمق الصورة حتى وإن ظلت مجرد صفة من صفات « المشبه به: ومن هنا لم تكن المشابهة عند المتنبي اداة توضيح وبيان وإنما هي طموح الى ما هو مطلق ، وكامل في الاشياء . وهـــي لذلك مجرد مرحلة الى صـــورة اللاتشـــابه او صـــورة التضاد حيث تخـــرج الموصوفات من حالة المثل الى حالة « المثال » ، ولكن ذلك لا يتحقق الا اذا مرت الصورة بمرحلة ثانية هي مرحلة المجاوزة او المبالغة[٢٣].

ومن هذه الصفات قوله :

يدبـــر الملـــك من مصـــر الى عـــدن الـــى العـــراق فأرض الروم فالنوب
إذا أتتهـــا الريـــاح النكب من بلـــد فمـــا تهـــب بهـــا إلا بترتيـــب
ولا تجاوزهـــا شـــمس اذا شـــرقت إلا ومنـــه لهـــا إذن بتغريـــب

عاب الكثير على المتنبي مثل هذه المبالغات والإفراطات المذمومة ، ولكن رأى بعض النقاد ان من عاب عليه تلك المبالغات لم يدركوا صورة الممدوح في علاقتها ببقية صور القصيدة ، فغاب عنهم ان تلك الذات المعذبة في مطالـــع القصيدة ، والتي طالما شكت النقصان والضعف إزاء الزمن والموت لا يمكـــن لها ان تسترد آمالها ، إلا في حضرة ذات اخرى قادرة على تحدي الزمن نفسه ،

(٢٢) خالد الوعلاني : « دراسة في شعر المتنبي » ، دار الجنـــوب للنشـــر ، تونس ، ١٩٩٨ ، ص ٨٦ .

(٢٣) نفسه ص ٦٨ .

لذلك كانت صورة الممدوح موازية لصورة الإله الذي يحيط علمه بكل ما في الغيب من حيل الزمان ويمتلك الموت حتى لكأنه يأتمر بأمره[٢٤].

وتلقانا في لوحة الممدوح بنية تضادية كبرى ، بين الوفاء والغدر ، ويتناول الشاعر هذه البنية متوسعا في دلالتها من خلال الاختلاط بين الضمائر الدالة على الممدوح والشاعر وممدوح الشاعر القديم ، مستغلا هذه البنية من خلال سيل من الجمل المنفية التي يسندها للمدوح ، ويثبتها للممدوح القديم « سيف الدولة » مما يوسع من دلالة هذه البنية في توضيح رؤية الشاعر للحياة والتأكيد على الهدف الذي جاء من اجله كما تكشف عنه القصيدة في حركتها . يقول :

قالوا هجرت اليه الغيث قلت لهم	الى غيوث يديه والشآبيب
الى الذي تهب الدولات راحته	ولا يمنّ على آثار موهوب
ولا يروع بمغدورٍ به احداً	ولا يفزّع موفوراً بمنكوب
بلى يروع بذي جيشٍ يجدّله	ذا مثله في احمّ النقع غربيب
وجدت أنفع مالٍ كنت أذخره	ما في السوابق من جريٍ وتقريب
لما رأين صروف الدّهر تغدر بي	وفين لي ووفت صمّ الانابيب

إن استخدام الشاعر لهذه المفردات الدالة على الغدر والفزع من مثل : يمن ، يروع ، مغدور ، يفزع ، يجدل ، وكذلك صيغ اسم المفعول : موهوب ، مغدور ، موفور ، منكوب ، تدلل على ان هناك ازمة ثقة بين الشاعر والممدوح ولو حاولنا رسم هذه البنية التضادية الكبرى لوجدناها على الشكل الاتي :

---

(٢٤) نفسه ص ٩٤ .

الوفاء	الغدر
الشاعر	الممدوح القديم
الخيل	الممدوح الجديد
الرماح	

إن تكرار الضمير العائد الى الخيل على النحو التالي :

رأين

وفين

نعمتها

بلغنك

لهـا

يدل على تقدير الشاعر الكبير لصفة الوفاء التي أسندها الى الخيـل مذكرا بها ممدوحه بذكر اسمه من خلال بنية جناسية تحمل وقعا إيقاعيا قويـا من ناحية وتنتج بعدا دلاليا عميقا يتمثل في المعنى الذي يحمله اسم كافور مـن الكفر وهو الجحدان . والجحـود لا يبتعد عن معنى الغـدر كثيرا حينمـا يخاطبه قائلا :

وكيف أكفر ياكافور نعمتها .

وعلى الرغم من تغليب الشاعر لصفة الوفاء ليعمقها لدى المتلقي من خلال بنية متولدة عن بنية التضاد الكبرى بين الوفـاء والغدر ، وهي بنية الحمـد مقابل الكفر على هذا النحو :

فالحمد قبل له ← الممدوح

والحمد بعد لها ← الخيل

وللقنا ← الرماح

ولإدلاجي ← سير الشاعر ليلا

وتأويبي ← سير الشاعر نهارا

فإن الشاعر انتهى متشككا في وفاء ممدوحه له بأن يبلغ عنده ما اراده وطلبه بصورة مباشرة من الملك قائلا :

أنت الحبيب ولكن اعوذ به من ان أكون محبا غير محبوب

فالتعبير على هذا النحو : محبا غير محبوب يحمل في طياته بنية تضادية ينتهي إليها : فمنه الحب ومن غيره غير الحب ، منه الوفاء ومن غيره الغدر .

وهكذا يتبين لنا من خلال الوقوف عند النص مدى اهمية الإنشاد في الشعر في التأثير على المتلقي وتوليد المعنى وإنتاجه . واستخدام صور التضاد والمقابلة بشكل يكشف عن رؤية الشاعر للحياة والاحياء ، وتبيان موقفه منهما من خلال سيل جارف من المفارقات ، يدفع التصوير الشعري الى الحد الاقصى الذي يسمح به التخيل داخل التصور الباني الذي كان يحكم الإبداع في الادب العربي[٢٥].

اللغـة البربريـة
لغـة عربيـة قديمـة (*)

محمد المختار العرباوي

الملخـص

النتائج التي يمكن التوصّل اليها من خلال المعلومات الاثريةوغيرهاكانت مهمة في التأكيد بوضوح على أن البربر هجرات وعلى أنهم اضافة الى معطيات اخرى ـ من منبت شرقي • ومادام الامر كذلك فلابّد أن نجد في اللغةالبربرية وأسماء الاعلام ذات الماضي العريق وفي غير هما من الجوانب الاخرى مايثبت ذلك ويقطع به •

ومن الحقائق المسلّم بها في مثل هذه الدراسات ، اعتبار الادلة اللغوية من افضل الاساليب وأوضحها لاثبات مابين الشعوب من علاقات ثقافيّة وصلات نسب ، ولـذا فنحن مدعـوون الى الخوض في هـذا الموضوع معتمديـن على منجزات علم اللّغة المقارن وعلى ماتوصل اليه من معلومات وحقائق لغوية في مجال الدراسات البربريّة وعلاقاتها باللغات العربية القديمة • وفي الاثناء سيرد استعمال « اللغة البربرية » أكثر من استعمال « اللغة اللوبية » لان هذه الاخيرة وان كان لفظها « اللوبي » قديما فليس لـه مـن الشيوع ما للفظ « البربر »•

(*) هذه دراسة مستقلة وهناك دراسة ثانية تحمل العنوان نفسه منصبة على المقارنة بين العربية والبربرية .

تصنيف البربرية والفكر الاقليمي ـ الطائفي :

من المعروف أن المدرسة التاريخيّة الاستعماريّة صنفت « البربرية » تصنيفات مختلفة ، وعلى الرغم من سقوط هذه التصنيفات ، فان بعضها مثل « الحاميّة » و « الحاميّة ـ السامية » مايزال رائجا في الحقل السياسي و الثقافي ، ولاتعود مسؤولية ذلك ـ كما يتبادر الى الذهن الى الاستعمار الثقافي وحده واستمراره في المنطقة ، وانما أيضا واساسا الى التوجّه الاقليمي لقوى اجتماعية وسياسية داخل أقطار المغرب العربي التي تلتقي في كثير من مشاربها وأغراضها بأطروحات تلك المدرسة .

وقد ادى هذا الى جانب سلبية الجماهير والركود السياسي العام ـ الى تشجيع النزعات الانعزالية على الظهور أكثر « مثل النزعة البربريّة » التي أخذت تكشف عن نفسها في أعمال سياسية وثقافية (*) تقوم على الانفصال والروح شبه الطائفية وعلى التفريق بين البربر والعرب ، ومن هنا نفهم لماذا يتمسك سليم شاكر وأضرابه بمقولة « الحامية ـ السامية » [1] التي يراها الزاوية الوحيدة الجديّة التي من خلالها يمكن دراسة العلاقة بين العرب والبربر من حيث الاصل [2] .

(*) من مثل ما يقوم به سليم شاكر ومولود معمر وأضرابهما من أصحاب التيار البربري في الجزائر وفرنسا .

١ ـ حول هذه المقولة راجع فصل : السامية ـ الحامية : في كتاب البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي منشورات المجلس القومي للثقافة العربية ١٩٩٣ .

٢ ـ سليم شاكر :
De quelque constates de discours dominat sur les langues populaires en Algerie de la marginalisation a l, exclusion - Annuaire de , Afrique du Nord , C. N. R. S. paris 1981 .

وهو هنا لايتناول البنيات اللغوية كما قد يخطر على البال ليدرسها ويقارن بينها الامر الذي يساعد أن يظفر بمعلومات لاعلى مستوى القرابات اللغوية فحسب ولكن أيضا على مستوى مسائل اخرى كالهجرة ، اذ ان للعلوم اللسانية دورا مهما في الابحاث التاريخية ولاسيما في هذا الموضوع ، وسليم شاكر لايفعل هذا وانما يعمد الى المماحكة والسفسطة الفارغة فيقول :
« العربي والسامي غير مترادفين » [٣] .

أي أن العربي ماهو الاشيء محدود وقليل الاهمية اذا ماقورن بالسامي بصفته مجموعة لغويّة واسعة فاللغة العربية على حد قول سليم شاكر « ليست الا فرعا ثانويّا وجزئيّا حديثا من المجموع السامي الذي يضم لغات أخرى عديدة تختلف عن العربيّة شديد الاختلاف » [٤] .

ثم ان السّامي نفسه على الرغم من اهميته ماهو ايضا الافرع من « اسرة لغويّة أكبر تضم في الاقل اربعة تفرعات : السّامي والكوشي ... والمصري القديم والبربري » [٥] .

ومادام الامر : كذلك فانه من العبث الذي لاطائل تحته أن نكلف انفسنا مشقّة البحث عما يكون ان يجمع بين العربية والبربرية على صعيد واحد للبون الشاسع الذي بينهما .

فالبربرية فرع مكّون « للحامية ــ السامية » في حين أن العربية فرع ثانوي من « السامية » وحسب ، ولذا يقول سليم شاكر : « الحامي ــ السّامي ليس مطابقا للسامي فما بالك أن يكون مطابقا للعربي » [٦] .

ويقول أيضا : « كل مافي الامر هو وجود علاقة نسب محتملة غير مباشرة ونائية بين اللّغتين » [٧] .

---

٣ ــ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٤ .
٤ ــ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٤ و ٤٥٥ .
٥ ــ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٥ .
٦ ــ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٤ و ٤٥٥ .
٧ ــ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٥ .

وهو هنا لايعزل البربرية عن العربية فقط وانما يعزلها عن السامية أيضا ؛ ويذهب في ذلك الى حد التشكك فيما عدّه أصلا مشتركا يجمع بينهما وهو « الحامية ـ السامية » حيث يقول : « ان كان لهذه الوحدة وجود بالمرة » (٨) .

وسليم شاكر اذ يركز على عزل البربرية فانه يحاول أن يجد لذلك أيضا مايبرره تاريخيا فيذكر « ان الاصل المشترك (أي الحاميّة ـ الساميّة يرجع بالتأكيد الى عدة الاف من السنين قبل الالفية الخامسة أو الرابعة قبل المسيح . وذلك أن الفروع المصرية والساميّة (الاكدية) شكلت الى حدود هذا التاريخ مجموعات متميزة تماما وهذا يرجع بنا الى ألفيات عشر الى الوراء » (٩) .

ومعنى هذا ان المصريّة والساميّة لغتان موغلتان في القدم وأن فروعهما حديثة نسبيّا والبربرية باعتبارها مثل المصرية والسامية فهي اذن أقدم من فروع السامية ، ومن باب أولى العربية الحديثة التكوين ، والخلاصة أن البربرية والعربية من حيث التسلسل متباعدتان تماما .

وبعد أن يطئمن سليم شاكر الى ماقدّمه من اراء يعلن ان عرضه « يتناسب مع الرأي الذي يسلّم به على العموم أخصّائيو العلوم اللسانية المقارنة » (١٠) .

وقوله هذا نعدّه صحيحا من ناحية لانه فعلا يتناسب مع مزاعم وآراء أخصائي المدرسة التاريخية الاستعمارية واقطابها من مثل : **A. Mellet** **Delafosse** و **R. Basset** ولكنه غير صحيح من حيث التعميم فهناك العديد من علماء اللغات المقارنة الذين رفضوا من قبل الخمسينات ـ مقولة الحاميّة السامية ومن هولاء علماء البربريّات اللامعين أمثال: **Francis Willam Newman**

---

٨ ـ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٥ .
٩ ـ سليم شاكر : **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٥ .
١٠ ـ سليم شاكر **De quelques ...** المصدر نفسه ص ٤٥٥ .

و Hans Stumme و Rossler الذين ساهموا مساهمة كبيرة في تقويض مقولات المدرسة التاريخية الاستعمارية •

واللافت للنظر ان سليم شاكر تفادى ذكر أي اخصائي ممن اعتمد عليهم وهذا واضح لان ذكرهم او ذكر بعضهم يحرجه ويجعل الاخرين يرتابون في دعوته ، ولامفرّ في هذا السياق من ذكر الملاحظات الاتية :

١ • قد يفهم بعضهم ان سليم شاكر تناول المادة اللغوية للبربرية ولفروعها ففحصها وقارن بينها او انه أخذ من ابحاث الاخرين استشهادات مناسبة لاقناع غيره بوجهة نظره ، والواقع أنه لم يفعل لاهذا ولاذاك وأن بحثه كان خلوا من أية استشهادات ، ولم ينتق من آراء اللّغويين ودراستهم الا هذين الكلمتين « الحامية ــ السامية » لاغير •

وقد يفهم بعضهم ان سليم شاكر من دعاة المذهب الحامي الفرنسي الذي تجاوزه الزمن ، والحقيقة أنه يتمسك به لانه لم يجد هو واضرابه على الصّعيد السياسي والثقافي ما هو أفضل منه لترويج نزعتهم الاقليمية ، الطائفية ، البربرية •

٢ • اشار سليم شاكر الى عراقة اللّغة البربريّة ليبرز اقدميتها وبعد الشقة بينها وبين العربيّة ، ولكنه يصمت عما كشفت عنه العلوم الاثارية واللّغوية وحتى الدراسات المتعلقة بالاجناس البشريّة من ان البربر هجرات ، قدمت على مراحل من الشرق ، وهو مايجعل البربريّة جزءاً من ذلك الواقع اللغوي الشرقي المسمّى بالسّامي •

والسّاميه أو العربيّة القديمة هي في تقديري اقدم مجموعةلغوية عرفت حتى الان والبربرية جزء منها والمشكل هنا ليس فيمن هو أقدم أو احدث من فروع هذه المجموعة وانما في ما يوجد بينهما من أرومة ووحدة أصـــل مشتركة •

٣ • كذلك لاحظنا أن سليم شاكر وان كان يقول بأن البربريّة فرع من

« الحاميّة ــ الساميّة » الا انه ــ كما أشرنا من قبل ــ يبدي شكه في وجود صلة بين المجموعتين على خلاف ما أظهرته الابحاث اللّغوية المقارنة في هذا الموضوع .

وهو في شكه لا يهتدي بمعطيات موضوعية وانما تقوده شهوته ونزعاته الذاتية تحقيقا لروح الانفصال الطائفيّة المستبدة بشخصه ، والامر اللافت للنظر هــو انــه ينسى أو يتناسى أن ماسمّي « بالحامية » هو ايضا مثل « الساميّة » نبتة آسيويّة الاصل هاجرت الى افريقيا وان بعض الباحثين يعدون موطنها الجزيرة العربية .

٤ . ان أفكار سليم شاكر مصدرها الاساسي المدرسة الفرنسية للبربريات وسيما نظريّة « مرسال كوهين M. Cohen » [١١] التي يزعم فيها أنّ هناك أربع مجموعات لغويّة هي : البربرية والمصرية والكوشية والسامية وهذه النظريّة وان قرّبت بين السامية والبربرية الا انهــا جعلت هذه الاخيرة مجموعة متميزة ومستقلة لانفصالها والكوشيّة عن المجموعات الاخرى منذ زمن قديم أوهن روابطها بالساميّة وأضعفها ، وكرر مرسيل كوهين نظريته سنة ١٩٤٧ في كتاب بعنوان : « محاولة مقارنة حول المعجم الحامي ــ السامي وصوتياته » [١٢] . وذلك في زمن بدأ يتصاعد فيه النضال الوطني في أقطار المغرب العربي ، وتقدمت الدراسات في مجال علم اللّغة المقارن الذي أثبت وجود علاقات لغويّة قديمة بين مجموعة اللّغات المسماة بالحامية ومجموعة اللغات المسماة بالسامية . وقد اظهر هذا وشائج القربى ووحدة الاصل بين البربر والعرب ، وهو ما لايريده المستعمر بأي حال ، فكرر مرسال كوهين هذه النظرية ،

١١ ــ ظهرت هذه النظرية سنة ١٩٢٤ في كتاب بعنوان : **Les langues du monde** اشرف على اعداده هو و **A. Meillet** -- انظر ص : ٨١ طبع بباريس .

١٢ ــ **Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonetique du chamito - semitique**

وضمنها القربى من ناحية ، وهي ضعيفة واهية لايعتّول عليها وضمنها الانفصال من ناحية أخرى وهو المعنى الذيوقع ابرازه وتأكيده والذي تثقّف به أعداء الانتماء العربي وظّلوا يعيشونه ، ومن هؤلاء سليم شاكر وأضرابه حتى اننا نجدهم في المناسبات المهمة التي تطرح فيها قضية الوحدة لا يترددون في رفع اصواتهم ؟ ؟ بأن البربر ليسوا عربا (*) .

ولاشك في ان اندحار الاستعمار وسقوط نظريّة « الاصل الاوربي » ونظرية « الحامية » و « الحاميّة ــ الساميّة » و « الأفرو آسيوية » قد ساهم في وضع البربرية في اطارها اللغوي العام . وذلك بتصنيفها ضمن المجموعة السّامية . فقد تبين للدارسين بعد أن وقع اخراج المصرية من « المجموعة الحاميّة » أن البربريّة أكثر من سامية المصرية وان علاقتها بشقيقاتها الساميات اقوى وامتن لعدم تعرّضها الى ماتعرّضت له المصرية من تنوع في الحياة ومن تمازج بالعناصر غير السامية . فهذا عالم البربريات والساميات الالماني هنز شتمّا (**Hans stumma**) يقول : « من وجهة نظري أن البربريّة أقرب الى السامية بكثير من المصرية » [١٢أ] والامر لم يعد في حدود هذا التقدير بل تجاوزه الى الاقرار بأن البربرية سامية صميمة وهذا مانسب الى العالم ؟ فرنسيس وليام نيومان (**Fransis William Newman** (*) وأكده « روسلر » الالماني في قوله « ان اللوبيّة ساميّة في واقعها ولايمكن ولايجوز فصلها عن الساميّة [١٢ب] وفي قوله : « فاللوبية ذات علاقة متينة مباشرة

(*) انظر ماكتبه محمد فنطر بمناسبة زيارة القذافي وخطابه بمجلس الامة والحديث عن الوحدة ــ مجلة المغرب العربي عدد ١٣١ ــ ١٦ ديسمبر ١٩٨٨ .

١٢أ ــ ص : ١٢٤

(السمات السامية فـ اللوبية) **Rossler**

Derr Semitische charakter der libyschen sprache . in 1992

(*) ذكر روسلر نظره وقال عنه (عالم البربريات الشهير) المصدر الموالي ص ١٢٢ .

١٢ب ــ ص١٢١ المصدر نفسه :

بالسامية »[١٢ت] وفي قوله : « فالتصريف في اللـّوبية برهن على انها جد سامية » [١٢ث] .

وتكمن أهمية هذا التصنيف في آنه جعل البربر لاول مرة اشقاء للعرب ومنتسبين معا الى اصل واحد وأرومة واحدة . وكان هذا أول انتصار يسجّل ضد المدرسة التاريخية الاستعمارية على صعيد المعرفة وأول خطوة في كنس المعلومات المغلوطة التي تحولت لدي المثقفين في حمأة الاستعمار الثقافي الى قناعات لاتدحض .

وبهذا تكون الامور قد عادت الى نصابها ولم يبق بعد سوى الغاء التسمية بالساميّة وتعويضها بالتسمية الصحيحة البـديلة وهـي « العربية القديمة » التي هي أيضا من الحقائق التي بدأت تفرض نفسها على الباحثين .

وبهذا نكون قد قطعنا خطوة حاسمة في اسقاط الاطروحات المغلوطة حول « البربريـّة » التي أخذ يتجلى لنا الان نسبها الشرقي وهو ما سيتأكد ـ بما لايقبل الدّحض ـ من خلال المعلومات والمقارنات التي سنتطرق اليها هذه الدراسة وغيرها .

البربرية واقع لغوي قديم :

تعود أوليات البربريـّة الى حدود الالف الخامسة قبل الميلاد اذ هي لغة أولئك الرعاة الذين ظهروا في هذه المرحلة أول مرة في الصحراء ثم انتشروا منها الى سائر انحاء شمال افريقيا .

واللغة البربريـّة عبارة عن لهجات كثيرة مندرجة ضمن لهجات كبرى وهي وان كانت كذلك الا أن هناك سمات مشتركة وخصائص عامة تجمع بينها وتجعلنا نطلق عليها هذه التسمية « اللـّغة البربريـّة » التي كانت منتشرة من غرب مصر حيث واحة (سيوه) الى المحيط الاطلسي بما في ذلك الصحراء

١٢ت ـ ص ١٢٥ المصدر نفسه : **Der Semitische**

١٢ث ـ ص ١٥٠ المصدر نفسه : **Der Semitische ...**

وجزر الخالدان ، وكشفت بعض الابحاث عن وجودها في مناطق نائية بافريقيا مثل جزر الرأس الاخضر [١٣] .

واللّهجات البربريّة مثل غيرها ، عرفت تنوعا داخليا نجمت عنه لهجات كثيرة (*) يمكن للدراسات المحددة ابرازه والعناية به وهو أمر لايعنينا في الموضوع الذي نحن بصدده ، وانما نلفت النظر الى تنوع لغوي آخر في البربرية قديم ومتمايز عن بعضه مايزال ماثلا الى اليوم وتنعدم فيه امكانية التفاهم اللّغوي بين أصحابه .

فالشلحيّ مثلا لايفهم القبائلي وكلاهما لايفهمان صاحب لهجة ثالثة وهكذا ، ومثل هذا التنوّع ليس متأتيا من تطورات لغوية داخلية وانما هو جزء من ذلك الواقع اللّغوي القديم الشرقي المتنوّع الذي انفصلت عنه البربرية على مراحل ، ومن غير شك فان استقرارها في موطنها الثاني (شمال افريقيا) وانعزالها فيه جعلها تحافظ على خصائص لغوية قديمة بشكل يفضل المصريّة التي نالت منها عوامل مختلفة فأثرت فيها من عدة وجوه وتأثرت البربرية تأثرا واضحا متباين الدرجات باللغتين الفينيقيّة والعربيّة الاّ انه تأثر في وسع الدارسين تمييزه وضبطه ، وما يتناوله هذا البحث يقتصر أساسا وبقدر الامكان، على مايمكن أن يعدّ بربريّاً أصلا من حيث السمات الخاصة به .

السّمات المشتركة بين الأكدية والبربرية :

اللّغة الأكّديّة (*) نسبة الى مدينة « أكد » التي اتخذها سرجون الاول عاصمة الامبراطورية التي أنشأها (٢٣٧٠ ــ ٢٢٣٠ ق.م) وموقعها في

(*) ذكر اندريه باسيه A. Basset ان هناك « من أربعة الى خمسة الاف لهجة » ص١٧٢ مجلد ٣ .

١٣ ــ باتيه دياني : اللغات والتاريخ الافريقي ــ الوارد في (تاريخ افريقيا العام) جون افريدك ــ اليونسكو ــ تورينو (ايطاليا) ١٨٩٣ ج١ ص : ٢٤٧ .

(*) هذه التسمية اتسع استعمالها منذ الخمسينات من هذا القرن (وغدت تستعمل للدلالة على جميع اللهجات المتفرعة عن اللغة الاكدية والتي انتشرت فيما بعد في بابل واشور منذ اواسط الالف الثالثة الميلاد حتى أواخر الاولى عندما تضاءل استخدام اللغة الاكدية ثم تلاشى امام الارامية وغيرها) ص ٢٨٥ حضارة العراق ج١ بغداد ١٩٨٥ .

المنطقة ما بين بلدة المحمودية والحلة ، في القسم الواقع جنوب بغداد من السهل الرسوبي ، والأكّديّون الذين سمّوا باسم هذه المدينة من الاقوام العربية القديمة المسماة « بالساميين الشرقيين » هاجروا حسب بعض التقديرات قبل الالف الثالثة قبل الميلاد من الجزيرة العربية واستقروا أولا في الناحية الغربية لنهر الفرات ثم انحدروا بعد ذلك نحو جنوب العراق بجوار بلاد « سومر » متمركزين في المنطقة التي يقترب فيها نهرا دجلة والفرات من بعضهما •

وكتبت اللّغة الأكّدية بالخط المسماري خلال الالف الثالثة قبل الميلاد ، ومع مطلع الالف الثانية تفرّعت الى البابليّة والاشورية وماطرأ عليها من تطور وتنوع لغوي ، ومما تجدر الاشارة اليه أن الاكدية تصنف احيانا مع كتلة اللغات العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) مما جعل بعضهم يستنتج أن الأكّديين هجرات قديمة من جنوب الجزيرة العربية •

والمهم هنا أن المقارنة بين الأكّدية لغة العراق القديم وبين اللّغة البربرية من المسائل المثيرة لدهشة الكثيرين ، فالاولى واقعة في أقصى شرق الوطن العربي اندثرت منذ ألفي سنة اي مع بداية التاريخ الميلادي والثانية واقعة في اقصى غربه وماتزال على قيد الحياة يتكلمها عدد كبير من سكان المغرب العربي ومن هنا تسكن أهمية هذه المقارنة ، فانّ اثبات أية لغويّة بينهما يعني وأد كل نظريات العلم الاستعماري المزعومة حول اصل البربر التيمازال يروج لها الاقليميّون وأعداء الانتماء العربي •

وما سيقدم في هذا الباب وقع الاعتماد فيه على ماتوزع في عدد من الدراسات اللغوية ، ولاسيما دراستي (*) « روسلر » الذي وفّر لنا معلومات مهمة حول العلاقة بين اللّغة الأكّديّة والبربرية ويرى في اللغتين أنهما

(*) المذكورتان بالهامشين : ١٢ أو ٢٦

« يحملان في ذاتهما مراحل تطور الساميّة الامر الذي ينعدم في المصرية » [١٤] .

والمقارنة المجراة تشمل العناوين الاتية :

١ ـ الحالة الصوتية :

الحالة الصوتية في اللهجاب البربرية الحديثة لاتكاد تختلف عن العربية في هذه الناحية ، ولذا نجد محمد المختار السوسي يقول عن لهجة الشلحيّة : « ان أول ما يبدو للباحث في الشلحيّة عندما نقابلها بالعربية أشياء منها » :

١ • انه يجد مخارج الحروف متساوية في اللّغتين حتى حرف الضاد فانه ينطبق به عند الشلحيين كما ينطبق به عند العرب سواء بسواء [١٥] .

يقول روسلر عن اللهجة القبائلية :

« فانه يتهيأ لاول وهلة أنها لاتختلف في شيء عن جارتها اللّغة العربيّة الشعبيّة » [١٥أ] .

ولكن هل حالة الوحدات الصوتية في اللهجات البربرية الحديثة هي الحالة نفسها التيّ كانت عليها في اللّوبية القديمة ؟ طبعا لا . لان هذه اللهجات تأثرت الى درجة كبيرة بالعربية في ناحيتين أساسيتين : هما الناحية الصوتية والناحية المعجمية ، ولنا في اللّهجة القبائلية خير مثل على ذلك .

فروسلر يقول : « فقائمة من أفعال اللّهجة القبائليّة تبدو لاول وهلة كأنها سليخة من معجم اللّغة العربية ... فالقبائليّة سواء في المعجم أو في مخارج الحروف متأثرة كثيرا جدا باللّهجة العربيّة » [١٦] .

---

١٤ ـ ... Der Semitische المصدر المذكور سابقا ص ١٢٥

١٥ ـ تأثير العربية في اللهجة الشحلية ـ مجلة اللسان العربي عدد ٢ سنة ١٩٦٥ يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ص ٣٢ .

١٥أ ـ ... Der Semitische المصدر المذكور ص ١٢٥

١٦ ـ ص ١٢٥ و ١٢٦ ... Der Semitische المصدر السابق

ويبدو أن أقل اللهجات تأثرا او تعربا لهجة الطوارق • ولكن على الرغم من هذا التأثير الواسع فانه يمكن التعرف من خلال اللهجات البربرية الحالية على سمات أساسية تتعلق بالحالة الصوتية اللّوبية القديمة الاصلية ، ونكتفي هنا باللهجة القبائلية لكونها أكثر اللهجات تأثرا بالعربية واللهجة الطوارقية لكونها أقل تأثرا مما يجعلها اكثر أصالة في المحافظة على الوحدات الصوتيّة ولان اصحابها على مايبدو مايزالون متمسكين بكتابتهم القديمة المعروفة « بالتيفيناغ » •

ــ فالقبائلية تحتفظ ــ حسب روسلر ــ بنسبة ٢٥ ٪ من الافعال غير العربية ، أي ذات الاصل اللّوبي ، وبدراسة هذه المجموعة من الافعال يتضح أن حروفها لاتوجد بينما هذه الوحدات الصوتية : ط ــ ص ــ ق ــ خ ــ ح ــ ع ــ هـ ــ اما الوحدات الصوتية : ض ــ ذ ــ غ ــ فهي موجودة في الافعال ذات الاصل العربي واللوبي على حد سواء •

ــ أما اللهجة الطوارقية الاكثر أصالة فهي ايضا لاتعرف هذه الوحدات : ط ــ ص ــ ق ــ خ ــ ح ولاتعرف العين مطلقا وأن الهاء لاتوجد ألا في حالات قليلة ، لكنها تعرف مثل القبائلية هذه الوحدات : ض•ذ•غ [١٧] •

وبالرجوع الى الكتابات القديمة تتضح لنا صحة هذه النتائج حيث نجد هذه الكتابات :

١ ــ خالية من الحروف الحلقية وان كانت تتضمن هـذه الوحدات : ط ــ ص ــ ق •

٢ ــ لاتوجد فيها هذه الوحدات : ض ــ ذ ــ غ •

ويعلل « روسلر » وجود هذه الوحدات الصوتية : ض ــ ذ ــ غ في اللهجات البربرية الحالية مثل القبائلية والطوارقية بأنها في الاساس امتداد للحروف اللوبية القديمة : ط ــ ص ــ ق ؛ بدليل أن اللهجات الحالية تنطق ضّ ــ المشددة طّ و غُ المشددة ُق مشددة « وهذا يعني أن الغين الحالية في

---

١٧ ــ Der Semitische ... المصدر نفسه ص ١٢٦

الكلمات الاصلية ليست غينا أصلية وتختلف عن الغين في العربية اختلافا تاما » [١٨] .

ومما تجدر ملاحظته هو أن الحروف الحلقية الموجـودة في اللهجات البربريّة الحديثة ليست متأتيّة كما يتبادر الـى ذهن بعضهم مـن اللغة الفينيقيّة الخاليّة هي نفسها من بعض هذه الحروف . كذلك فان اللّوبية ظلّت لاتعرفها الى مابعد زمن الفتح بكثير [١٩] .

والخلاصة :

١ . ان اللّوبيّة ، كما هو مستخلص من لهجاتها الحاليّة ومن الكتابات القديمة لاتعرف بصفة عامة الحروف الحلقية حتى مجيء العربية مع الاسلام .

٢ . ان الحروف الحلقية الموجودة في اللهجات الحالية وقع تعلمها تدريجيا من العربية [٢٠] .

٢ ـ المقارنة مع الاكدية ولغات عربية قديمة أخرى :

واذا ما قارنا الوحدات الصوتيّة في اللوبيّة بالوحدات الصوتية في الاكدية فاننا نجد أن الأكّدية كاللّوبية لاتعرف معظم الحروف الحلقية [٢١] ولا يوجد فيها الا حرفا الهمزة والخاء (أ ـ خ) ويعلل الدكتور خليل نامي ذلك بشدة الاختلاط الذي تم في العراق بين الأكديـين والسومريين الذين كانوا لا يعرفون من الحروف الحلقيّة سوى الهمزة والخاء (أ ـ خ) فتأثر بهم الأكّديّون ولاسيما على مستوى الكتابة بالخط المساري وأضاعوا ما كانوا يعرفونه مثل هـ ـ ح ـ ع ـ غ ـ ولم يحتفظوا الا بحرفي الهمزة والخاء قياسا على السومريّين .

١٨ ـ Der Semitische ... المصدر نفسه ص ١٢٦

١٩ ـ Der Semitische المصدر نفسه ص ١٢٩

٢٠ ـ Der Semitische المصدر نفسه ص ١٢٨

٢١ ـ مذكرات مدونة في أثناء الدراسة في جامعة القاهرة

ولكن من المحتمل أيضا أن يكون خلو الأكّديّة من معظم الحروف الحلقيّة راجعا لا الى عامل الاختلاط بالسومريّين وانما الى أن بعض القبائل الساميّة في تلك المرحلة الموغلة في القدم كانت لاتعرف كل الحروف الحلقية أو تعرف بعضها بصورة تؤدي الى سقوطها أو ابدالها بحروف اخرى •

فالفينيقيّة وهي من مجموع اللّغات الكنعانيّة خلت من حرفي خ ـ غ ـ الحلقيّين وكذلك الشأن بالنسبة للغات الاراميّة التي خلت هي الاخرى من هذين الحرفين ، يضاف الى هذا مارأيناه في اللوبيّة التي لاتعرف الحروف الحلقية بصفة عامة ، وهذا لايدل فقط على مابين اللّغات العربيّة القديمة من سمات مشتركة في مجال المخارج والوحدات الصوتية وانما أيضا على أن هذه السّمات تعكس عمليات التطور الاولى لتلك الوحدات لدى القبائل عند توزعها وانشعابها واختلاف ظروفها وحاجياتها ودرجة التطور التي كانت عليها •

واللّوبية لاتلتقي مع الأكديّة وبعض اللغات العربية في خلوها من الحروف الحلقية فحسب وانما أيضا في خلوها من بعض الحروف الاخرى فالسّوسي يذكر في مجال المقارنة بين الشلحية والعربية مايأتي :

« ولايفوت الشلحية من العربية الا المعجمات منها : الثاء والذال والظاء » [٢٢] وبمراجعة خط (التيفيناغ) المستعمل لدى الطوارق نلاحظ أنه لايتضمن هذه الحروف وسواء كانت هذه خاصيّة عامة في اللّهجات البربرية أم في بعضها فقط فاننا نجد أن بعض اللّغات العربيّة القديمة خالية من هذه الحروف •

فالفينيقيّة واللّغات الاراميّة لاتعرف الثاء والذال والظاء وهذه الظاهرة اختصت بها مايسمى باللّغات الساميّة الشمالية ، أما اللغات الجنوبية فقد عرفت هذه الحروف •

---

٢٢ ـ تأثير العربية في اللهجة الشلحية ـ مجلة اللسان العربي عدد ٢ سنة ١٩٦٥ يصدرها المكتب الدائم لتنسيق التعريب بالرباط ص ٣٢ •

والخلاصة من كل ماتقدم :

١ • ان نظام الحروف في اللوبيّة شبيه بنظام الحروف في اللّغات العربيّة القديمة •

٢ • ان اللّوبية مثل الأكّدية بالدرجة الاولى في خلوها من الحروف الحلقية •

٣ ـ التصريف :

من موضوعات المقارنة المثيرة للدهشة ، تشابه اللّوبيّة والأكدية في مجال التصريف ، وقد وفّر لنا « روسلر » معلومات مهمة في هذا الموضوع نقتبس منها بعض النماذج التدليل على هذا التشابه وأول مايلاحظ :

أ ـ ان البربرية تلتقي مع الأكدية في عدد كبير من الجذور مما يوكد وحدة الاصل والقرابة المعجمية بينهما •

ب ـ يذكر « رولسر » أن اللهجة القبائليّة احتفظت « من بين اللهجات اللّوبية الحديثة بنوعين من تصريف الافعال المتأصلة في اللوبية : تصريف يعتمد على البدايات بالنسبة لافعال الحالة وتصريف يعتمد على النهايات بالنسبة لافعال الحدث ، وهذان النوعان موجودان في الأكديـــة[٢٣] •

وفيما يأتي نموذج من التصريف في القبائليّة وما يقابله في الأكّدية :

فعل الحالة في القبائلية

ضمائر المفرد	**ضمائر الجمع**
(هو) مَقّر (هو كبير)	(هم) مَقَّرِتْ
(هي) مَقّرَتْ (هي كبيرة)	(هنّ) مَقَّرتْ
(أنت) مقَّرَضْ	(أنتم) مَقَّرتْ
(أنا) مقَّرَغْ	(نحن) مَقَّرِتْ

٢٣ ـ ص : ١٤٦ ـ المصدر المذكور سابقا . ... Rossler : Der Semitische

بقطع النظر عن التطورات المتعلقة بالبدايات واللواحق التي يجب أن تكــون محل دراسة خاصة فان اللوبية باتت تصوغ الجمع بشكل موحـــد بدون النهايات المتنوعة . وهو امر يشبه جمع الصفة في الأكّديّة ، فالجمع من الجذر (م ق ر) صيغ بتشديد وسطه فقيل (مَقَرِّتْ)
ولهذا نظيره في الأكّديّة من مثل : صغر (صغير) ، قرّدْ (قوي) [٢٤]

فعل الحدث

ضمائر المفرد		ضمائر المفرد
(هو) اِلْمَدْ (تَعَلَّمَ)		(هو) اِلْمَدْ
(هي) تِلْمَدَ (تَعَلَّمَتْ)		(هي) تَلْمَدْ
(أنت) تِلْمَدَضْ أوْ تِلِمْدضْ		(أنت) تَلْمَدْ أو تَلْمَدِ
	(طوارق ــ ب)	
	(تازروليت ــ ط)	
(أنا) اِلْمَدَغْ أو لِمْدغْ		(أنا) اَلْمَدْ
	(زناجة ــ ك)	

ضمائر الجمع	ضمائر الجمع
(هم) اِلْمِدِنْ أو لْمْدِنْ	(هم) اِلْمدُو أو اِلْمَدَا
(هن) اِلْمِدِنْتْ أو لِمْدنْتْ	(هن) تَلْمَدُو أو تَلْمَدَا
(أنتم) تِلْمِدِمْ أو تِلمِدِمْ	(انتم)
(أنتن) تِلْمِدِتْ أو تِلِمْدِمْتْ	(أنتنّ)
(نحن) نِلْمَدْ	(نحن) نِلْمَدْ

---

٢٤ ــ ص : ١٤٧ ــ المصدر نفسه : **Der Semitische**

ونلاحظ هذا التشابه الكبير بين القبائلية والاكدية في تصريف فعل الحدث أما البدايات والنهايات في التصريف فهي وان كانت من مشمولات الدراسات الخاصة فاننا نجد في اللهجات البربرية لواحق خاصة •

فهناك الضاد في القبائلية والدال في الطوارقية والتاء في الشلحية والغين في كل اللهجات • وهذه اللواحق من المستعبد ان تكون قديمة أي ارجاعها « الى السامية القديمة او الصيغة الاصلية في اللّوبيّة القديمة باعتبارها جميعا علامة للمخاطب المفرد ، ت ـ ط ـ د [٢٥] •

ومن موضوعات التصريف المتشابهة ، أن افعال الحدث اللوبية تبدو متشابهة مع افعال الحدث الأكّدية المنتهية بضمة مع العلم ان افعال الحدث في الأكديّة منها ما هو مُنْتَهٍ بضـمة ومنها ماهو منتـهٍ بكسـرة ومنهـا ماهو منته بفتحة[٢٦] •

الاكدية	اللوبية (الطوارق)
افعال الحدث المنتهية بضمة	
الماضي : اِيَرُسْ (قصّ فرق)	اِفْرَسْ (قصّ)
الحاضر : اِبَرَّسْ	اِفَرِّسْ
الأمر : بُرُسْ	أفْرَسْ

٢٥ ـ ص ١٤٨ ـ المصدر نفسه : **Rossler : Der Semitische ...**

٢٦ ـ (الأفعال الاكديـة واللوبية)

Rossler : Akkadischer und libysches vrbume, orientalia volume 20 Roma 1951 - p 366

افعال الحدث المنتهية بكسرة

الماضي : اِكْرِمْ (مسك احتفظ)	اِكْرَمْ
الحاضر : اِكَرِّمْ (أصله اِكرمْ)	اِكَرمْ
الأمر : كِرِمْ	اَكْرِمْ

افعال الحدث المنتهية بفتحة

الماضي : اِلْمَدْ (تعلّم)	اِلْمَدْ
الحاضر : اِلَمَّدْ	اِلَمَّدْ
الأمر : لِمَدْ	اَلْمَدْ

ويلاحظ « روسلر » على هذا الشكل من التصريف ان الطوارق ينطقون الفتحــة ، في الحاضر ، مشــددة (اِفَرسْ) في حين أنها تنطق في اللهجات الاخرى بين الفتحة والضمة[٢٧] •

ومن صور التصريف ايضا ان اللّوبيّــة تستعمل نوعــا من الاشتقاق له نظيره في الأكّدية واذا ما قارنا بما في العربية نجده يشبه الصفة المشبهة كما في الامثلة :

الطوارق	الاكدية	العربية
ذَرف (لونه بالٍ ، عتيق)	وَقَرْ (ثمين)	حَسَنْ
لَكِنْ (أكيد)	كَبتْ (ثقيل)	فَرِحْ ، أشرْ ، شَرِسْ
سَلَفْ (أملس ، صقيل)	وَقُرْ (أصفر)	نَدُسْ ، حَذُرْ ، عَجُلْ

والمقصود هنا ليس الاتفاق في المعنى وانما الصيغة الصرفية التي جاءت بفتح العين وكسرها وضمها (فعَل ــ فعِل ــ فعُل) وهذه الصيغ موجودة في العربية ، في الصفة المشبهة وان كان النوع الثالث منها قليلا وغير متداول •

---

٢٧ ــ Akkadische ... : Rossler المصدر نفسه : ص ٣٦٦

وفي نطاق المقارنات اللغوية يذكر « روسلر » أن أفعال الحدث في الامهريّة (لغة اثيوبيّة اصلها من اللّغات اليمنية القديمة) تتشابه مع مثيلاتها في الأكّديّة واللوبية . وكذلك تتشابه الامهرية و اللوبية في أفعال غير الحدث .

ونستخلص مما تقدم أن التصريف في اللّوبيّة يشبه التصريف في الأكّديّة : صيغة ووظيفة وهو ماجعل « روسلر » يقول : « فالتصريف في اللّوبيّة برهن اذن على انها جدّ سامية » [21] .

٤ ـ **صيغة الفعل :**

في العربية يقسم الفعل الى ماض ومضارع وأمر ولكل منها صيغته المتميزة ، أما في البربرية فلانجد مثل هذا ؛ فالماضي والمضارع يردان فيها بصيغة واحدة مع تغيير طفيف في الحركات مثل :

الماضي	الحاضر (مضارع)	
يَسْوسَمْ	يَسْوسْمْ	سكت ـ يسكت
يَسْلَى	يَسَلَّى	سمع ـ يسمع
اِفْرَسْ	اِفَرَّسْ	قصّ ـ يقصّ

ومثل هذه الحالة ، أي عدم التفريق بين صيغة الماضي والمضارع نجد لها نظيرا في اللغة الأكدية التي تعبّر عن الماضي بصيغة شبيهة بصيغة المضارع المرفوع ، فيقول الدكتور محمود حجازي « فقد كان يعبر الفعل الماضي في اللّغات الأكّدية بصيغة تشبه صيغة الفعل المضارع المرفوع » [28أ] .

ويفرق بين الماضي والحاضر بشديد عين الفعل عندما يكون الحاضر :

اِكْشَدْ	اِكَشَّدْ	فتح ـ يفتح ، وصل ـ يصل
اِلمَدَ	اِلَمَّدْ	تَعَلَّمَ ـ يتعلم

---

٢٨ ـ Der Semitische ... المصدر المذكور سابقا ص : ١٥٠

٢٨أ ـ مذكرات مدونة . . . مصدر سابق

وتقدمت لنا نماذج من التشابه في هذا الموضوع بين اللّغتين من مثل .

الماضي		الحاضر	
الاكدية	البربرية	الاكدية	البربرية
إِبْرُسْ	اِفْرَسْ	اِيَرَّسْ	اِفَرَّسْ
اِكْرَمْ	اِكْرِمْ	اِكَرَّمْ	إِكَرَّمْ
اِلْمَدْ	اِلْمَدْ	اِلَمَّدْ	اِلَمَّدْ

٥ ـ التعريف والتنكير :

من سمات العربية أنها تميز بين المعرفة والنكرة في مجال الاسماء ، وعلى العكس منها البربريّة فانها لاتعرف هذا التمييز (*) ولكنها تستعمل بعض الاسماء استعمالا لاتتنزل به منزلة المعرفة من ذلك مثلا :

أغروم	أي	الرغيف	لا	رغيف
أميلوس	أي	الوحل	لا	وحل
أقراب	أي	الجراب	لا	جراب
أزلوم	أي	الحزام	لا	حزام

وهذا ماحدا بالاستاذ (شارل كوينتز الى أن يقول في مثل هذه الامثلة وغير ان « عدم وجود لام التعريف لايدل على التنكير بل هي معرفة » [٢٩] .

وهنا نتساءل عن الكلمات التي تصدرت بها هذه الهمزة ، هل لها علاقة ببعض أشكال التعريف (أدواته) المعروفة في الواقع اللّغوم العربي القديم ؟ وبعبارة أدق هل للهمزة البربرية صلة بأداة التعريف (أم) التي نجدها في اللّغات اليمنيّة القديمة وبعض عشائر قبيلة طي ؟ مثل :

أم سهْم   أم بِرّ   أم صيامَ   (بدون تنوين)

أي السهم والبرّ والصيام

(*) لاحظ هذا الدارسون منذ زمن ومنهم شارل كوينتز .

٢٩ ـ في بحثه : (أثر اللغة البربرية في عربية المغرب) نشر بمجلة مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٥٥ ج : ٨ص ٣٣٢ .

وهــل لها صلة بأداة التعريف « أل » المعروفة في العربية الفصحى ولهجاتها القـُديمة المكتوبة (الثموديّة والصفويّه واللحانية) ؟

والملاحظ ان هناك تشابها بين هــذه الادوات الثـلاث في فتــح الهمزة (وهو الغالب في البربريّة) وفي كونها تستعمل لاستغراق الجنس •

ومن هذه المقارنة يتضح أن هذه الهمزة لها علاقة في أصل وضعها اللّغوي باغراض التعريف . كما تبرزه أشكاله المتنوعة عبر مراحل التطور العام للواقع اللّغوي العربي القديم فآلت في بعض صورها الى الاقتران بالميم (أم) كما في اللّغات اليمنيّة القديمة والى الاقتران باللام (أل) في حالات اخرى كما في الفصحى ولهجاتها الجاهلية •

اما في البربريه فلم يحصل شيء من هذا القبيل سوى أن الكلمات المبدوءة بالهمـُزة تتنزل منزلة الكلمات المعر ّف بها ، ولهذا نظيره في العربية اذ توجد كلمات متضمنة لغرض التعريف من دون ان تكون معرفة بطريقة من طرق التعريف مثل سحر وغدوة اذ أريد زمنا بعينه نحو قمت سحرَ او غدوة أي قمت في السحر او في الغدوة •

ونجد ابن يعيش يقول في شرح المفصل (ج٢ ص٤٢) :

« والذي منع سحر من التصرف أنه يعرف من غير وجوه التعريف لان وجوه التعريف خمسة : تعريف اضمار وتعريف العلَمية والاشارة وتعريف الالف والام وتعريف الاضافة الى واحد من هذه المعارف وليس في سحر واحدا منها » •

واذا كانت البربرية لاتميز بين التعريف والتنكير أفهذا امر خاص بهـــا ام تشاركها فيه بعض اللغات العربية القديمة ؟

المختصون فــي علــم اللّغات يؤكّدون ان الاكدية بلهجاتها البابلية والاشورية لاتميز بين التعريف والتنكير ، فالكلمات مثلا :

كلبُم بيتـُم تدلا ّن على التعريف أي بمعنى الكلب والبيت كما تدلان على التنكير أي كلب وبيت

فالميم في آخر الاسماء الأكديّة سواء المراد بها التنوين أو الافراد أو غير ذلك من الاغراض الاخرى مستعملة في الكلمات المعرفة وغير المعرفة وهذا ماجعل المستشرق الالماني « فيشر » يقول « لايوجد في الأكّدية شكل خاص بالاسم المعرف وشكل آخر خاص بالاسم النكرة » (٣٠) •

ويقال ايضا ان الحبشية كالاكدية والبربرية لاتميز بين التعريف والتنكير حيث نجد جواد علي يقول : « نرى بعض اللّغات كالآشورية والبابلية والحبشية لا أداة للتعريف فيها » (٣١) •

ونعود الى اللّغات اليمنيّة القديمة فنذكر انها عرفت الى جانب (أم) أدات أخرى للتعريف هي النون (ن) المساة بالنون الحميرية تلحق اخر الاسماء فيقال رجلن بمعنى الرجل ، ولكن هذا لايعني أن هذه اللّغات باتت تميز بشكل واضح وكامل بين التعريف والتنكير كما في العربية الفصحى فعلامة التنكير فيها وهي ميم (ميم التنوين) قد تدل في بعض الاحيان على التعريف أيضا ، وهذا مايشير في الارجح الى حداثة التعريف في اللّغات اليمنيّة ، ومما يوكد وجاهة هذا الرأي هو ان الحبشيّة لم تعرف شيئا من هذا القبيل والحال أنها فرع كبير من هذه اللّغات •

والخلاصة ان البربرية وان كانت لاتميز بين التعريف والتنكير فشأنها في ذلك شأن بعض اللغات العربيّة القديمة ولاسيما الأكدية وهذا وجه شبه بارز بينهما يوكد القرابة اللّغويّة وتاريخها العريق •

٦ ـ الناحية المعجمية والارث المشترك :

الناحية المعجمية من الموضوعات المهمة التي يحتاج اليها الدارس في مثل

---

٣٠ ـ فولف ويترش فيشر : اللغة العربية في اطار اللغات السامية ـ محاضرة نشرت في مجلة (حوليات الجامعة التونسية) عدد ٢٣ تونس ١١٩٨٤ ص ٤٩ •

٣١ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ـ مكتبة النهضة . الطبعة الثانية بغداد ١٩٧٨ ج٨ ص٥٣٤ •

هذا البحث لاثبات ما بين البربرية ولغات عربية أخرى قديمة من قرابة معجمية وارث مشترك •

هذا ماسنقوم به في جداول المقارنات الموالية بالقدر الذي يسمح بـه الاطلاع والحصول على المادة من بعض المصادر [٣٢] •

ويتضمن الجدول الاول بالاساس مقارنة بين الاكدية والبربرية مـع توسيعها بالقدر الممكن لتشمل العبرية والعربية في بعض الحالات • وذلك لاعطاء صورة أشمل على مابينها من قرابـة لغوية ذات جذور تاريخية عريقة •

وقد وضعنا بين قوسين معنى الكلمات بالعربية ثم يليها اسم القبيلة المستعملة لتلك الكلمة في اللهجات البربرية •

ومن الاصول اللغوية التي رغبت فـي الوقوف عندها هـذا الاصل (ل م د) فهو من الجذور المعروفة في البربرية وعدد مـن اللغات العربية القديمة •

ففي البربرية المنتشر فيها انتشارا واسعا نجده على سبيل المثـال عنـد الطوارق (اِلـْمَـدَ elmed) بمعنى • تعلّم ، أدرك ، درس ، قرأ ،تعوّد •

وفي الأكدية (لماُد lamadu) بمعنى يجرب ، يكسب معرفة ، يدرك ، يتعرف •

وفي العبرية (َلمَادْ lamad) بمعنى : يتعلم ، يتعود •

وفي الأثيوبية (َلمَدَ lamada) بمعنى : تعود •

ونلاحظ أن هذه المعاني متقاربة ، وهي شاهد بشكل قاطع على وحدة الاصل ، والمهم أن هذا الجذر موجود في العربيّة ولكن بمعنى مختلف تماما اذ هو يدل على الصغار والحط من القدر • فيقال َلمَدَ يَلْمُدُ لَمَدًا ، بمعنى تواضع وتذلّل •

---

٣٢ ــ خاصة (روسلر) في دراسته السابقة (السمات السامية) ص ١٢٩ ومابعدها .

وفي اللسان [٣٣] :

اللّمْد : التواضع بالذل •

وفي المنجد [٣٤] :

اللّمْدَان :الذليل

وقد استغربت كيف يكون الجذر « لَمَد » في العربية لايملك أي معنى من تلك المعاني التي نجدها له في الاكدية والبربرية وغيرهما •

وهنا تفطنت الى أن كلمة « تلميذ » تدل على التعلم واكتساب الخبرة ، وهذا يعني انها ذات صلة بـ « لمد » ولكن اللّغويين من حيث الاشتقاق والمادة االاصلية ربطوا كلمة « تلميذ » بـ « تَلَمَ » ومنها أخذو هذين الكلمتين :

التِّلْمُ بكسر التاء : وتعني الغلام سواء كان غلام الصاغة أو غير ذلك •

التَّلامي بفتح التاء : وتعني أيضا غلمان الصاغة •

ويقول الجوهري : [٣٥]

التَّلام بفتح التاء : التلاميذ سقطت منه الذال وبهذا تكون كلمة « تلميذ » من قبيل الرباعي بدليل ما ورد في المنجد من ذكر للفعل ومزيده حيث قال تَلْمَذَ وَتَتَلْمَذَ مثل دحْرج وتَدحْرج على وزن فعلل وتفعلل •

فاللغويون بما فيهم الجوهري يعدّون التاء أصلية ، ولكن المهم عند الجوهري هو أنه عَدَّ كلمة «التَّلاَم» ناقصة وأن الذال سقطت منها (وهو لم يذكر غير هذه الكلمة) وفي هذا ربط بالاصل القديم « لمذ » أو « لمد » (الذال والدال في العربية يتبادلان ويتناوبان فيقال اذّكر وادّكر) •

وخطأ اللّغويين هو أنهم عَدّوا التاء أصليّة ، وهي ليست كذلك اذ هي

---

٣٣ ــ ابن منظور : لسان العرب ــ مادة « لمد » دار صادر ودار بيروت ، بيروت ١٩٥٥ ج٣ص ٣٩٣

٣٤ ــ مادة « لمد » .

٣٥ ــ الصحاح ، تاج اللغة ، وصحاح العربية ــ تحقيق احمد عبدالغفار ، دار الكاتب العربي بمصر ، ١٩٧٧ ــ ج٥ ص ١٨٧٧ .

زائدة ومن المتعذر عليهم ادراك ماكانت تعنيه في القديم والاحاطة بأساليب استعمالها في عهود غابرة .

والخلاصة هو أن كلمة « تلميذ » مأخوذة من الاصل « لمد » (بالدال أو بالذال) وصورتها اللّفظية منقولة عن الصيغة الصرفية مع المخاطب وتقدم لنا أنه يقال للمخاطب :

في الأكّديّة : او تَلْمَد

في القبائلية : تِلْمَدَضْ أو تِلِمْدَضْ

فاحتفظ بالتاء كما هو الحال في عدد كبير من الكلمات المبدوءة بالتاء حيث كانت التاء فيها بمثابة الضمير وذات وظيفة معينة (وكذلك الامر بالنسبة للياء) ، ثم أضيفت الياء على سبيل التنويع في المدلول وصارت تقال للذي يتعلم ويكتسب الخبرة .

أنت تلمد : أنت تتعلم

أنت تلميذ : أنت متعلم

ومن هناك نعرف أن كلمة تلميذ هي من مادة « لمد » نفسها الموجودة في الأكّديّة والبربريّة وغيرهما وانها ثلاثية ووزنها « تفعيل »

وهكذا فان الاطلاع على البربريّة واللّغات العربية القديمة يزيدنا دراية بمعرفة كثير من الاصول والظواهر اللغوية في عربية القرآن باعتبارها خلاصة لتطور لغوي واسع قديم ومتنوع .

ومن اللافت للنظر أن هذه الكلمة (لمد) موجودة في اللّهجة العاميّة التونسية بمعنى قريب من المعاني المتقدمة من ذلك :

يِلَمَّدْ أدْبَاشُو : يجمع أمتعته

يِلَمَّدْ المَالْ : يعمل على جمعه وتحصيله واكتسابه

وبهذا نعلم أنّ الجذر (لمد) من الاصول الاولى للمعجم المشترك للغات العربيّة القديمة .

الجذور	الاكدية	البربرية	العبرية	العربية
ـ أ ج ر	إجار (لفّ بالشيء)	جحرت (لفّ بالشيء ، حزّم) ـ طوارق	حجار (حزّم)	اعتجر : لفّ
ـ أ ل ل	إلالُ (تطهّر ، صفا) أَلّلُ (طهّر ، صفّى)	اَلِلْ ـ (النتيفة) للّوتْ ـ (الطوارق)	حَلّلْ (غسل) يهودية آرامية	ألّ اللون : صفا وبرق
ـ أش غ	أشاقُ ـ (أوصل)	أسَغْ (ربط) ـ (القبائل)	ـ خَشاق (أوصل) فى العبرية الجديدة	
ـ و ر غ	وراقُ (اخضرّ ، يصفرّ)	إرْوَغْ يصفرّ في كل اللهجات	ـ يَراق (بين الصفرة والخضرة)	ـ وَرِق" : ذات خضرة الورقاء : الحمامة الضارب لونها الى الخضرة
ـ ك م ا	كَمُو (تغلّب) كَمْتُ (حاجة ، ضيق)	إكْمُ (مشتقات الحليب ، السّم) الطوارق ـ تَكْمَ (وجع)		
ـ ك ن و	ـ كنَيْتُ (رفيقة) كِنَتُ	ـ تِكَنِ (خليلة) ـ الطوارق ـ تّكِنِ ، تِكْنونْ (زوجات رجل واحد) القبائل		ـ الكَنّة : امرأة الابن او الأخ

	الاكـدية	البربريـة	العبريـــة	العربيـــة
ـ ك ر م	ـ كَرامُ (سوّف أخّر) كَرِمُ (الثديان)	ـ تَكَرْمُتْ (أسير) ـ الطوارق ـ أكْرَمْ (انكمش على نفسه) ـ أكْرَم برّد الشيء) نظيفة ، تزرويلت		
ـ ك ر ر	كَر (خروف)	ـ أكرر (خروف) ـ الطوارق اِكَرّ (خروف) ـ بنصالح	ـ كارّ (خروف)	
ـ ل م د	لَمَادُ (يجرّب ، يكسب معرفة ، يدرك ، يتعرف)	ألْمَدْ (تعلّم ، أدرك ، درس ، قرأ) الطوارق	لمناد (يتعلم ، يتعود)	ـ لسان تلميذ : متعلم
ـ ل ش ش	لِشَانُ ـ (لسان)	ـ ايلَسْ ، اِلْسْ (لسان) فـي جميـع اللهجات		

الجذور	الاكدية	البربرية	العبرية	العربية
ـ م و ت	ماتُ (مات ، توفي) مُوتَانُ (موْت طاعون)	اِمْت ، يَمِت ـ في جميع اللهجات تَمِتّنْت ـ (الموت)		ـ مات
ـ م ش د	ـ مشاد (ضغط) ضرب بالشللَ تكتّل ،	ـ سِمْسدِ ـ الطوارق		ـ مسد
ـ ن ز غ	ـ نَزَاقُ (اهتمّ حزن)	ـ اَنْزِغْ (ضاع) ـ السوس		
ـ ن ض ر	ـ نَدْرُ ، نَدِرْتُ (غضبان ثائر)	ـ أنْضَرْ ـ الطوارق		
ن ط ر				
ـ ن ك ب	ـ نَكَابُ ، نَكّبُ (نطح ـ ناطح)	ـ أنْكَبْ (صدم ، قفل) ـ الطوراق		نكبت الحجارة رِجله : أصابتها (صدمتها)
ـ ن ك د	ـ نَكَادُ (قلِقُ)	ـ مَنْكَدْ (فشل) ـ الطوارق		ـ نَكِدَ

الجذور	الأكدية	البربرية	العبرية	العربية
ـ ن ك ر	ـ نَكَارُ (تحول ـ خَبُثَ ـ ثار) ـ نَكْرُ (عدو)	ـ آنْكَرْ (نهض) في جميع اللهجات		ـ نَكِرُ ـ رَجلٌ نَكِر : داهية
ـ س م م	ـ سِمٌ (يحمّر) سَمّوق (أحمر ، الحمرة)	ـ سِمَغْمَغْ ـ الطوارق ـ سَمَقّت (لمع)		ـ السُّمسم : النمل الأحمر
ـ ب ج ر	ـ بَجْرُ (جسم ، جذع)	ـ فَجَرْ (لم يحدث) ـ القبائل		ـ بجّار مِنْ (منعه التعب) ـ يَاجِرْ
ب ر س	ـ بَرَاسُ (افترق ـ طلّق)	ـ فَرْس (قطع بحدة) تزرويلت أفْرِسْ (قطع بحدة ، قصّ) الطوارق	ـ بَرَاسْ (قص الخبز)	ـ فَرَسَ الذبيحة : قطع نخاعها أو فصل عنقها
ـ غ ر د	ـ قَرَادُ (ترى شديدا)	ـ تِغُرَدْ (قوة جسدية) ـ الطوارق		

الجذور	الاكدية	البربرية	العبرية	العربية
ق ر د	ـ قَرَّدُ (قوي بطولي)			
ـ غ ر ش	ـ قَرَاشُ (شقّ فرق)	ـ اِغْرَسْ ـ في جميع اللهجات		ـ قَرَش : قصّ ، قطع
ق ر ش		ـ اقّرْسْ (ممزّق) ـ مطماطه ـ سَغْرِسْ (قصَ) السوس ـ اغْرَسْ (مزّق)		
ـ ر ج م	ـ رَجَامُ (صاح ، نادى ، شكى)	ـ أرْجَمْ (كفر) القبائل شلهش		ـ رَجَمَ (كفر)
ـ ر ك ب	ـ رَكَابُ (سافر) ـ نَرْكَبُ (عربة ـ عربة حربية)	ـ أرْكبْ (سحب جذب) الطوارق	ـ رَكَابْ (ركب) ـ مَرْكَاب (عربة حرب)	ـ ركب ، مركب
ـ ر م و	ـ رَمُو (نام)	ـ اِرْمِ (تعب) تزرويلت، سملال تنيفه		
ر م ي				

الجذور	الاكدية	البربرية	العبرية	العربية
ـ ش ك ك	ـ شَكَاكُ (وصل القمة) شِكَتُّ (قمة ، مسمار)	اِسَكْ (قرن الحيوان) في جميع اللهجات	ـ شك° (كّ) (قذى) ـ شِكّ ـ شُكًّا	(شوكة)
. ش ل ض	ـ شَلاَطُ (قصّ ، فرق)	أستلَضْ (قصّ)		ـ شلط بالعامية جروح خفيفة بالجبين
ش ل ط				ـ الشلطاء = السكين

ـ ش ن ن	ـ شَنَانْ (مائل)	ـ شَنَانْ (مذكر) زناجة ـ شِشَنانَتْ (مؤنث) زناجة ـ سِنْ (مذكر) ـ الطوارق ـ سِنَنَتْ (مؤنث) ـ الطوارق ـ سِنْ (مذكر) تزرويلت ـ سَنَت (مؤنث) تزرويلت	
ـ ش ر ي	شَرَ (ترك)	ـ آسْر (أرخى العنان) ـ الطوارق	
ـ ت م ن ث م ن	تَمَنَ (أصبح الثامن)	ـ تَمْ (مذكر) ـتزرويلت ـ تَمْتْ (مؤنث) ـ تزرويلت تَمَت (مؤنث) كناري وتعني ثمانية أما الاصل اللوبي فهو تَمْنُ ، تَمَنْتُ . ـ تَمْن ـ تَمْنَتْ وفي هذه الحالة الأخيرة ضاع الحرف الاصلي الثالث وعوض بحركة الفتحة صارت بمثابة الحرف (٣٦) .	ثمانية ، ثمان
ت ر ك	ـ تَرَاكُ (طرق ، صَفق ، ضرب على الأرض) ـ سقط (شيء)	أفْرَكْ (طرق ـ ضرب) ـ الطوارق تَرَكَتْ (سقط)	ـ طرق

يتضمن الجدول عدد ٢ الموالي مقارنة معجمية بين العبرية والبربرية في عدد من الجذور غير تلك التي ذكرت في الجدول عدد ١ لتأكيد أن هذه الجذور التي تعرفنا عليها والتي لم تتعرف عليها بعد ليست موجودة في اللغتين من باب الصدفة ، وانما هي نتيجة لواقع لغوي قديم مشترك • منه تفرعت هاتان اللغتان وغيرهما • وفي ما يأتي الجدول :

الجذور	العبرية	البربرية	العربية
ـ أ د ب ه د ب	ـ هداب (نطح)	ـ أدَفْ (يدخل) ـ السوس	ـ هدف : هَدَفَ اليه : دخل ، لجأ
ـ أ ن ب	ـ حناب	ـ اُنْفْ (يتوجه الى ناحية) ـ تزرويلت اُنَفْ (ترك) القبائل	ـ حنف : يميل الى ناحية
ـ أ ر ز	ـ أراز	اُزَرْ (ربط) ـ القبائل	ـ أزر : أزر بالشيء : احاط به ، لف عليه
ـ ج و ر	ـ جُورْ (مكث برهة ، سكن)	ـ جَوَرْ ـ النتيفة ، تزرويلت جِوَرَ (جلس ، مكث ، ترقّب) ـ أزوان	
ـ ج ز ر	ـ جزَارْ (قطّع)	ـ اجْزَرْ ، أجهر (تباغض ، حرب) الطوارق	ـ جزر : نحر
ـ ك ن ب	ـ كنَابْ	ـ اِكْنَنَفْ (التغطية بالرمل للتسخين ، التنضيج تحت الرمل أو الرماد)	ـ كنف

الجذور	العبرية	البربرية	العربية
ـ غ ر س ق ر س	ـ قَرَاسْ (انحنى)	ـ تَغَرَسَتْ الطوارق	
ـ ر ج ز	ـ رَجَاز (يقلّق) ـ رُجَزْ (عدم الراحة)	ـ أرْجَزْ أرْجَه (مشى) الطوارق ـ ارْجَزْ (قدم) ـ القبائل ـ أرْجَزْ (رحل) تزرويلت	
ـ ر ج ل	ـ رَجَلْ (ساق ـ رجل)	ـ أرْجَلْ (ترنّحَ) السند ـ أرْجَلْ (ذيل) الطوارق ـ أرْجَلْ (أغلق) ـ اللهجات الاخرى	ـ رِجل
ـ ش ض ب ش د ب	ـ شَدَاب ، شَزَاب (اسودّ)	ـ اذّف (سودّ) ـ الطوارق	ـ أسْدَفُ : أسود ، غامق

يتضمن الجدول عدد ٣ الموالي مقارنة معجمية محدودة بين الاثيوبية (التي هي في الاصل لغة من لغات جنوب الجزيرة العربية القديمة) وبين البربرية لاضافة نموذج اخر من القربى اللغوية توكد وحدة الاصل التي لايتطرق اليها شك • وفي ما يأتي الجدول :

الجذور	الأثيوبية	البربرية	العربية
ـ أ د م هـ د م	ـ تَهَدَمَ (نعسان)	ـ نْدَّم (نام في منتصف النهار) الطوارق	
ـ و ر غ و ر ق	ـ وَرَقْ (ذَهَبٌ)	ـ اِرْوَغْ (يصفرّ) كل اللهجات ـ اَرْوَغْ (اصفر ، أخضر ، ذهبي) تزرويلت	ـ هذا الجذر موجود في الأكدية : وَرَاقُ (أخضرٌ يصفّر) وفي العبرية : يَرَاق (بين الصفرة والخضرة) وفي العربية وَرِق (الوَرَاق : خضرة الارض من الحشيش ـ الوقاء : الحمامة ذات اللّون الاخضر) •
ـ ك ل ب	ـ كلّفَ (دقّ ـ يرفق)	ـ كَلَفْلَفْ (مسٌ من الجهتين برفق) الطوارق كَلْلَفْ (ملاطف)	

الجـذور	الأثيوبية	البربرية	العربية
ـ ل م د	ـ لمَدَ (تعودّ)	ـ ألـْمَـدْ (تعلم ، أدرك ، درس ، قرا ، تعوّد) الطوارق	ـ هذا الجذر موجود في الاكدية : لَمَادُ : يجرّب ، يكسب معرفة ، يدرك يعرف) وفـي العبريـة لَمَادْ (يتعلم ، يتعود) وفـي العربية : تِلـْم ، تلميذ وفي اللّهجة العاميّة التونسية : يِلـَمَّدْ : يجمع ، يحصل ، يكسب
ـ م أ ر م ع ر	ـ مَعَرْ (لحظة زمانية)	ـ اِمَرْ (لحظة) ـ الطوارق	ـ مرّة : الدالة على الزمان
ـ ش أ ر	ـ سَعَرَ (فسخ ، وألغى ، هلك أبطل)	ـ أسَرْ (أعدم ، ابطل) الطوراق	
ش ع ر			

تطور التعليم في المغرب الاقصى
في العهد العلوي (١٦٦٤ ـ ١٩١٢م)

الدكتور مفيد الزيدي
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

الملخص

يتناول البحث موضوع تطور التعليم في العهد العلوي في المغرب الاقصى في النصف الثاني من القرن السابع عشر الميلادي ، وحتى الثلث الاول من القرن العشرين ، ويختص بسياسة السلاطين العلويين تجاه التعليم في عهد المولى الرشيد (١٦٦٤ـ١٦٧٢) وانشاء الزاوية الدلائية ثم في عهد المولى اسماعيل بن الرشيد (١٦٧٢ـ١٧٢٧) من حيث الاهتمام بالعلوم والآداب ، وانتعش في عهد السلطان المصلح سيدي محمد بن عبدالله (١٧٣٥ـ١٧٥٧) الذي يعدّ عهده مرحلة زاهية في المغرب الاقصى بالعهد العلوي ، ثم واجه التعليم بعض التحفظ في عهد عبدالرحمن بن هشام بسبب الظروف الداخلية والمشكلات الخارجية ولاسيما هزيمة (أيسلي) امام القوات الفرنسية حيث استعاد المغرب مرة اخرى مرحلة الاصلاح في عهد الحسن الاول (١٨٧٣ـ١٨٩٤) ثم المولى الحفيظ (١٩٠٨ـ١٩١٢) والتغيرات التي حصلت ولاسيما في مجال التعليم والثقافة الذي اصبح رمز من رموز التغيير والاصلاح •

المقدمة :

إرتبط تأريخ المغرب الاقصى على وجه العموم بالاهتمام بدراسة التطورات الاقتصادية والسياسية دون الدخول في الموضوعات الحضارية ولاسيما الفكرية منها التي اسهمت في ترسيخ اسس النهضة العربية الاسلامية في المغرب العربي بأسره ، لكون ان حياة الامم ورسوخ حضارتها لا يُبنى على الجوانب المادية فحسب بل على الاسس الروحية والمعنوية ذات الدلالات والمضامين السامية .

وعلى هذا الاساس فإن سياسة الدولة العلوية في المغرب الاقصى منذ ظهورها في النصف الثاني من القرن السابع عشر سادها طابع نحو استقطاب الجماهير ، والتصدي للقوى الاجنبية والاسهام في الجهاد ومقاومة الطرق الصوفية ، والدعوة الى الوقوف امام العثمانيين والحصول على الاستقلال . ثم تحولت هذه السياسة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للبحث عن أصول إصلاح البلاد في مؤسساتها الفكرية والاقتصادية والسياسية ، ومكافحة تمردات القبائل المغربية ، وبدأ المصلحون عن طريق التواصل مع المشرق العربي يدعون الى تأسيس مدرسة فكرية تأخذ على عاتقها النهوض بالجوانب المختلفة من الحياة المغربية ، وقد تباين مقدار تجاوب السلاطين العلويين مداً وجزراً مع هذه الدعوات نتيجة لمواقف ذاتية ، او لضغوط خارجية من القوى الاجنبية، او لمسببات داخلية متمثلة بالطرق الصوفية أو القبائل الثائرة .

إن من الاسباب التي حفزتنا على كتابة هذا البحث ، واختيار موضوعه قلة الدراسات العلمية والجامعية التي أولت جانب الاهتمام بنظام التعليم في العهد العلوي ، على الرغم من تصدي جامعاتنا ومعاهدنا لعدد لا بأس به من الرسائل العلمية التي اهتمت بجوانب فكرية / حضارية في مرحلة ما قبل ظهور العلويين في المغرب الاقصى .[1]

لمحة عن التكوين السياسي للدولة العلوية :ـ

أستطاعت القيادة في المغرب الاقصى أن تحتفظ لنفسها بحرية واضحة في حكم اقاليمها بعيداً عن تلك في المغرب الكبير ، الا أن عصر الضعف والتوتر الذي أصاب البلاد في اواخر العهد السعدي (١٥٥٤ـ١٦٦٦م) أدى الى تفكك

---

(١) من الرسائل الجامعية التي اهتمت بهذه المجالات الفكرية ينظر :

صحراوي بشير ، العلاقات الثقافية والادبية بين المغرب العربي والاندلس في عصر الموحدين ، ماجستير غير منشورة ، قسم اللغة العربية ، الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٣ .

حازم غانم حسين ، الحياة العلمية والثقافية في الاندلس في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ماجستير غير منشورة ، الآداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٣ .

بشرى عبدالعزيز الزبيدي ، الثغر الاوسط الاندلسي في عصر الطوائف ، دراسة في احواله السياسية والثقافية ، ماجستير غير منشورة ، الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٤ .

محب محمود قاسم ، الحياة الفكرية في عهد الاغلبة ، ماجستير غير منشورة ، الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٨٦ .

عبدالعباس ابراهيم حمادي ، الحركة الفكرية والعلمية لمدينة مراكش منذ تاسيسها حتى سقوط الدولة الموحدية واثرها على المراكز الثقافية والاسلامية ـ جنوب الصحراء ١٠٦٢ـ١٢٦٩ ، ماجستير غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٠ .

الاقاليم سياسياً وأدارياً ، وظهور زعامات جديدة كالطرق الصوفية ، ورجال القبائل ، والتصدي للكفاح ضد القوى الاستعمارية مما رسم الظروف لظهور قوة جديدة تسعى للسيطرة على الاقليم وأقامة حكم جديد ، ووجهت الانظار صوب الاسرة العلوية (١٦٤٠ ـ حتى الوقت الحاضر) التي استقرت في واحة تافيلالت جنوبي المغرب من اجل النهوض واعادة الاستقرار والسلام للاقليم ، وقيادة الجهاد ضد الاوربيين لطردهم من الاقاليم التي احتلوها .[٢] والعلويون اشراف ينتسبون للحسن بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنهما) سكنوا في بداية الامر في مدينة ينبع بالحجاز على ساحل البحر الاحمر ، وتركز نشاطهم حتى اواسط القرن السابع عشر على الجانب الديني ، وقد ابدوا نشاطاً سياسياً حينما اصطدم الشريف بن علي (لم يحكم) مع أبي حسون السملالي انتهت بمبايعة محمد بن الشريف (١٦٣٥ـ١٦٦٤) في سلجماسة عام ١٦٤٠ ، لكنه قتل عام ١٦٦٠ بسبب خلافه مع اخيه الرشيد بن الشريف (١٦٦٤ـ١٦٧٢) الذي تمت مبايعته ، ودخلت الاسرة العلوية في عهد جديد من خلال توسع نفوذها في فاس منذ عام ١٦٦٦ ، وتغلغلها داخل اراضي المغرب الاقصى ومواجهة الزوايا الدينية[٣] ، فأستطاع الرشيد من حل الزاوية الدلائية ١٦٦٨ . ثم اصطدمت بالطرق الصوفية والحكم العثماني فيالجزائر ، وواجهت مشكلات من أجل تثبيت نفوذها على البلاد بالكامل .[٤]

---

(٢) جلال يحيى : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، جـ٣ ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ٦٥ـ٦٦ .

(٣) جمال هاشم احمد ذويب : التطورات السياسية الداخلية في المغرب الاقصى ١٨٩٤ـ١٩١٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٨٩ ، ص ١ـ٣ .

* سيأتي الحديث بالتفصيل عن الزاوية الدلائية : ينظر ص ٧ـ٩ .

(٤) صلاح العقاد ، المغرب الكبير ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٦٢ ، ص ٦٨ـ٦٩ .

ثم خلف الرشيد اخوه اسماعيل بن الشريف (١٦٧٢–١٧٢٧) الذي عزز سيطرته الداخلية بفرض القوة والقسوة والدموية وأرتكب المجازر حتى بالمقربين اليه من افراد اسرته ، وتمكن من قمع الحركات القبلية فكان برأي المؤرخين اقوى السلاطين العلويين .(٥)

وقد عانت الدولة العلوية مرحلة من الفوضى بعد عهد اسماعيل (١٧٣٥–١٧٥٧) وهي مدة ضعف السلاطين من الحكام المدّعين بالسلطة وأدى ذلك الى تردي الاوضاع ، وتبادل السلاطين عن طريق الخلع والطرد ، حتى وصل الى الحكم السلطان محمد بن عبدالله (١٧٥٧–١٧٩٠) فدخلت البلاد بحكم جديد ساده الهدوء النسبي ، والامن والاستقرار واستطاع إخراج البرتغاليين من الجديدة ، ومعالجة الاقتصاد ، وبناء الموانيء الجديدة ، ووطّد علاقاته بالقوى الاجنبية ، ثم اعقبته مدة من الفوضى (١٧٩٠–١٧٩٢) ونزاع بين اليزيد الذي قتل عام ١٧٩٢ ، وهشام (١٧٩٢–١٧٩٦) وسليمان (١٧٩٢–١٨٢٢) ، ثم اعقبهم عبدالرحمن بن هشام (١٨٢٢–١٨٥٩) الذي جمع جيش البلاد ، وقوّى الاسطول ، وبدأ مرحلة من الاصلاح لاسيما إبان هزيمة المغرب امام فرنسا في موقعة أسلي في ٤ آب ١٨٤٤ وكانت هزيمة قاسية ، وهزة عنيفة للقيم والمفاهيم داخل المجتمع المغربي أظهرت التخلف الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والعسكري امام التقدم الاوربي الحديث ، واعقب ذلك الهزيمة امام الاسبان في معركة تطوان في الرابع من شباط عام ١٨٦٠ حيث ألحقت الهزيمة بالجيش المغربي على أيدي الاسبان مما ادى الى حدوث أزمة اقتصادية ومالية دعت الى ضرورة الاصلاح في الجيش والادارة ، مما نتج عنه تدخلا اوربياً في الشؤون المغربية بشكل رسمي ، واتساع الجاليات المغربية في الخارج ، وارتفاع اعداد المقيمين الاجانب في المغرب ، وحدوث تنافس دولي على المغرب استمر حتى عهد السلطان الحسن الاول (١٨٧٣–١٨٩٤)

(٥) ذويب ، المصدر السابق ، ص ٤–٥ .

الذي عمل على صيانة الامن والاستقرار في البلاد ، والاستمرار بحركة الاصلاح النشيطة في شتى المجالات .[٦]

ولابد من الاشارة الى ان الاسرة العلوية واجهت مشكلات داخلية تمثلت بجباية الضرائب ، وتنظيم الجيش ، وقمع الحركات القبلية والطرق الصوفية ، وصراعات من اجل المصالح والنفوذ بلا مراعاة المصلحة العامة للبلاد ، فقد وصف ذلك احد الكتّاب المعنيين بالشؤون المغربية ، وهو هنري تيراس بقوله :

« .. لم يشكّل المغرب سوى ائتلاف مصالح فهو لم يكن يمثل فكراً بناءً او ارادة ايجابية موحدة بل كان هدفه الاسمى هو البقاء لفائدة الجماعات والاشخاص الذين يكوّنونه .. » .[٧]

أما عن الجانب الفكري كأحد ميادين الحياة العامة في العهد العلوي ، فإن المغرب الاقصى منذ ظهور الاسلام أنتعشت فيه الحركة الفكرية حيث بلغت اوجها في عهد المرابطين (١٠٧٦-١١٤٦م) ثم الموحدين (١١٤٦-١٢٦٩م) فأهتموا بالعلوم والآداب والفنون مادياً ومعنوياً ، فظهرت حركة علمية نشيطة من العلماء والمفكرين والادباء الذين اسهموا في الكتابة والترجمة ، وأنشاء الجامعات والمدارس التي تدرّس فيها الرياضيات ، اشهرها جامعة ابن يوسف ، ومع هجرة اعداد من الاندلسيين من أهل العلم والثقافة الى المغرب العربي قبل عام ١٤٩٢م وبعده أسهموا في إثراء الحياة العلمية بمختلف الآداب ، والعلوم التي أشتهروا فيها بالاندلس ، فأدخلوا المغرب الاقصى بنظام المدارس

(6) F. Nyropand other , Area Handbook for Morocco, Washington - 1972 , PP. 41-45 .
Nevill barbour, Morocco, London, 1965, PP. 118-127.

(٧) نقلا عن : جون واتربوري ، الملكية والنخبة السياسية في المغرب ، ترجمة ماجد نعمة وعبود عطية ، دار الوحدة للطباعة ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص٢٣ ، ص ٣٤ .

المتخصصة كالطب بالقرويين من خلال التأليف والترجمة العلمية والادبية،[8] وقد أسهم في تطور الحركة الفكرية بالمغرب العربي ثلاثة مصادر أساس هي :ـ

١ ـ الاتصال بالمشرق العربي وتأثيرات الاصلاحات الدينية ـ الفكرية هناك بوسائل كالحج والبعثات العلمية بين مصر والمدينة والمغرب العربي •

٢ ـ النهضة الاوربية الحديثة لاسيما في ايطاليا وفرنسا في العلوم الفلسفية والطبية واحتكاك المغرب بأوربا .•

٣ ـ بروز جامعات عريقة مثل القرويين في المغرب الاقصى ، وسعيها للحفاظ على اللغة والثقافة العربية ، واستمرارها بتخريج العلماء والادباء من قادة الحركة الفكرية والاصلاحية •[9]

لقد أفرزت الحضارة العربية الاسلامية في المغرب العديد من العلماء والمفكرين الذين اتجهوا للمعارف والعلوم العقلية والعمرانية ، وظهر اساطين من الفلاسفة والعلماء في الطب والكيمياء والفيزياء والفلك والرياضيات ، وازدهرت اللغة العربية وآدابها ، ونهضت الحضارة العمرانية والتجارة والري والاسواق والانهار والمدن والقلاع والمساجد والمدارس ، وعاش المغرب الاقصى ، من عهد الادارسة (٧٨٨ـ٩٨٥م) حتى العهد العلوي في ظل هذه التطورات الفكرية ، وامتاز الجانب التعليمي بحيز كبير من الاهتمام والرعاية

(٨) عن الصلات بين المشرق والمغرب العربيين منذ عصر النهضة ينظر :
زكي مبارك « رفاعة الطهطاوي وادريس العمراوي نموذج للصلات الثقافية بين المغرب ومصر في عصر النهضة » ، مجلة البحث العلمي ، السنة (٢٣) ، العدد (٣٨) ، الرباط ، ١٩٨٨ ، ص ١٧٩ـ١٨٩ .

(٩) عن هذا الموضوع يراجع :
خيرية عبدالصاحب وادي ، نشأة الاصلاح وتطوره في المغرب العربي ١٨٣٠ـ١٩٣٩ رسالة دكتوراه غير منشورة ، معهد الدراسات القومية والاشتراكية ، الجامعة المستنصرية ، ١٩٨٩ ، ص ٢٨ـ٣٠ .

لكونه المرتكز الاساسي للنهضة العلمية ، وأساس بناء العلماء والمفكرين في كل زمان .[10]

اولا : وضع التعليم في المرحلة الاولى من العهد العلوي (١٦٦٤–١٧٩٠) :

شهد عهد المولى الرشيد تطوراً ملحوظاً في بعض الجوانب الفكرية في المجتمع المغربي فقد أحب العلم والعلماء ، وكان يذهب أليهم ليقرأ بعض الكتب، ويقول في ذلك :

« العلم يؤتى ولا يأتي » ، وتردد على منازل العلماء ولاسيما مجلس الشيخ اليوسي في القرويين .[11]

وأسهم في تشجيع الحركة العلمية فأنشأ المدارس ، وأحب الآداب وحضر المجالس العلمية في القرويين ، وشارك في مناقشات العلماء الفقهية واغدق عليهم الهدايا من اجل تحفيزهم للتأليف والكتابة وخلق روح المنافسة العلمية فيما بينهم ، وتقوية الحركة الثقافية ، وأسس مدرسة الصفاريين بفاس على طراز بديع من الفن والعمارة وجعل فيها داراً لسكن الطلبة وذلك في عام ١٦٧٨م .[12]

---

(١٠) يحيى ، المصدر السابق ، ص ٦٦ .
للتفاصيل عن الاصلاح في المدارس والمعاهد في المغرب العربي ينظر :
صالح خرافي : « المدارس والمعاهد العليا دورها في النهضة العربية الحديثة » ، مجلة مجمع اللغة العربية الاردني ، العدد (٤١) ، تموز ١٩٩١ ، ص ١٧–٤٦ .

(١١) الشيخ ابو العباس احمد بن خالد الناصري ، الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى ، تحقيق جعفر الناصري ، ومحمد الناصري ، ج١ ، دار الكتاب ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص ٤٤ .

(١٢) محمد الاخضر ، الحياة الادبية في المغرب على عهد الدولة العلوية ١٠٧٥–١٣١١هـ / ١٦٦٤–١٨٩٤م ، ط١ ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، ١٩٧٧ ، ص ٦٨ .

ويذكر أن أول مدرسة انشئت في سوس حي أبي محمد وكاك تسمى بالرباط في زاوية الكو ضواحي تزينت ، وأزدهرت الحياة الثقافية في سوس فأنتشرت وشيّدت المدارس العلمية ، ونُظّمت اللقاءات الدينية ، وأنشأت المكتبات والكتاتيب القرآنية ولاسيما في سوس وسبته وسجلماسة وسلا وطنجة وتادلة ، وحظي العلماء بمكانة علمية بارزة ، فانتشرت علوم اللغة والشرع والادب والقرآن الكريم والسيرة النبوية .[١٣]

وشيّد الرشيد مدرسة كبيرة سُميّت « الشراطين أو الجديدة » بفاس لدراسة العلوم المختلفة ، والى جانبها دار سكن الطلاب من ثلاثة طوابق تمثل (٢٣٢) بيت ، فضلا عن قبة للصلاة ، واستحدث نزهة ربيعية للطلاب سنوياً على ضفاف وادي الجوهر بفاس للترويح عنهم من اعباء الدراسة ويشارك فيها الاهالي ايضا لمدة اسبوع واحد .[١٤]

وقد شيّدت المدرسة في شارع الشراطين في موضع دار عزوز على مساحة فسيحة من الارض ، ولها بابان الاول باب الشراطين ، والاخر مقابل له ، وفيها الحوانيت والمعامل وفدادين زراعية وعقارات .[١٥] فضلا عن ذلك أنشأ الرشيد خزانة علمية وجاب اليها الكتب النادرة والمخطوطات النفيسة ، وبنى مدرسة كبيرة بأزاء مسجد الشيخ أبي عبدالله محمد بن صالح في مراكش ، وكان عهده عهد أزدهار علمي وفكري لم يسبق له مثيل في عهد السلاطين

---

(١٣) الحسين وجاج ، « المدارس العتيقة في سوس والملوك العلويين » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٨٢) ، الرباط ، اذار ١٩٩١ ، ص ١٧٦ـ١٧٨ .

(١٤) عبدالله كنون ، النبوغ المغربي في الادب العربي ، ج١ ، ط٢ ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٢٧٤ـ٢٧٥ .

(١٥) عبدالهادي التازي ، جامع القرويين والجامعة بمدينة فاس موسوعة لتاريخها المعماري والفكري ، مج٣ ، ط١ ، الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٧٦١ .

العلويين الذين سبقوه.[١٦] فضلا عن ذلك، فان الرشيد بعد ان استولى على الزاوية الدلائية أخذ الوثائق والكتب ونقلها الى علماء فاس وطلابها للاستفادة منها، فضلا عن نقله علماء وتجار وطلاب الزاوية الى هناك حيث أستقروا للتدريس والمتاجرة، فأزدهرت مساجد المدينة ومدارسها الادبية والعلمية وقبل الكثير من الطلبة للدراسة على يد المحدثين والفقهاء واللغويين والنحاة والادباء مثل محمد المرابط ومحمد الشاذلي والحسن البسي ومحمد المناوي ومحمد بن عبدالله الشاذلي وغيرهم، وكانت لها حلقات دراسية فتخرج فيها العديد من الطلبة في المدرسة الدلائية في فاس منهم السلام القادري صاحب كتاب « نزهة الفكر » وآخرون.[١٧]

ظهور جامعة القرويين ودورها التعليمي :

أطلق على اهل فاس قول مأثور « إن اهل فاس وأقوالهم لابد أن تجد لهم سنداً في اصول الشرع وفي بطون الكتب »، فكان نشوء جامعة القرويين يؤكد دور علماء القرويين في انشاء العلوم والادب، وأصبح الناس على صلة بالكتب ولم تكن للقرويين فحسب بل في فروعها المنتشرة في المدن والمساجد التي اصبحت مراكز للعلم الى جانب الكراسي العلمية وخزائن الكتب، ففي كل شارع تجد زاوية ومدرسة يأتي اليها التاجر والصانع والعامل والطالب لحضور مجالس العلماء والفقهاء والاساتذة والشيوخ المحسوبين كافة على جامعة القرويين، ومن أبرز المساجد والمدارس مسجد عياض، والمدرسة المصباحية.[١٨]

---

(١٦) ادريس العلوي، « جامع القرويين في عهد الدولة العلوية الشريفة »، مجلة دعوة الحق، العدد (٢٧٨)، الرباط، اذار، ١٩٩٠، ص ٧٠.

(١٧) يرجع عن الدلائية :

محمد حجي، الزاوية الدلائية، دورها الديني والعلمي والسياسي، المطبعة الوطنية، الرباط، ١٩٦٤، ص ٣٠-٤٩.

(١٨) التازي، المصدر السابق، ٦٨٢.

وقد ضمت جامعة القرويين المعلمين والطلبة حيث تسير على نظام الامتحانات السنوية والدورية وبها شيوخ كبار مثل محمد بن التهامي الرغاي والسيد قاسم الحاجي الرباطي والقاضي احمد بناني الرباطي وأبي عبدالله ميمون الفخار والعالم احمد السوداني ، وتدرس فيها مواد الفقه الاسلامي (توحيد ـ فقه ـ تصوف) ، والفقه والعروض والقوافي والرياضيات والحساب والاصول والصرف وأصلاح الحديث والسيرة والبلاغة والتفسير والادب .(١٩)

وكانت في القرويين على عهد العلويين كراسي للحديث والنحو والتفسير مثل كرسي الشيخ البناني ، وكرسي مسجد الميزاب ، وكرسي مسجد سيدي عبدالرحمن المليلي ، وكرسي مسجد درب ، فضلا عن ضريح سيدي نوار مسجد الخل ، زاوية سيدي يوسف الفاسي ، زاوية محمد بن عبدالله ، مسجد السماديين بالرصيف ، مسجد رأس الجنان ، مسجد بن عامر ، والمسجد الاكبر الجديد بالرصيف وغيرها .(٢٠)

وكان عهد السلطان أسماعيل مرحلة لتطور جامعة القرويين وازدهارها فكانت متحركة ـ اذا جاز التعبير ـ الفاسي يلتحق بمكناسة ، والمراكشي بوجدة ، وعَدّ علماء القرويين الجامعة وقفاً للمغرب الاقصى بأسره يخصص جرايات نقدية لتطوير العلوم كالفلك والهندسة ، حيث اتسعت حركة التأليف في عصره فجمع الخطاطين لينسخوا المؤلفات القيمة ، وجمع في الخزانة الاسماعيلية تصانيف من الكتب والذخائر التراثية لم تكن متوفرة في معظم العالم الاسلامي ، وظهر عدد من العلماء والفقهاء مثل أبي زيد الفاسي ، والقضاة بردلة والمجاصي واليوسي ، والرحالة العياشي والقادري والبناني ،

---

(١٩) عبدالله الجراري ، من أعلام الفكر المعاصر بالعدويتين الرباط وسلا ، ج١ ، ط١ ، مطبعة الامنية ، الرباط ، ١٩٧١ ، ص ١٩٣ـ١٩٩ .

(٢٠) محمد المنوني ، « كراسي الاساتذة بجامعة القرويين بالعصر العلوي » ، مجلة دعوة الحق ، السنة (٩) ، الرباط ، اذار ١٩٦٦ ، ص ٩١ـ٩٧ .

وأقام أسماعيل مساجلات بينه وبين هـؤلاء في قضـايا عديـدة مثل عبيـد البخاري* .(٢١)

ثانيا ـ ازدهار التعليم في عهدي اسماعيل ومحمد بن عبدالله :ـ

ولع السلطان اسماعيل بالعلوم والآداب وتشجيعه علماء القرويين وطلابها . وفضلا عن ذلك شيّد مدرسة (الصفارين) بفاس لتكون مقراً لتعليم الطلبـة وسكنهم ، وبنى خزانة علمية بجامع الاعظم بفاس ، وحضر مجالس العلمـاء ، وقرّب الشعراء ومنحهم الجوائز ، وقام بتجديد عدد من المدارس والمسـاجد التي كانت مركزاً للعبادة والتنسك وانتشار الثقافة والتعليم ، وخاض في علوم النحو والبيان والمنطق والاحكام ، وشجّع التنافس بين علماء المدن والبوادي في فاس ، وأقام احتفالات بختم الكتب وتقديم جوائز تقدم في احتفالية ثقافية ، ومكافأة الشعراء البارزين وتقديم الكسوة لهم مع ١٠٠ مثقال ، ومن ابرز مـن ظهر في عهده في السيرة النبوية أبو الفضال مسعود بن محمـد بن جمـوع ، وأحمد ابن عبدالحق الجلبي ، ومحمد بن عبدالرحمن الدلائي ، وفي الحديث محمد بن عبدالرحمن الفاسي ، وعلي بن احمد الحريشي ، وفي الفقه الطيـب

---

* عبيد البخاري ، تسمية اطلقت على الجنود اتبـاع صحيح البخاري عبيـد لسنة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) عن طريق القسـم الـذين يأدوه بقولهم : « انا وانتم عبيد سنة الرسول ولشرعه المجموع في هـذا الكتاب فكل ما امر به نفعله ، وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل » ، ويلف الصحيح بقطعة خضراء وفي كل معركة يوضع في خيمة يقسـمون عليـه هؤلاء الجنود فسموا بجيش البخاري او البواخرة وهم يشبهون الانكشارية قسم منهم يجلبون في مدارس خاصة وهم صغار ويتزوجون من نفـس العبيد في العقد واسست أول مدرسة لتدريسهم في عام ١٦٨٩ بنظـام ٦ سنوات بلغوا اواخر عهد اسماعيل (١٠٠ الف) رجل ، بدأوا بالتدخل في سياسة الدولة واختيار الولاة السلاطين ينظر التفاصيل :

نقولا زيادة ، صفحات مغربية ، ط١ ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٦ ، ص ٨٠ـ٨١ .

(٢١) التازي ، المصدر السابق ، ص ٧١٧ـ٧١٨ .

عبدالقادر الفاسي ، والحسن بن رحال المعداني ، وفي التفسير والقراءات أبو العلاء ادريس بن محمد المنجرة ، ومحمد بن عبدالرحمن بدر زكري الفاسي ، وفي التصوف محمد بن احمد بن المسناوي الدلائي ، والطيب بن احمد المريني .[٢٢]

وقام أسماعيل بضم سائر المساجد الى أوقاف القرويين كما أشرنا آنفاً ، وتشريع أصلاحات ، وأقرارها بقوله للعلماء « إن ذلك بناء على ما كان لله فأنه يجوز صرف بعضه في بعض » ، وقام للمرة الاولى بتاريخ الاوقاف بتدوين سجلات الاوقاف على اساسين هما : ـ

١ ـ ما تمخض للجانب الخاص بالقرويين ، علماء وطلبة من السير المادي للجامع .
٢ ـ ما تمخض عن أعمال البر والاحسان من اوقاف المارستان .[٢٣]

وفي عهده توفي آخر علماء المغرب الافذاذ في العلوم العقلية وهو ابو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، العالم والمحقق الذي أشتهر بالعلوم العقلية والريادة بالتعليم ، وصاحب كتاب « القول الفصل في الفرق بين الخاصة والفصل » .

وقد مدح أبو زيد عبدالرحمن الفاسي أحد شعراء المغرب المعروفين السلطان أسماعيل بقوله :

أنظر لبهجة بيت الله يا رائي ... وسرّح الجفن بين أرجائي
تخالها جنة تزهي مزخرفة ... يطيب الزهر من انفاس قرائي[٢٤]

---

(٢٢) عبدالجواد السقاط ، « من تاريخ الحركة الثقافية في عهد المولى اسماعيل » مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٥٨) ، الرباط ، حزيران ، ١٩٨٦ ، ص٤٣ـ٤٥

(٢٣) التازي ، المصدر السابق ، ص ٧٤٠ . نقولا زيادة ، « المولى اسماعيل سلطان المغرب » ، مجلة الابحاث ، ج١٧ ، الرباط ، ١٩٦٤ ، ص١٤٩ـ١٦٥

(٢٤) الناصري ، المصدر السابق ، ج٧ ، ص ١٠٨ـ١٠٩ .

وقال فيه الفقيه عبدالله محمد بن عبدالله الجزولي قصيدة طويلة مطلعها :

مولاي أسماعيل يا شمس الورى | يا من جميع الكائنات فدى له
ما أنت إلا سيف حق منتخى | الله من دون الخليفة سله

أما في عهد السلطان محمد بن عبدالله آخر سلاطين العهد الاول من الازدهار العلوي قبل عهد الفوضى والاضطرابات بين (١٧٣٥ـ١٧٥٧)** فقد بمتابعة شؤون التعليم في البلاد بالرغم من مواجهته للمشاكل الداخلية والصعوبات الخارجية الا انه أولى الجانب الفكري من حياة الدولة العلوية كل الرعاية والاهتمام ، فأنشأ الافكار ، وعين ناظراً لها يتمتع بقوة الشخصية وحسن الخلق وأعطى له مهمة الاشراف على بناء مدرسة العطارين ، والمزدغي مشرفاً على المدرسة المصباحية ، وابن الاشقر على مدرسة ابي عنان ، واغدق على العلماء والفقهاء والنظار والقضاة الاجور والوصايا مما يدلل على أهتمامه بأمور العلماء وتوليتهم المناصب العليا التي تتناسب مع خبراتهم وتخصصاتهم السياسية والادارية .(٢٥)

وقد ازدهرت الحياة الفكرية في عهده فقد وضع برنامجاً دراسياً لجامعة القرويين في منشور اصدره عام ١٧٧٨م وجاء في الفصل الثالث منه :

« أمرنا المدرسين في المساجد في فاس ألا يدرسوا إلا كتاب الله بتفسيره ، وكتاب دلائل الخيرات والصلاة على رسول الله صلى الله عليه

** شهد المغرب الاقصى فترة من الفوضى والاضطرابات بين (١٧٣٥ـ١٧٥٧) وتنافس بين السلاطين للاستحواذ على الحكم ومن بينهم علي الاعرجي (١٧٣٥ـ١٧٣٦) ثم محمد الثاني (١٧٣٦ـ١٧٣٨) ثم المستضيء (١٧٣٨ـ١٧٤٠) وزياد العبادني (١٧٤٥) واستمر الوضع هكذا حتى عام ١٧٥٧ حيث وصل السلطة محمد بن عبدالله وعاد الاستقرار والامن للبلاد .

(٢٥) الاخضر ، المصدر السابق ، ص ٦٩ .

وسلم ، ومن كتب الحديث المسانيد والكتب المستخرجة منها والبخاري ومسلماً وغيرها من الكتب الصحاح ومن كتب الفقه المدونة والبيان والتحصيل ومقدمة ابن رشد والجواهر لابن ساس والنوار والرسالة لابن أبي زيد وغير ذلك من كتب الاقدمين ومن آراء تدريس مختصر خليل فأنما يدرسه بشرح بهرام الكبير والمسواق والحطاب والشيخ علي الاجهوري وما عداها من الشروح كلها ينبذ ولا يدّرس به .. كذلك قراءة سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم كالكلاعي وابن سيد الناس والبعمري وكذا كتب النحو كالتسهيل والالفية وغيرهما من كتب هذا الفن والبيان بالايضاح والمطول وكتيب التصريف وديوان الشعراء الست ومقامات الحريري والقاموس ولسان العرب وامثالهما مما يعيين على فهم كلام العرب لانها وسيلة الى فهم كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وناهيك بها نتيجة ومن اراد علم الكلام فعقيدة ابن ابي زيد (رضي الله عنه) كافية شافية يستغني بها جميع المسلمين »[٢٦].

مما يشير الى اهتمام السلطان محمد بن عبدالله بشؤون التعليم وتدخله في المناهج الدراسية ، ورغبته في تطوير العلوم الشرعية والفقهية ، وتأهيل الطلبة واعدادهم بشكل جيد من خلال اعتكافهم على دراسة المصادر الاصلية دون الثانوية ، وتحري دقة اختيار الكتب وكشف العلمي منها عن سواه ، وانه اوصى بدراسة تراث العرب لفهم كتاب الله وسنّة رسوله الكريم ، وعدم الخوض في الامور التي تبعد المسلمين عن جوهر الاسلام الحقيقي وتؤدي الى الفرقة والنزاع والتجادل اللاعلمي .

وكان بلاطه يزخر بالعلماء والادباء ، وتذكر فيه العلوم والمعارف والقصائد وأمور اللغة وشؤون الرعية وقد اهتم بمكتبة جده اسماعيل المسماة « الاسماعيلية » التي تحوي نحو (١٤ ألف) مجلد فزادها كتباً ، وحافظ على

---

(٢٦) زيادة ، المصدر السابق ، ص ٩٠ــ٩١ .

سلامتها وفتحها لجميع الباحثين وطلبة العلم ، ولا يستغرب منه ذلك لكونه نشأ في جوٍ علمي أدبي ، وتعلم على يد معلم قدير هو محمد بن عبدالله بن ادريس المنجرة ، وجدته خناثة بنت بكار المغافرية الشنقيطية التي اهتمت بالعلوم والادب ، ورَبّته وعلّمته على يدها ، وأخذته الى الحجاز في رحلة من اجل الحج والإستفادة من علمائها ايضا في سلوكه ، فنشأ مهتماً بالتشريع والفقه والحديث ، وامر رجال الحديث بشرح كتاب الصغاني للتساوي ، فضلا عن اهتمامه بالإصلاح القضائي وبالمناهج العلمية والاقتصاد والاجتماع ، وفي عهده أصبحت مراكش قبلة العلماء من بلاد فاس والرباط ومكناس ، وقد اجتمع حوله العلماء في الجوامع والمدارس . وكان له ولع بسرد كتب التأريخ والادب مثل كتاب (الاغاني لابي فرج الاصفهاني) ، وكتاب (من كلام العرب لمحمد مجلس) ، وقد رفع شأن العلماء وقدم لهم الهدايا والجوائز وقضى حوائجهم ، ورفع بعضهم الى درجة السفير والكتبة الخارجيين ، فبرز في عهده أبو القاسم الزياني فكتب (٢٥ كتاباً) ظهرت اغلبها بعده مثل (الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب) ، و (الترجمانة الكبرى بستان الادباء) و (بستان الظريف في دولة اولاد مولاي الشريف) ، و (ألفية السلوك في وفيات الملوك) وغيرها .[٢٧]

ولم يقتصر الامر على ذلك فحسب فقد رعى علوم الفروع والمختصرات فكثرت المنظومات التعليمية والشروح والحواشي والتأليفات ، وقام بإصلاح التعليم والدراسة والتدريب وعقد مجالس تعليمية للمناقشة والبحث في مجلس سلطاني كبير ضم خيرة العلماء ، وأسند اليهم مهاماً علمية بشرح كتب الحديث والإجابة عن قضايا دينية وتقديم وجهة نظرهم فيها ، وتأليف كتب الرحلات وأصدار اوامره بأصلاح التعليم في البلاد .[٢٨]

---

(٢٧) الاخضر ، المرجع السابق ، ص ٢٧١-٢٧٢ .
(٢٨) المصدر نفسه ، ص ٢٧١-٢٧٢ .

وأهتم ايضا بشؤون اهل العلم من العلماء والطلبة والكتاتيب والكتبيين، ووزّع عليهم المال والكسوة ، وأمر أن توزّع كتب الاسماعيلية على مساجد المغرب ، واصدر قانوناً بذلك ، وقد جلب من المشرق العربي كتباً نفيسة مثل مسندي أحمد وأبي حنيفة ، وكان يجالس علماء فاس يتذاكر معهم على مسانيد الائمة الاربعة وله قول مأثور ذكره الناصري بقوله :

« والله لقد ضيّعنا عمرنا في البطالة ، ويتحسر على ما فاته من العلم ايام الشباب » .(٢٩)

ومن أعماله الاخرى إصلاحه خزانة القرويين وتعميرها ، وأصدر منشوراً مطولا بهذا الخصوص حث العلماء على الاهتمام بالعلوم الشرعية .(٣٠)

وكانت له آثار في المغرب الاقصى من مساجد ومدارس في القصبة ومراكش والصويرة وأسفي وتبط وفضالة والعرائش والازهر والصهريج والدار البيضاء وباب الجيسة وتاذار وغيرها .(٣١)

وانشأ مطبعة حجرية للتعليم وهي الاولى في تاريخ البلاد في مدينة فاس . وقد تطورت فيما بعد ولاسيما في عهد السلطان الحسن حيث طبع فيها كتب الرياضيات والفروض والحساب وغيرها .(٣٢)

كان عهد السلطان محمد بن عبدالله عهد ازدهار سياسياً واقتصادياً وفكرياً وعسكرياً شهد خلالها المغرب الاقصى مرحلة من الاستقرار والامن مما جعل العلوم والآداب والفنون تحظى بالكثير من الاهتمام والرعاية من السلطة والشعب عامة .

---

(٢٩) أبو القاسم الزياني ، ١١٤٧-١٢٤٩هـ / ١٧٣٤-١٨٠٩م ، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا ، حققه وعلق عليه عبدالكريم الفيلالي ، الرباط ، ١٩٦٧ ، ص ١٢-٣٦ .

(٣٠) عبدالقادر العافية ، « ملامح الحركة الفكرية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبدالله » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٧٣) ، الرباط ، اذار ، ١٩٨٩ ، ص ٢٥٢-٢٥٣ .

(٣١) الناصري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٥١ ، ٥٢ ، ٦٦ ، ٦٨ .

(٣٢) يوسف كناني ، « سيدي محمد بن عبدالله الملك العالم المجدد » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٩٢) ، الرباط ، اب ١٩٩٢ ، ص ٢١-٢٣ .

ثانيا : الاصلاحات التعليمية في المرحلة الثانية (١٧٩٠-١٨٥٩) :

يدخل اصلاح التعليم في المرحلة الثانية في ظل الاسرة العلوية في عهدي حكم سليمان (١٧٩٢-١٨٢٢) ، ثم عبدالرحمن بن هشام (١٨٢٢-١٨٥٩) حيث بدأ الاهتمام بمختلف الجوانب الفكرية لاسيما بعد مرحلة الازدهار الثقافي في عهد السلطان محمد بن عبدالله .

فقد شهد حكم السلطان سليمان ـ احد سلاطين العلويين ـ الذي تربى تربية دينية فأمتاز بالحزم والطاعة والاستعداد للدراسة وتلقي العلوم ولاسيما الشرعية ، فأهتم بمختصر الامام احمد بن حنبل وشروحه في النقد وزياراته العديدة لجامعة القرويين وحضر مجالس العلماء وجلسات الدروس العلمية ، وأختلط بجمهور الطلبة بلا امتيازات او مراسيم رسمية .(٣٣)

وكان لسليمان أساتذة من العلماء والمشايخ يقرؤون له الحديث والفقه ، وأمتاز بغزارة العلم وحسن الملكة ، وعَظّم العلماء ، ورفع منصبهم وعدّهم ورثة الانبياء ، وأجرى عليهم الارزاق والدور والضياع ، واحسن للمدرسين وطلبة العلم ، وزاد من جراياتهم ، واذكى فيهم روح التنافس والفهم مما جعلهم يقتنون امهات الكتب وينكبون على العلوم الاصيلة ، وقام ايضا بتجديد المدرسة العنانية ، ومدرسة جامع لواء الشريعة ، ومدرسة الوادي .(٣٤)

---

(٣٣) الناصري ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص ٦٩-٧٠ .

(٣٤) قاسم الزهيري ، « اتصال المغرب بالتعليم العصري » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٧) ، الرباط ، حزيران ، ١٩٦٩ ، ص ٢٤ .

وفي عهد السلطان عبدالرحمن بن هشام شهد المغرب الاقصى العديد من الاصلاحات في المجال التعليمي نظراً لما عُرف عنه من تقوى وعفاف وخلق عالٍ ، وحب للعبادة والصوم ، وتنشأته على حب الرعية حيث عاش في كنف السلطان سليمان عمه الذي ارسله مع ابنائه الى مكة المكرمة لاداء فريضة الحج . فاظهر الورع والتقوى ، ولما كبر أقام في مدينة تافيلات فَوَلّاه سليمان الصويرة ثم بعد ذلك استخلفه على حاضرة المغرب مدينة فاس وجَدّد لـه العهد ، وبعث به الى فاس وبايعه الناس بعد وفاة عمه سليمان ، وشهد عهده قيام موقعة أيسلي (١٨٤٤) ، وهزيمة المغرب امام القوات الفرنسية في تلك المعركة ، حيث أثبتت اخفاق المؤسسة العسكرية في مواجهة القوى الاجنبية ، وتصاعد صيحات المصلحين بضرورة إجراء الاصلاحات ، فواجه السلطان عبدالرحمن بن هشام مصاعب كبيرة تطلبت منه أن يسير مع رياح التغيير والاصلاح التي قامت في الجانب الاوربي من البحر المتوسط ، ولكنه اعتقد أن هذا لن يحدث ما لم يواكبه مساعدة اوربية تدفع بعجلة الاصلاح الى الامام ، ووقف امام نزعات الولاة الشخصية ، واتجاهاتهم الاقليمية ، فأكد ضرورة الاصلاح الشامل للدولة وفي مقدمة ذلك الجوانب الثقافية والفكرية ، فضلا عن البناء الجديد للجيش ، وتركيز السلطة المركزية للدولة والوقوف أمام تمادي الوّلاة الطموحين .

ففي مجال التعليم قام عبدالرحمن بن هشام بسلسلة من الاصلاحات فأصدر ظهيراً (مرسوماً) دلّ على عمق تفكيره ، وحكمته جاء فيه :

... بلغنا تواخر طلبة العلم على السعادة وجدهم في الطلب غير انه أقل التحصيل والافادة وذلك لمخالفة الفقهاء في اقرائهم الشيوخ وأعراضهم عما ينتج التحصيل والرسوخ فان الفقيه يبقى في سلكه سيدي خليل نحو العشر سنين وفي الالفية العامية لثلاثة لكثرة ما يجلب من الاقوال الشاذة والمعاني الغريبة الفاذة وكثرة التشعيب

بالاعتراضات وردها في مناقشة الالفاظ وردها ، ويخلط على المتعلم حتى لا يدري الصحيح من القيّم ، ولا المنتج من العقيم ... في الحديث مفهومان لا يشبعان طالب علم وطالب دنيا » .[35]

ويبين عبدالرحمن في هذا الظهير ان الطلبة مع جدهم وسعيهم في طلب العلم ونفورهم عن الدنيا إلا ان تحصيلهم وأفادتهم أقل مما ينبغي لكون شيوخهم وفقهائهم يعرضون عن تدريسهم المصادر الاصلية ، فأكد دراستهم للخليل الفراهيدي (١٠ سنوات) . وألفية أبن مالك (٣ سنوات) من اجل المناقشة والمذاكرة والتخلص من التشعبات والاعتراضات والتشبيهات ، وان العلماء قالوا طالب العلم والدنيا لا يشبعان مما يشير الى تسويغه التشديد على الاكثار من الدراسة والمواد الدراسية على الطلبة لصالحهم ومنفعتهم : فعلى الرغم من الاعباء الكبيرة التي وقعت على كاهله ، والمصاعب الداخلية ، والازمات الخارجية التي واجهها الا انه يهتم باصغر الامور وأدقها المتمثلة بالمناهج الدراسية ، وتشجيع العلماء والطلبة من اجل رقي البلاد وأزدهارها فكرياً .

وقد أقام مدرسة فنون بفاس ، وأرسل قسم من خريجيها الى اوربا لزيادة خبرتهم وأطلاعهم على التقنيات العسكرية الحديثة ومن هؤلاء محمد الجباص أرسله الى انكلترا ، وعبدالسلام العلمي الى ايطاليا ، وأنتشرت المدارس في المغرب مثل مدرسة دكالة العريقة ، ومدرسة اخرى للعميان .[36]

---

(٣٥) محمد بن عبدالعزيز الدباغ ، « بروز المولى سليمان بالعلم والعلماء وعلاقة ذلك بنسخة من تفسير الجلالين » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٦٣) ، الرباط ، اذار ، ١٩٨٧ ، ص ٨١ .

(٣٦) الناصري . المصدر السابق ، ج٨ ، ص ١٧٠–١٧٣ .

وقد ارسى دعائم الصلات بين المشرق والمغرب العربيين ، وأوفد بعثـة تعليمية الى مصر للاطلاع على التطور الحاصل بالطباعة والطب والفلك والحساب والتوقيت والتنجيم والموسيقى والهندسة .(٣٧)

وأرسل بعثات دراسية الى اوربا ايضا في رحلات علمية ، وظهرت في عهده دراسة العلوم الرياضية والفنون العسكرية وتقريبها من العلوم والدراسات الحديثة على ايدي أساتذة مغاربة ارسلهم الى اوربا لجلب الخبرات والعلوم والاحتكاك بالاوربيين .(٣٨)

وهكذا نجد ان السلطان عبدالرحمن أمتاز بالتقوى والعدالة وحيازته رضا الناس ، فأقام الدولة العلوية على قدميها ، وأعاد اليها شبابها وبعث بها الحيوية بعد ان كادت تزول ، فأمتاز بالحزم والحكمة وواجه مشكلات عديدة ومخاطر داخلية وخارجية وشهدت له البلاد بالعمران والتعليم والنهوض الفكري .(٣٩)

ثالثا : نمو نظام التعليم في المرحلة الثالثة (١٨٥٩-١٩١٢) :

استمرت محاولات السلاطين العلويين لاصلاح الاوضاع العامة في المغرب الاقصى ، فقد حاول السلطان محمد بن عبدالرحمن قائد جيش أيسلي عام ١٨٤٤ أن ينهض بالنواحي العلمية ، فجلب المهندسين من خارج البلاد ، وكانت له رغبة في أكمال الاصلاحات التي بدأها والده فبعد ان استطاع تكوين جيش حديث على الطراز الاوربي ، وأعادة تنظيم جرايات الدولة ، الا انه لم

---

(37) Abdullah Laroui, The History of the Maghrib, Interpretive , Essay, Transleted from the French by Ralph Manheim, Princeton University Press, New Jersey, 1977., PP. 322, 273-287.

(٣٨) نص الظهير منشور في :
الاخضر ، المصدر السابق ، ص ٣٩٠-٣٩١ .

(٣٩) عبدالعزيز بن عبدالله . « تاريخ التعليم الاسلامي بالمغرب » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (١) ، الرباط : تشرين الاول ١٩٦٠ ، ص ٥٦ .

يفلح في الاستمرار بهذا النهج لكونه غير جدير بالمسؤولية الكبيرة هذه ، وظل اسير سياسة تقليدية لمحاربة البدع والشوائب والخرافات التي علقت بالاسلام ؛ فلم يظهر محاولات تغيير جذرية في الجوانب الاخرى .

وبالرغم من ذلك قام ببعض الانجازات ، فأدخل المطبعة وطبع عدداً من الكتب وأدخلها القرويين في فاس ، وشَجّع العلماء والادباء مادياً ومعنوياً ؛ وخصص لهم الرواتب والمخصصات ، وأرسل الى مصر بعثة دراسية طلابية للتخصص في الرياضيات وتعليم المرأة ، ومعلمات للفتيات الصغار بشؤون الكتابة والقراءة والحساب ، وكان في كل حي دار فقهية او مدرسة اولية تهتم بالتعليم الديني .[٤٠]

ولكن نظام التعليم ظل قاصراً عن مواكبة مجريات التحديث التي تشهدها العلوم الاوربية نظراً لتمسك السلطان محمد بالعلوم التقليدية .[٤١]

وفي عهد السلطان الحسن الاول شهد المغرب الاقصى جهودا كبيرة لمتابعة حركة الاصلاح التي برزت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وفي مجال التعليم ارسل الحسن الطلاب الى مصر واوربا لتحصيل العلوم والرياضيات والفنون الحربية وكلّف شيخه أبا العباس احمد بن الحاج في كتابة تاريخ مفصل للدولة العلوية بأسم « الدور المنتخب » في ١٥ مجلداً .[٤٢]

ووصلت الى فرنسا وانكلترا وايطاليا واسبانيا بعثات طلابية مغربية في مختلف العلوم العقلية ، فضلا عن دعمه العلماء مادياً ومعنوياً وخوّل وزير

---

(٤٠) محمد بن عبدالله : « ناظر الوقف وتعامله مع التعليم الاسلامي » ، مجلة دعوة الحق ، العدد (٢٧١) ، الرباط ، تشرين الاول ١٩٨٨ ، ص ٧٦-٧٧.

(٤١) محمد المنوني ، مظاهر اليقظة المغرب الحديث ، ج١ ؛ مطبعة الامنية . الرباط ، ١٩٧٣ ؛ ص ٩٦ .

(٤٢) الناصري : المصدر السابق ، ج٩ ، ص ٧٧-٨٠ .

المالية صلاحية الاشراف على تكريم الفقهاء ، ومنح أوسمة فكرية للبـارزين منهم .(٤٣)

وفي الجانب العمراني شيّد الحسن عدداً من المدارس والمعاهد مثـل المدرسة اليوسفية بالرباط ، ومدرسة بجوار القصر الملكي ، وقام باحياء علوم الحساب والتعديل والنجوم والموسيقى والرياضـيات والفنون العسـكرية الحديثة ، وجلب مجاهر من فرنسا ، وظهر علماء بهذه التخصصات في المغرب . ففي فاس الحاج محمد بن الطاهر الحبابي في حقل الهندسة ، والحاج بن جاون الفاسي ورشيد الجملي ، ومحمد الصبان بمجال الموسيقى الاندلسية ، وظهرت المدرسة الحسينية ايضا والدراسة فيها لمدة سنوات في التنجيم واللغة العـربية والجغرافية والهندسة واللغة الاجنبية لاعداد الطلبة الذين سـيذهبون الـى اوربا لاكمال دراساتهم العليا .(٤٤)

وأنشأ مدرسة دار المخزن في فاس لتخريج الاداريـين الاكفاء ، وارسل عددا من الشباب الى اوربا لدراسة الفنون الهندسية في انكلتـرا وفرنسـا واسبانيا وايطاليا .(٤٥)

فأرسل في عام ١٨٨٥ نحو (١٢) طالباً الى المدرسة العسكرية في مونبليـة بفرنسا ، وأسست في عهده مدرسة الفنون العسكرية بالجديدة أهتمـت بالمدفعية وتنظيم الجيش المغربي ، وظهرت كتب بهذا المجال مثل « نزهة المجالس في عالم المدافع والمهاريس » ، و « تذكرة المجالس في علم المدافع والمهاريس » وفي عام ١٨٨٨ أرسل بعثة من (١٥) طالب مغربي الى فرساي بفرنسا لدراسة الهندسة العسكرية والمدفعية ، وبعثة اخرى الى ايطاليـا المدفعية وتتـراوح أعمار الطلبة بين (١٣ـ١٦) عاماً وكانوا (١٠) من الرباط ، (٥) من سلا ، (٤) من العرائش ، (٣) من طنجة و(٢) من فاس فأختارهم السفير الايطالـي في

---

(٤٣) كنون ، المصدر السابق ، ص ٢٨٠ـ٢٨٢ .
(٤٤) الاخضر ، المصدر السابق ، ص ٣٩٣ـ٣٩٤ .
(٤٥) التازي ، المصدر السابق ، ص ٧٣٢ـ٧٣٤ .

المغرب الاقصى **Canttily** ختنلي للدراسة في المدرسة الدوليـة الملكية في روما وشعارها « الإخاء الاجنبي » وتهتم بالعلوم البحرية وصناعة السلاح وتعلم اللغة الايطالية .(٤٦)

ولابد من الاشارة الى أنه في عهد الحسن الاول ظهرت أول مرة مدارس حديثة في المغرب تابعة « للاتحاد الاسرائيلي العالمي » ، وبعض القناصل الاجانب . خاضعة لسيطرة اليهود في المغرب والمستقرين في احياء خاصة بهم تسمى (الملاح) ، وأهتمت هذه المدارس بالشؤون الدينية ، ومبادىء اللغة الفرنسية ، وأنيطت مهمة التدريس بمعلمين من الاتحاد وكانت لها فروع في الرباط والدار البيضاء واسفي وفاس والصويرة ومراكش ، فضلا عن فتح مدارس قنصلية في هذه المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر من لدن الجاليات الاوربية والتجار الاجانب واعضاء السلك القنصلي ومفوضية فرنسا في المغرب منها ثلاثة للجاليات الأجنبية وأثنتان للمواطنين المغاربة .(٤٧)

أما في مجال المناهج الدراسية فأكد الحسن دراسة امهات الكتب مثل التلخيص لابن سينا ، والمنية لابن غازي ، والالتزام لعبدالرحمن الفاسي ، وكشف الاسرار للقلصاوي ، وعلم الهيأة المقنع لمحمد بن سعيد السوسي ، وسلك الفرائض لابن الصباغ ، وشرح بنيس على فرائض المختصر .(٤٨)

اما الطرق الصوفية التي أهتمت بالمجالين الديني والفكري ولاسيما الوزانية التي انتعشت في عهد الحسن الاول ومؤسسها الشريف الوزاني الذي احتل مكانة مرموقة في المغرب الاقصى ونفوذ واضح على بعض القبائل ، مما جعل الحسن الاول يحبس اتباعه عام ١٨٧٥ ، فأحتج الوزاني والتجأ الى المفوضية الفرنسية ، وكانت لهذه الطرق دورها المعروف في نشر

---

(٤٦) المنوني . مظاهر يقظة المغرب ، ج١ . ص ١٠١–١٠٥ .

(٤٧) يحيى . المصدر السابق . ج٣ . ص ١٠٨–١٣٦ .

(٤٨) المنوني . مظاهر يقظة المغرب ، ج١ . ص ١٠٨–١٣٦ .

أساليب التعليم الديني في بعض أقاليم المغرب آنذاك الا انها ضعفت في عهد السلاطين العلويين مقارنة بالعهود السابقة .[٤٩]

وفي عهد المولى عبدالحفيظ (١٩٠٨–١٩١٢) فأن المغرب لم يشهد الكثير من الاهتمام بالشؤون التعليمية كما سبقه عبدالعزيز ايضا (١٨٩٤–١٩٠٨) وكانت هذه المرحلة قبيل فترة الحماية الاجنبية قد حظيت ببعض الاهتمام بالمشاريع العمرانية والفكرية وتوسيع الحركة العلمية والتأليف والنشر والطبع، فقام عبدالحفيظ بأنشاء مطبعة لطبع الكتب النادرة والعلمية ، واستخدم مطابع حجرية بفاس ، وطبع مجلدات وكتبا في مصر على تفقة الدولة من المعارف الاسلامية مثل تفسير أبي حيان بـ ٨ مجلدات ، وكتاب احكام القرآن للمعارفي بمجلدان وغيرها .[٥٠]

إن فرض الحماية في المغرب الاقصى لم يغير كثيراً الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية والسياسية مقارنة بدول المغرب العربي الاخرى ، فالمغرب نتيجة لتأخر الاستعمار الفرنسي في فرض الحماية حتى عام ١٩١٢ ظل بعيداً عن التغيرات الاجتماعية – الاقتصادية التي ادخلتها فرنسا في الجزائر وتونس فعلا ، ولذلك فان نظام التعليم تأثر بشكل اقل مما تأثر به الجزائر وتونس ، فضلا عن وجود المدارس الوطنية الاهلية ، التي بقيت تمارس نشاطها الى جانب التعليم الرسمي .

---

(٤٩) الزهيري ، المصدر السابق ، ص ٢٢–٢٣ .

(٥٠) المصدر نفسه . ص ٢٣–٢٤ .

THE DEVELOPMENT OF EDUCATION IN FAR MOROCCO IN AL - ALAWAI AGE (1664 — 1912)

By Dr. Mufeed G. AL - Zaidy

ABSTRACT

The research is dealing with the development of Education system in the AL-Alawia age in Far Morocco in the Second half of 17th century until the Second decade of the Twenty Century, and the concerned of Sultans towards Education since the age of AL-Mula Rasheed (1664-1672 whom in the age AL-Zawya AL-Dalayai. appeared, then in the age of Ismail Ben AL-Sharief (1672-1727) and his encouragement to Science and Scientists, then after him came Saidi Mohammed Ben Abdulla (1735-1757) whom in his age arts and Sciences were blossomed, and the revival of education in the age of Suleman. then Abd AL-Rahman Ben Husham (1822-1859), and the reforming of all aspects in the Country afther the defeat of Eslai war in Front French, as Education witnessed, in the age of AL-Hassan Ist, (1873 - 1894) then AL-Mula AL-Hafidh (1908-1912).

BARBARIAN LANGUAGE —

AN ANCIENT ARABIC LANGUAGE

By - Mohammed AL - Mukhtar AL - Arbawi

ABSTRACT

It is clearly possible to deduce important conclusions from archaeological information that AL - Barber are a nation emigrated from the east . These facts are categorically supported by the contents of the barbarian language and the names of prominent barbarian scholars .

In these fields of studies there are absolute facts which consider the semantic of the languages to be the best and clear means to prove the cultural ties and family connections between nations . Hence, we are invited to investigate this subject depending on the achievement in the comparative linguistics and linguistic information and facts in the studies of the Barbarian Language and its relation with ancient Arabic languages. In this paper we will refer to the Barbarian language rather than use the term Lubian Language because the latter is not commonly known.

SEMANTIC RECEPTION AND PRODUCTION

By Dr. Majid AL - Ja'aifreh

ABSTRACT

A text receives its existence from the process of reading or the interaction between the reader to whom the text is created and the language through which that text finds its unlimited potential expression . Since lyrical poetry is the art of creative expression in words and their meaning, the production of meaning and the creation of significance requires a definition of what is meant by " images " and their verbal expression .

This paper is an attempt to investigate the role of the reader, the recepient, in the production of meaning and significance through one of AL-Mutanbi's Poems in which the lyrical aspect represents one of the effective factors in the poem through meaning or through the tone and its various manifestation. Furthermore, the investigation concludes that the poet was paradox as a basis component in formulating his vision and its expression.

SCIENCE AND HUMANITIES

By Dr. Ali M. AL - Maiyah

ABSTRACT

The study tries to introduce the philosophy of science within wider philosophical contexts, in the attempt to show the problems which appear to be specific to science are actually species of wider philosopical issues . The field of science is unlimited, every group of natural phenomena, every phase of social life, every stage of past or present development, is material of science .

Mathematical procedures have been used by Arab scientists centuries ago to deal with certain problems of language, peotry, Geography and many other subjects .

CHILD ABUSE

By Dr· Ibrahim AL - Kanani

ABSTRACT

Child abuse which takes place within the family context is considered one of the complementary aspects of human violence . It includes a wide range of intentional or even unintentional practices by both parents or one of them , which causes developmental damage together with emotional and behavioral disturbances .

ARAB EDUCATION IN THE SPHERE OF HIGHER EDUCATION AND FUTURE DEMANDS

By Dr. Riadh H. AL - Dabbagh

ABSTRACT

Arab Education " as a concept deserves a special classification to distinguish it from any other education, i.e., such education has certain characteristics and objectives

Arab education has been systematized within various kinds of education according to different ages, environments and cultures . Its concepts, principles and methods varied historically from age to age , one community to another , and from one group of educators to another .

Future demands are greater because future extends far , derives its strength from present basic elements and past illumination , and paves the way before researchers to foresee the future extending before them to cover the whole area of humanity with all its intellectual treasures , and , scientific , technological innovations are already achieved or expected to be achieved .

REVIEW OF THE NATURE OF THE EMIGRATION OF MUSLIMS AT THE ERA OF THE PROPHET

By Dr. H. AL - Mallah

ABSTRACT

The research tries to study the question of which the emigration of Muslims from Macca at the era of the Prophet Muhammad was a voluntary emigration or it was an emigration by force ?

The research concluded that the Muslims emigrated from Macca by force for several reasons.

BIODIVERSITY

By Dr. Basil K. Dalaly

KEY WORDS : Biodiversity, Ecosystem, Biosphere

ABSTRACT

Life is wholly reliant upon the environment in which we live , an environment so rich and complex that we cannot fully comprehend . The human race has a vital role to play in the future of earth , care and protect its natural resources . In fact the human being survival depends on it . The progress witnessed in this century caused destruction of the earth's biological diversity at an alarming rate . Species extinction is at a level never known before . Ecosystems such as forests , wetlands and grasslands are being altered , upsetting the delicate balance of nature .

SOLID STATE IONICS

By Dr. Jalal M. Salih

KEY WORDS : Solid electrolytes, superionic conductors, solid proton conductors, Beta batteries.

ABSTRACT

The last two decades of this century have witnessed major advances in solid state electrochemistry which may prove as significant as the developments in aqueous electrolyte solution theory inspired by Arrhenius and others towards the ends of 19th century . An attempt was made in this paper to show that a new area of science is emerging which is finding applications in medicine, electroanalysis and solid state circuitry . However, from a practical standpoint, emphasis was given to the most important developments which involved the area of high energy density batteries that could play a crucial role in the impending energy revolution .

Journal

of the

ACADEMY OF SCIENCES

Quarterly Journal - Established 1369 H - 1950

Add : ACADMY OF SCIENCES.

P. O. BOX 4023 WAZYRIA, AADAMEA, BAGHDAD - IRAQ

Tel : 4221723 - 4222066 Fax : (964 - 1) 4254523

— Annual Subscription : In Iraq (4000) I. D.

— Outside Iraq (50 Dollars) air mail not included

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ١٦٧٦ لسنة ١٩٩٩



Journal

of the

ACADEMY OF SCIENCES

No. 3

Vol. 46

1420 H - 1999